القائمة الطويلة للجائزة العالميّة للرواية العربية "البوكر 2023"

فاطمة عبد الحميد

الأفق الأعلى

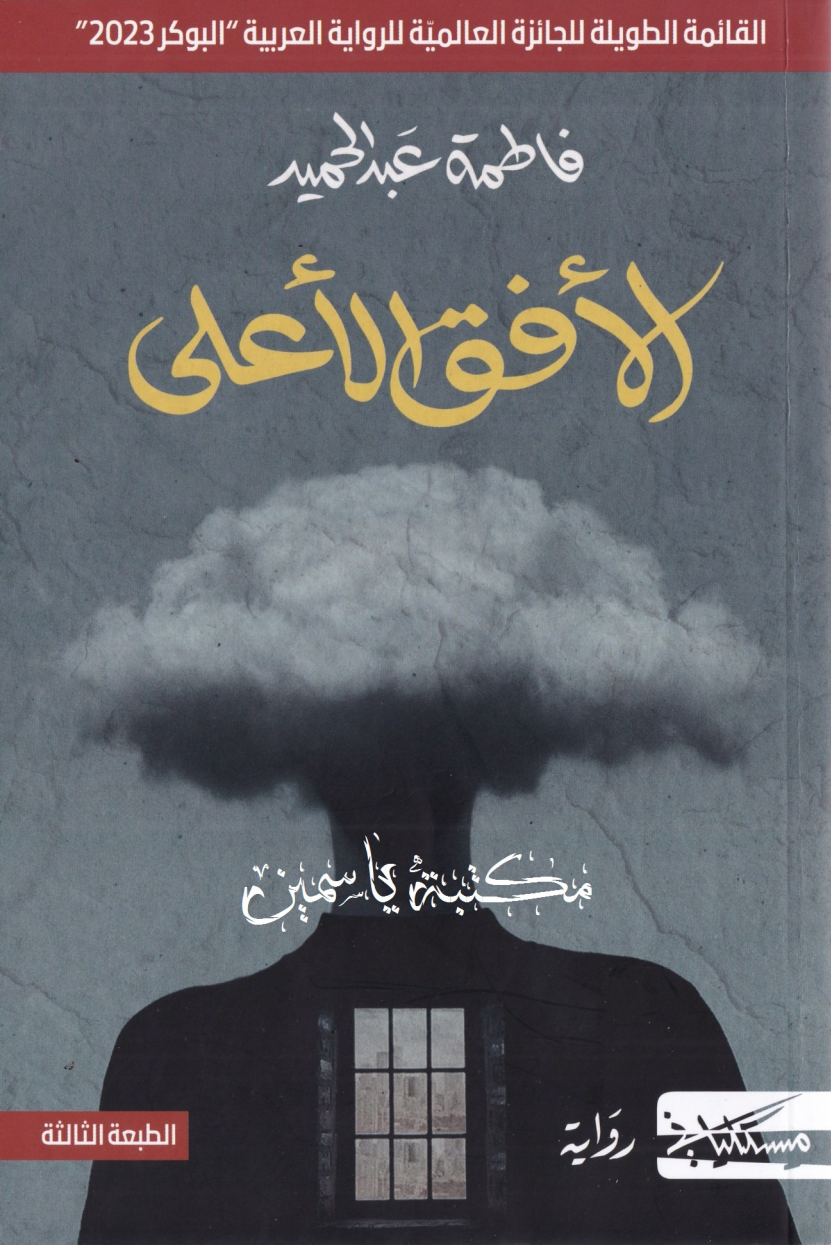

مكتبة ياسمين

رواية

الطبعة الثالثة

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

فاطمة عبدالحميد

الأفق الأعلى

تموت الزوجة، فيُدرك الرّجل قدرتَهُ على بناء البيوت.

يتعرّف سليمان على الحُبّ متأخّرًا في حياته، تغادره والدته، ثم زوجته، فلا يبقى منهما سوى ظلالهما التي تأمره بألّا ينسى باب الشرفة مفتوحًا، ولكنّه يغفل عن وصاياهما وينسى باب الشرفة مفتوحًا، ليجد الحُبّ على هيئة ظلٍّ لطيفٍ في الشرفة المقابلة. غير أنّ الموت، الذي وهب سليمان فرصةً جديدةً في بناء البيوت، هو الذي يروي لنا قصّته في هدمها الواحد تلو الآخر، من أفقه الأعلى، ساخرًا من الإنسان ودأبه في حياةٍ هي في الحقيقة لعبٌ ولهو.

«الأفق الأعلى» هي الرواية الثالثة بتوقيع فاطمة عبدالحميد، بعد «حافة الفضة» و«تاء النسوة»، بطلها هذه المرّة رجلٌ، وصوتها هو الموت. فهل يحتاج القارئ حقًّا، في ظلّ وجود الحوارات الذكية، واللّغة الروائية المنسوجة باقتدار، والشخصيات ذات المعالم المدروسة والنبرة الواضحة، إلى رنين القضايا الكُبرى أو قناع التاريخ؟ ألا يمكن فهم جانب من الحياة بالتعرّف على رجلٍ وحيدٍ في شرفة، كلّما رحلت امرأةٌ من حياته أشرق؟

النّاشر

ISBN: 978-9938-74-021-9
9 789938 740219

فاطمة عبد الحميد

الأفق الأعلى

رواية

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

مسكيلياني

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

المؤلّفة: **فاطمة عبدالحميد**

عنوان الكتاب: **الأفق الأعلى**

خط الغلاف: **الفنّان سمير بن قويعة**

تصميم الغلاف: **عبد الفتّاح بوشندوقة**

ر.د.م.ك: **978-9938-74-021-9**

الطبعة الأولى: جوان 2022

الطبعة الثالثة: فيفري 2023

حقوق الطبع محفوظة للناشر ©

منشورات ميسكلياني

الإمارات: مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر، المنطقة الحرّة، الشارقة، الإمارات
الهاتف: 561936632(971+) أو 504731882(971+)

تونس: 13 شارع محمّد الخامس، المدينة الجديدة2، تونس
الهاتف: 561936632(971+) أو 93794788(216+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

«هذا الّذي يدعُونَهُ الموتَ، ليس
إلّا الألمَ الأخيرَ فحسْبُ»

أمبروز بيرس

مكتبة ياسمين على تليجرام

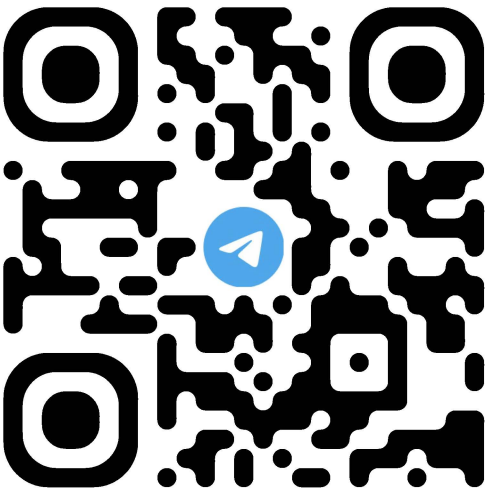

أنا في طريقِي إليكَ

ها أنا وراءَكَ تمامًا... أحدّقُ الآن إلى الجزءِ الخلفيِّ مِنْ رأسِكَ وأنتَ تقرأُ هذه الكلماتِ، فتَحَلَّ بالصّبرِ، ولا تلتفِتْ قبْلَ أن أُنهِيَ ما جئتُ لِقَوْلِه! فهذِهِ ليسَتْ قصَّةً مُختلقةً، وإنْ كنتُ أُحَدّثكَ مُباشَرةً بصَوتِكَ أنتَ، فلأنّ صَوتي لنْ يكونَ مُستَساغًا. ستتأكّدُ مِنْ هذا حينَ نلتقِي وَجْهًا لِوَجْهٍ، فنحْنُ سَنلتقِي لا مَحالةَ، مَهْما أَهْدَرْتَ مِنْ وقتٍ بعيدًا عنّي... لا تنظُرْ إلى ساعتِكَ، وكأنّ أمْرَ الوقْتِ يهُمُّكَ إلى هذا الحدِّ، فأنتَ تعيشُ مُعظَمَه حسب العادة... ولم تكُنْ في يومٍ تتحاشَى الخطأَ مِنْ أجْلِ الصَّوابِ، لأنّ الخطأ ببساطةٍ لا يستغرقُ وقتًا طويلًا كالصّواب، فلا تأْسَ على نفسِكَ الفانِيةِ، إنْ أدْركتُكَ قبْلَ أنْ تُدركه... وهوّنْ عَليْكَ، فالأمْرُ معي أقلُّ تعْقِيدًا، إذ لا أحدَ في السّماءِ يملِكُ دافِعًا لتدْمِيرِكَ، لكنّ الفِطْرَةَ الأرضِيَّةَ هي الّتي رسّختْ فيكَ الظنّ بأنَّ كُلَّ ربحٍ لأحدِهم، هو خسارةٌ لِآخَر.

لا تخفْ... إنّ الوجودَ هناكَ يختلفُ عنِ الوُجودِ هنا. فهناك لا ينمُو الكائنُ عمُوديًّا كحالِكم هنا، بل ينمُو في ذاتِهِ، ولذاتِهِ، بعيدًا عنِ الآخرين. وهُناكَ، تمتدُّ سلالمُ لا نهائيّةُ الطّولِ، مِنَ الأسْفلِ إلى الأعلى... مِنَ الجحيمِ إلى النّعيمِ، ولكلّ فردٍ سُلَّمُه. قد يبدأُ أحدُهم

الصُّعودَ مِنْ أسفلِ السّلّمِ، بينما يبدأُ غيرُهُ مِنَ المنتصفِ، ويبدأُ ثالثٌ مِنَ الأعلى، وقد تنزلقُ قدمُ أحدِهم كلّما ارتفعَ درجةً أو درجَتيْنِ، ليظلَّ قريبًا مِنَ القاعِ، ويرتقِي بعضُهم الدّرجاتِ سريعًا في صُعودٍ لا نهايةَ لهُ، وهكذا لا أحدَ يشبهُ أحدًا، ولا أحدَ يلتفتُ إلى أَحَدٍ. ووظِيفَتي الأزليّةُ، تتمثّلُ في نقلِكم مِنْ هُنا إلى هُناك.

نعم! أنا أسوأُ مخاوفِكَ، وأنا كاتمٌ سِرَّ زيارتِي المباغتةِ لكَ، وهذا ما لنْ يحبَّهُ كلُّ مَنْ يهتمُّ بأمْرِك. ولتعلَمْ فحَسْب، أنّه لا فرقَ بيْنَ أن تُولِّيَ وجهَكَ شطْرَ الحائطِ لحظةَ وصُولي أو أن تُولِّيَ له ظهْرَكَ، ففي كلتا الحالتينِ لنْ تستطيعَ منِّي إفْلاتًا. لأنّني سأكونُ حِينَها أضْخَمَ نفُوذٍ يسْتَولي عَليْكَ.

ألمْ تقولوا إنّ دفقَ الماءِ، حين يُفْتَحُ الصّنبورُ، يستحيلُ أن يتراجعَ إلى الوراءِ؟ ها أنا وراءَكَ تمامًا، فتَحَلَّ بالصّبرِ، ولا تلتفِتْ!

حسنًا، كلُّ الأفكارِ المتَداوَلةِ على الأرضِ عن اللّحظة الّتي بدأتُ أزاولُ فيها هذِهِ الوظيفةَ الأبديّةَ غيرُ دقيقةٍ، ثمّ إنّ أمْرَ البدايةِ لا يعْنيكَ، وكُلُّ ما عليكَ أنْ تُدركه هو أنّني اللّمْسَةُ الأخِيرةُ، اللّمسة التي تمرّ على ألِمَكَ المزمِنِ، بعْدَ صِراعٍ طويلٍ مع المرضِ، فتَجْعَلك تسأل نفسَكَ: أين ذهبَ فجأةً كلُّ ذاك الوجع؟ إنّني مصْدرُ غَريزةِ الخوفِ بداخِلِك مُذْ كنتَ جنينًا، وأؤكّدُ لكَ أنّ تناسي وجُودي حلٌّ لنْ يُنقِذَك. فعلى نحوٍ لا يُدركهُ مخلوقٌ، تحدّدتْ كلُّ المناصبِ العليا في سريرةِ الخالقِ، ولسوءِ الطّالعِ، كانت وظيفتي أن أتفرّغَ للقَبْض عليك. لم أكُنْ سليلَ أُسْرةٍ من نورٍ خالصٍ كبقيّةِ

الملائكةِ، ولم أُخلقْ من نارٍ أُسوةً بالشّياطين... وإنّما خُلقتُ من نورٍ ونارٍ، لذلك أُوكلتْ إليّ هذه المهَمّةُ المهيبَةُ، مَهمّةُ تخفيفِ الأرضِ منْ ثِقلِ مخلوقاتِها. ومِنْ ثمّ، أستحقُّ، مِنْ بابِ الإنصافِ، ألّا تُضيِّقُوا عليَّ بكلِّ هذا الأسى الدّنيويِّ، فأنا أخلّصُكم مِنْ طُغاةٍ كثيرينَ، ومِنْ بعْضِ الأثرياءِ أصْحابِ الطّائِراتِ الخاصَّةِ المِلّينَ، وأخلّصُ بعضَكم مِنْ حياةٍ عليلةٍ مُزمِنَةٍ تُرهِقُهُ، وتُرهِقُ مَنْ حوْلَه.

وعلى أيِّ حالٍ، مهما يَكُنْ ما أخبرتُكم بهِ سيّئًا، فإنّه ليس أسْوأَ ممّا تظنّونهُ بِي منذُ الأزل. هذا هُو قدَري وقَدرُكم، ولا أحَدَ يستطيعُ اقتِطاعِي مِنْ سِياقِ حِكايتِهِ، حتّى في حالةِ سليمان عليّ الرّيس، الّذي سكنَ العمارةَ السّابعةَ والثّلاثين، فوقَ بقالةِ المسرّاتِ في «حيّ بَدّار»، على بُعدِ بنايتيْنِ من حِراجِ السّيّارات... وعلى الرّغمِ من كلِّ ما أحيطُ به عِلْمًا، لا يُخجلني البتّة الاعتراف بأنّني وجدتُ الأمرَ هُناك مختلفًا. فما إنِ اقتربتُ منهُ، ودخلتُ الحكايةَ منَ البابِ الخلفِيِّ، حتّى دارتِ الأرضُ دورةً جدِيدةً جَعَلَتْني في حاجةٍ إلى بعضِ الوقتِ لأُصَحِّحَ ذاكَ المسار.

***

تقولُ العبرةُ: «عندما تهمّ بالتقاطِ حجرٍ من الأرضِ، فعليكَ أن تستعدّ لما ستجده تحتَهُ، وإذا لم تكن مستعدًّا لذلك، فلا تفكّر في التقاطه منذُ البَدْء». وعلى الرّغمِ مِنْ أنّ هذِهِ القاعدةَ الأرضيّةَ مألوفةٌ لدى الكثيرينَ، فإنّها تبقَى مُغيَّبَةً عَنْ بعضِهم. وكذلكَ كانَ حالُ أمِّ سليمانَ، السيّدة حمدة، حينَ التقطتِ الحجَرَ المعنيَّ، وزوّجتْ ابنَها

الوحيدَ واليتيمَ في سِنِّ الثّالثةَ عشْرةَ مِنْ فتاةٍ تكبُره بأحدَ عشر عامًا، وفي ظَنِّها أنّها جاهزةٌ لما ستجدُهُ تحتَ ذاكَ الحجرِ، إلّا أنّها نالتْ من سُخريةِ الأقاربِ والجيرانِ قِسْمَتَها، وتحديدًا مِنْ آباءِ الفتياتِ الصّغيراتِ الّذين امتنعُوا عنْ مُصاهرتِها، بنِظرةٍ متعاليةٍ، جعلتْها تعلمُ عِلْمَ اليقينِ، أنّ صِغَرَ الفتياتِ ما كان ليُشَكِّلَ سببًا يمنعُهم مِنْ تزويجِهِنَّ، لو أنّ لابنِها الوحيدِ جاهًا أو مالًا يُسانِدانِه. لقد أرادتِ المحافظةَ على السُّلالةِ، بتسْريعِ عَجَلةِ الزّمنِ، لكنّها، بعْدَ خمسةِ أشهرٍ فقط مِنْ تزويجِ ابنِها بابنةِ خالِها نبيلة، أُحْبِطتْ تمامًا، وخارتْ قُواها مِنْ تكرارِ مُحاولاتِها اليائِسَةِ كلَّ مساءٍ، لإعادَةِ العريسِ الهاربِ مِنْ عَروسِهِ كيْ يلعَبَ كُرةَ القدَمِ معَ رفاقِه... إذْ ظلّتْ تجُرُّهُ جرًّا ممسِكةً بأذْنِهِ وكتِفِهِ، وهي تُوبّخهُ بصَوْتٍ يلتفِتُ إليهِ العابِرون. في البدْءِ، يتبعُهُما أصدِقاؤُه القِصَارُ القامَةِ، وهم في الغالبِ مِنْ رفاقِ صَفِّهِ، غيْرَ أنَّ الحشُودَ تظلُّ في تزايُدٍ كلّما اقتربَ مِنْ بيتِهِ، لتشْمَلَ طلبَةَ صُفُوفِ المدرسَةِ كلِّها، فضْلًا عَنْ إخوتِهم الّذِينَ لم يلتَحِقُوا بالمدْرسَةِ بعْدُ، صارخِينَ خلفَهُ بهُتافٍ واحِدٍ: «سليمانْ، سليمانْ... يحرِدْ مِنْ بيتِ العِرسانْ». وحالما يصِلان، تقذِفُ بهِ أمُّهُ فَوْرًا تُجاهَ غُرْفَةِ نوْمِهِ الّتي تتوسَّطُ البيتَ، وتفصِلُها عَنْ غُرفتِها غُرفةٌ ثانِيةٌ، أُعِدّتْ لاسْتِقبالِ الأحْفادِ، تَقذِفُهُ نَحوَ الغُرفةِ وتَقذفُ في أُذنيْهِ الجملةَ المعهودةَ ذاتَها: «افْعَلْ ما يفْعَلُهُ الرِّجالُ... أفهِمْتني؟»، ولطالما كرّرَتْ على سَمْعِهِ تلك الجُملةَ بوجهٍ كامِلِ الاسْتِدارةِ، وافِرِ التّجاعيدِ. قالتْها لهُ بأساليبَ كثيرةٍ، منها السّاخِطُ، ومنها الحاني، ومنها ما هو مخلوطٌ

بخبثٍ نسائيٍّ مُحرِّضٍ، مختومٍ بغمزةٍ حاكاها سُليمان بغمزةٍ مماثلةٍ، دون أن يعِيَ السّببَ على وجْهِ الدِّقَّة. ولا يشُكُّ أحدٌ في أنّها طرقَتْ كُلَّ الأبوابِ، حامِلةً معها تلكَ الجملةَ العصِيّةَ على فهْمِهِ: «افعلْ ما يفعلُهُ الرِّجالُ...». وفي أشَدِّ حالاتِ اليأسِ، كانتْ تقولُها وهي تربِّتُ على ظهْرِهِ، وتئنُّ ببكاءٍ محبوسٍ في صدْرِها، متأرْجِحَةً في مكانِها، بينما يجلسُ سليمان على ارتفاعِ درجتينِ عنِ الأرضِ، طاويًا إحدى قَدَميْهِ قريبًا من صدره، أمّا قدمُه الأخرى فكان يُحرّكها وسط التُّراب، وينتقي حصاةً يضعُها بين إصْبَعينِ، ثمّ يقذِفُ بها بعيدًا، كما تفعلُ أمُّهُ بحبّاتِ الأرُزِّ السّوداءِ قبْلَ طبخِهِ. ولمّا يصرُخُ غاضِبًا، وهو يمدُّ قدمَهُ إلى جوارِ قرينتِها، لتُثيرا معًا سحابةَ غبارٍ مفاجئةً، تُغمضُ أمُّهُ عينيْها، وتسْمَعُهُ يقولُ كمنْ توصّلَ إلى الحلِّ السِّحريِّ: «سأفعلُ ما يفعلُهُ الرِّجالُ، إذا سمَحْتِ لي بأنْ ألعبَ الكُرَة!!».

ولئنْ كانَ هُناكَ القليلُ مِنَ المعجبينَ بجسارةِ السّيّدة حمدة في تأسيسِ عائِلتِها، فإنّ عددَ النّاقِدِينَ لها كانَ أكثَر. إذ تضَخّمتْ أذنا سليمان من شدّة المسك والجذب، وصارتا بعِيدَتيْنِ عَنْ رأسِهِ بشَكلٍ ملحُوظٍ... صارتا أذُنيْنِ وطواطيّتيْنِ كما يشخِّصُ الأطبّاءُ هذه الظّاهرة، ولعلّ ذلكَ ما دفعَ الأُمَّ إلى التّوقّفِ عنْ إعادتِهِ إلى البيتِ مسحُوبًا مِنْ إحداهما، والاكتفاءِ بجرِّهِ منْ عُنُقِه. حِينَها بدأَ سُليمان يُعاني فُواقًا شَدِيدًا، حتّى وهو نائمٌ، ولم تكفَّ عروسُهُ عنْ سماعِ تلكَ الرّكلاتِ الّتي تكادُ تقْفِزُ مِنْ صدْرِه.

وقدِ اسْتَغْرقَ الأمْرُ مِنْ نبيلة عامًا وثلاثةَ أشهرٍ، لتُفهِّمَهُ بشكلٍ كاملٍ، ما يفعلُهُ الرِّجالُ مع زوجاتِهم في خَلواتِهم.

***

ورِثَ سُليمان عَنْ أمِّهِ جهْلَها بخُطُورةِ ما يختبِئُ تحتَ الأحْجارِ. لذا اسْتيقَظَ مذعُورًا، في ذلك اليوم، والسّاعَةُ تُقارِبُ الثّالثةَ فجْرًا، وعلاماتُ الوسادةِ مَطبُوعَةٌ على خدِّه. نهَضَ مِنْ سَريرِهِ يُعاني فُواقًا سيُعالِجُهُ بشُربِ الماءِ، وجذَبَ أغْطِيَةَ الفِراشِ، ثمّ رمَى بها أرضًا، وخرجَ مِنْ غرفتِهِ على رؤُوسِ أصابِعِهِ، مُحاولًا أن يتحاشَى الأرضِيّةَ البارِدَةَ، إذْ لا يعرفُ أين أخفَى حفيداهُ خُفّهُ المنزليَّ، وجاهلًا بالوجهةِ الّتي سيمضي إليها بعيدًا عنِ الأرقِ، وبعيدًا عنِ السّريرِ. فباستثناءِ الأيّامِ التّسعةِ الماضيةِ، الّتي مرَّ الوقتُ في أثنائِها ثقيلًا كأنّهُ يعبُرُ حاجزًا مِنْ إسمنتٍ، لم تبتعِدِ السّيّدة نبيلة مُدّةً كهذه عَنْ بيتِها، طَوالَ ثمانِيةٍ وثلاثينَ عامًا. ومِنْ ثمَّ، وجَدَ نفسَهُ عالِقًا في المطبَخِ، لا يعْرِفُ مِنْ أينَ يبدأُ ليلَهُ. وعلى الرّغمِ مِنْ أنّ وسائِلَ تخفِيفِ الأرقِ مرّتْ أمامَ ناظِرَيْهِ في شَكْلِ رسائِلَ قرأَها على شاشَةِ هاتفِهِ مُنْذُ سَنواتٍ، فإنّه لا يتذكّرُ مِنْها الآنَ شيئًا. لذلكَ قالَ لنفسِهِ مُواسِيًا، وقد وقفَ مُولّيًا وجهَهُ شطْرَ الدّولابِ، تحتَ مِصْباحٍ دائِريٍّ يتدلّى مِنْ سقْفِ مطبخِهِ، فينعَكِسُ ضَوؤُهُ فوقَ طاولةِ المطبخِ على شَكلِ طبقٍ مِنْ ظلالٍ: «إنّ طُرقَ تخفِيفِ الأرَقِ كطُرقِ الثَّراءِ السَّريعِ، لا يمكنُ أنْ تنجَحَ إلّا في حالاتٍ نادِرَة».

أوّلُ ما يلفِتُكَ في رأسِ سليمانَ هو أذناه، أذنان تبدُوانِ لخفّاشٍ،

لا لكائِنٍ بشَرِيٍّ، ومَنْ لدَيْهِ مِثلها فسَيُعاقَبُ، حَتْمًا، بسَماعِ أخْفَضِ الأصْواتِ وأبْعَدِها. ثمَّ تشُدُّكَ فيهِ بَشَرةٌ صَلصالِيَّةُ اللّوْنِ، ورجفَةٌ طفِيفَةٌ على خدِّهِ الأيسَرِ، وكفٌّ ظاهِرُها مُغطًّى بشَعْرٍ كثيفٍ يتخلّلُهُ بعضُ البياضِ، أشعلَ بها الموقدَ، وهو يتَظاهرُ أمامَ نفْسِهِ بأنّهُ يعْرفُ ما يفْعَل. لكنّ الحقيقةَ هيَ أنَّ طريقتَهُ في تفْتِيشِ العُلبِ الصّغيرةِ المتشابِهةِ في اللّوْنِ والحجْمِ بحثًا عنِ البُنِّ، لا يمكنُ أنْ توصفَ بالماهِرة، إذ يبْدُو أنّهُ كرّرَ فتْحَ بعْضِ العُلَبِ أكثرَ مِنْ مرّةٍ دونَ أنْ يلحَظَ ذلكَ، بالإضافةِ إلى أنّ الماءَ المغلِيَّ فاضَ فوْقَ الموقدِ، ما أثارَ غضَبَهُ وفزَعَهُ مَعًا. في إثْرِ ذلكَ، توجَّهَ إلى شُرفَةِ المطبخِ الّتي تُطِلُّ على زقاقٍ يفصِلُهُ عنِ العِمارةِ المقابِلةِ، وسَحبَ البابَ الزّجاجِيَّ، ثمّ خرجَ إلى الشُّرفَةِ، حيثُ يمتدُّ اللّيلُ ببُطءٍ كدُخانٍ كثيفٍ أسْوَد. نظرَ إلى الأسْفلِ قليلًا... لكِنَّ الأمْرَ غيرُ مُهِمٍّ على الإطلاقِ، فتِلكَ مُجرّدُ عادَةٍ بشَريّةٍ، تلي فتْحَ أبوابِ الشُّرفاتِ والنَّوافِذ. حينَ عادَ إلى المطْبخِ، لم تكنْ رائِحةُ الغازِ قدْ تسرّبتْ بشَكلٍ حادٍّ، ومعَ ذلكَ لامَ نفْسَهُ على الابتِعادِ عنِ الرَّكْوَةِ، كما فاجأهُ صَوْتُ أمِّهِ الّذي حضَرَ ليرْصُدَ أخطاءَهُ، ويَنْتقِدَها كعادتِها، فسَمِعَها وهي تعاتبُهُ: «إنّ مراقبةَ البَيْضِ وهو يتقلّبُ في الماءِ المغلِيِّ لا تُعجِّلُ اسْتواءَه... عليكَ أنْ تفعلَ ما هو أفضلُ، وتبتعِدَ عنْهُ قلِيلًا». هشَّ أذْنَهُ بشَكلٍ أقلّ تأدُّبًا، لا يليقُ بحضْرةِ أصْوات الأمواتِ، ثمّ مسَحَ شيئًا رطبًا شعُرَ بهِ على قفاه، وعادَ إلى البحْثِ عنِ البنِّ بيْنَ العُلبِ المتشابِهة. في تلك اللّحظةِ، عبرتْ أُذنَيْهِ أغنيةٌ وصَلتْهُ مِنَ النّافِذةِ المقابِلةِ لشُرفَةِ مَطْبخِهِ،

على بُعدِ ثلاثةِ أمْتارٍ أو أقلّ. وتناهى إلى سمعِهِ صوتٌ شامِيٌّ مَرِحٌ يُغنّي برِفْقةِ فِرْقةٍ كامِلةٍ مِنَ البهْجَةِ: «قدّيشْ حلوة هالشّيبة/ بتنقّطْ حُسْنْ وهِيبة/ ولو كنّا بالعمرْ كبارْ/ عنّا قلوبْ أولادْ صغارْ/ من قال الهوى عِيبة». جاءتِ الكلماتُ في صِيغَةِ الجمْعِ، فشعُرَ سليمان بأنّهُ معنيٌّ أيضًا بهذه الأغنية، وطفِقَ ذُو الأذُنيْنِ الكبيرتَيْنِ يبْتَسِمُ، وهو يوشِكُ أنْ يُسْنِدَ الجوْقَةَ بصَوتِهِ الخشِن. ثمّ أخذَ يرتِّبُ شعْرَهُ، ويُراقِبُ انعِكاسَهُ على الغِطاءِ الزُّجاجِيِّ للموقِدِ، ويهزُّ رأسَهُ مع الإيقاعِ المبْهِج... حينها، تذكّرَ أين تضعُ زوجتُهُ عُلبَةَ البنِّ، فقد كانتْ تُبعِدُها في ركنٍ قصِيٍّ، حتّى لا يلتقِطَ البنُّ روائحَ البهارِ، كما زعمتْ في يومٍ مِنَ الأيام. إنّ سِمةَ التّذكُّرِ عندَ البشَرِ مُثيرةٌ للإعْجابِ، إذ حضرَ المكانُ في ذاكرتِهِ كامِلًا، مع حُجّةٍ لتعليلِ انزواءِ العُلبةِ بصَوْتِ السيّدة نبيلة، ذاك الصّوتِ المتباهي بمعرفةِ كلِّ شيءٍ كالعادَةِ، فهي الأكبرُ عمرًا، والأكثرُ خبرةً، كما كانتْ دائمًا منذُ ليلةِ زواجِهما. توجّهَ مُنْتَشِيًا إلى الجِهةِ الّتي تذكّرَها، وابتسمَ إذ تناهتْ إلى أنفِه رائحةُ السَّوادِ المختبئِ أسفلَ العلبةِ، فوجدَ أنّ الوقتَ قد حانَ للتّرحُّمِ على السيّدة نبيلة. قامَ بذلكَ، فعلًا، وهو عائدٌ إلى الجهةِ، الّتي تنطلقُ مِنْها الأغنية الظّريفةُ، وتحديدًا بعْدَ أنْ وضَعَ مِلعقَةَ بُنٍّ هَرمِيّةَ الشّكلِ في رَكْوَةِ القهْوَة. عندها، فاجأتهُ امرأةٌ تقفُ أمامَهُ مباشرةً، لا يفصِلُ بينهُما إلّا ذاكَ الزّقاقُ الضّيِّق. كانتْ تحمِلُ وعاءً تخفقُ فيهِ شيئًا مّا بتمَهُّلٍ شَديدٍ، وهيَ تنْظُرُ في اتّجاهِه. بينما شَكّلَ لوْنُ المانجو، الّذي طُلِيتْ بهِ جُدْرانُ مَطبَخِها، خَلفِيّةً جعَلتْ إضاءَتَهُ

تبدُو في نظرِهِ أكثرَ خفُوتًا مِنْ إضاءَةِ أيِّ مطبَخٍ رآهُ مِنْ قبْلُ، أو ربّما خُيِّلَ إليهِ ذلكَ، لأنّ مُسْتوى صَوْتِ الأغنية انخفضَ عمّا كانَ عليْهِ، فشُبِّهُ لهُ أنّ الضّوءَ قدْ خفتَ أيْضًا. لا شكّ في أنّها أربعينيّةٌ، وإنْ بدَتْ في عَينيْهِ أصْغَرَ مِنْ ذلك. حالما رأتْهُ يُحدّقُ إليْها، انسَحبتْ بخِفّةِ ريشَةٍ، مُخلّفةً ظِلالَ حَركةِ يدِها واضِحَةً خلفَ سِتارةِ مَطبخِها البيْضَاءِ الشّفّافَة. ظلّتْ عيناه مُتَعلّقتَيْنِ بما خَلْفَ السِّتارةِ، وكأنّهُ ينْتَظِرُ أنْ تُخرِجَ لهُ أرنبًا مِنْ قبّعةٍ سَوداءَ ليُصفِّقَ لها. فتمكّنَ مِنْ تحديدِ شَكْلِ قوامِها الممتلِئِ، وسواعِدِها البضَّةِ، وقامَتِها الأشْبَهِ بِقَصْر. بحثَ بشِدّةٍ عَنْ أيِّ شَيْءٍ قدْ يصْلُحُ نواةً لحدِيثٍ مّا، ثمّ حِينَ أخْفَقَ اعْتَذَر وهو لا يعلمُ عَنْ أيِّ شيءٍ اعْتذرَ، لكنّهُ وجَدَ الأمْرَ ضروريًّا مِنْ بابِ اللّباقةِ على الأقلِّ:

– آسف... آسف.

قالها مرّتينِ، وهو يلتصِقُ بشُرفةِ مطبخِهِ، حتّى ليبدُوَ للرّائي البعِيدِ، أنّهُ يُحاولُ السُّقوطَ في ذلكَ الزُّقاقِ الضّيِّقِ الّذي يفْصِل بينهما. وكان على وشْكِ أنْ يقتنِعَ بأنّهُ ليْسَ لتلكَ المرأةِ الجامِدةِ في مكانِها مَشاعِرُ يمكنُ إيذاؤُها، لولا أنّ قهْوَتَهُ فاضَتْ مُتسَبِّبَةً في تَشْتيتِهِ، فالتفَتَ بارتِباكٍ نحْوَ الرّكْوَة. فكّرَ قليلًا في موقِدِهِ الّذي أغْمَضَ عيْنَهُ مرّتينِ في أقلِّ مِنْ سَاعَة. وتبادَرَ إلى ذِهْنِهِ أنّ السيّدة نبيلة كانت ستُشعِلُ البَيْتَ حَرْبًا، مِنْ جَرّاءِ هذا العبَثِ في مَطبَخِها، لو أنّها أبْصَرتْه. عادَ، في إثْرِ ذلكَ، إلى الشُّرفةِ ليُكمِلَ، على الأغلبِ، اعتذاراتِه بـ «آسف» ثالثةٍ، لكنّ ضَوْءَ المطبَخِ وأُغنيَتَهُ وسيِّدتَهُ

المخْتبِئةَ، كانتْ قدْ أُطفِئتْ جميعًا، وغادرتْ كحُلْمٍ، بينما ظلّتِ النّافذةُ المغلقةُ الحقيقةَ الوحيدةَ الباقِيَة.

***

تُعَدُّ لعْبَةُ دوّامَةِ الخُيولِ، في إحْدَى الإحصائيّاتِ الأرضِيّةِ، أكْثَرَ الأماكنِ أمانًا، إذْ لمْ تُسَجَّلْ حالةُ وفاةٍ واحدة في صُفوفِ مَنْ يركبُونَ حصانًا خشَبِيًّا يظلُّ يلفُّ بهم لفّةً دائريّةً على إيقاعاتِ الموسِيقَى. لذا، فمَنْ يَهابُني عليْهِ أنْ يحْصُرَ نفسَهُ في تلكَ البُقْعَة. لكنّ السيّدة نبيلة بنتِ حسن، حرمَ السّيّدِ سليمانَ، وابنةَ خالِ أمِّه، الّتي كانتْ تبلغُ اثنينِ وستّيْن عامًا، لمْ تلتفِتْ عَصْرَ ذلكَ اليومِ الّذي زُرتُها فيهِ، إلى دَوّامَةِ الخيُولِ، وهي تمشِي في الحديقَةِ العامَّةِ، بحذائِها الرِّياضيِّ ذي الرُّسُوماتِ الخاصَّةِ بالمراهِقات. فقدِ انْشَغلَ ذِهنُها باليومِ الّذي سبِقَهُ، حينَ لمْ تُهوِّنْ، بشَكلٍ جادٍّ، على ابنِها الأصْغرِ قُصَي، وهو يعتذر لها بحُرقةٍ عنْ نِسْيانِهِ تهنئتَها ووالدَهُ، بعِيدِ زواجِهما الثّامنِ والثّلاثينَ، واكتفتْ بأنْ قالتْ لهُ حَرفِيًّا، بصَوْتٍ يبدُو عليهِ الضّيقُ:

- كلُّ شيءٍ يجري على ما يُرامُ يا بُنيّ... أنتَ معذورٌ. فلا أحدَ يريدُ أنْ يُفوِّتَ تهنِئةَ والدَيْهِ بمناسبةٍ سعيدة. أعرفُ تمامًا أنَّ الأمْرَ ليْسَ بِيَدِكَ، فضلًا عن أنّ أعوامًا كثيرةً مازالتْ أمامَنا لنكونَ فيها معًا، فلا تأسَفْ ولا تعذِّبْ نفْسَكَ هكذا!

وبينما ظلّ قُصَيّ ينتقِلُ مِنْ مبرِّرٍ إلى آخر، وإحساسُهُ بالذّنبِ يتفاقَمُ، لمْ تحاوِلْ أنْ تخفِّفَ الأمْرَ عنْهُ، كأنْ تخبرَهُ بأنّهُ الوحيدُ في

العائلةِ، الّذي يصِرُّ على تذكُّرِ هذه المناسبةِ كلَّ عام! وهذه، على الأغلبِ، عادةٌ قديمةٌ لدى الكثيرِ مِنَ الأمّهاتِ، تقتضِي إلقاءَ المزيدِ مِنَ اللّومِ على الابنِ البارِّ أكثرَ مِنْ بقيّةِ إخوتِهِ، للاستزادةِ في طاعتِهِ وعطفِهِ، لا أكْثَر. فحتّى هي نفسُها لم تعُدْ تتذكّرُ ذاكَ اليومَ الّذي زُفّتْ فيهِ إلى طفلٍ في الثّالثة عشْرةَ مِنْ عُمُرِه، قضَّى مُعظَمَ ليلتِهِ الأولى معَها وهو يبكِي إلى جوارِها، ومَنْ يرْغَبُ في تذكُّرِ شيْءٍ كهذا على أيِّ حال؟ لكنَّ آخرَ العُنقُودِ يُصرُّ على الاحتفاءِ بكلِّ المناسباتِ الّتي جدْوَلَ تواريخَها في رأسِه. كانتْ تُصْغِي إليه، وهي تفكِّرُ في الوقتِ الّذي تُضيّعُهُ في الاستماعِ لكلِّ تلكَ المبرّراتِ، بينما يمكنُها أنْ تكونَ أكثرَ جدوًى، فيما لو تُركتْ طَوالَ ذاك الوقتِ لتتفاعلَ مع صديقاتِها، في مجموعاتِ المحادثاتِ المختلفَةِ في هاتفِها، المجموعات الّتي تُشْرِفُ بنفسِها على كلِّ واحدةٍ مِنْها.

في تلكَ اللّحظةِ، لمْ يكنْ بُدٌّ مِنْ وضْعِ حدٍّ لهذه الرّتابةِ العائِليّة. فقمتُ بزيارةٍ عاجلةٍ للسّيّدةِ نبيلة في المَشى، على بُعْدِ عشرةِ أمتارٍ فقطْ مِنْ لُعْبةِ دوّامةِ الخيولِ الآمِنَة. وليسَ من الصّدفةِ بالمرّة أنْ تتّفقَ هذه الزيارةُ مع توقيتِ مكالمةٍ قُصَي لها، في اليومِ الّذي سبقَ مَوْتَها. لكنْ، أيّنا المخادِع حسب رأيكم؟ أنا، أمْ فقّاعةُ الأملِ الهشّةِ، الّتي تُغذّي وهْمَ الخُلودِ فِيكُم؟ فأنتم لا تكترثونَ إلّا بالنّتيجَةِ النِّهائيّةِ الّتي آتي بها أنا في النّهايةِ، ولا تنتبهُونَ إلى سُوءِ فِعْلِ الأوْهامِ الكاذِبَة، مثلما هو شأنُ تلكَ اللّحظةِ الّتي قالتْ فيها السيّدة نبيلة لولدِها، على الجهةِ الأخرى من الهاتفِ: «مازالتْ أمامنا أعوامٌ كثيرةٌ سنُكونُ فيها مَعًا».

***

حَظِيتْ السيّدة نبيلة بجنازةٍ مَلكِيّةٍ مَهيبةٍ، تزامَنَتْ معَ وقْتِ دَفْنِ ابنَةِ أحَدِ الوزراءِ، فاختلطَتِ الحشُودُ على المقْبرةِ، حتّى إنّ بعْضَ كبارِ الشّخصِيّاتِ، ورجالِ الأعمالِ المْثرينَ، ممّنْ كانُوا هُناك أيضًا، توجّهوا مباشرةً خلفَ جنازةِ السيّدة نبيلة، ظنًّا مِنْهم أنّها ابنةُ معالي الوزيرِ، ذاتُ السّبعة عشرَ عامًا. وبالطّبعِ ذابَ بعضُ أقاربِ سليمانَ، وجيرانِهِ، وسُكّانِ العمارةِ الّتي يملكُها وزوجتَه، في الحشودِ، في حينَ وقفَ إلى جانبِهِ أولادُهُ الثّلاثةُ الّذين غادَروا، الواحِدَ تِلْوَ الآخرِ، منزِلَ الوالِدَينِ في الأعوامِ التِّسْعةِ الأخِيرة.

ليسَ ثمّةَ شيءٌ على الأرضِ، يمكنُ أنْ يُقالَ عنْهُ إنّهُ مِلكٌ خالِصٌ للسّيّدةِ نبيلة، سِوى زوجِها وأولادِها الثّلاثةِ، ولكنْ، لو أُتيحَ لها أنْ تُطلَّ لحظةً مِنْ عَليائِها، لأضَافتْ إليْهِ يوْمَ جنازتِها المهِيب. أمّا سُليمان، فقدْ ظلَّ يراقبُ بجَفنيْنِ فَزِعيْنِ، وفمٍ مُلتَوٍ، سَيْرَ جنازةٍ يُدْرِكُ أنّهُ عاجِزٌ عنِ اللّحاقِ بها، بينما كان جسدُهُ يموجُ مع تيّارِ الأجْسادِ المتلاصِقَةِ، ويحدِّقُ إلى الوجوهِ الّتي لمْ يرَ مُعظمَها مِنْ قبل. كانَ يمشي كالطِّفلِ، خلْفَ أبنائِهِ وأخْواهِم، فقدْ وجَدَ نفْسَهُ أمامَ يومٍ ثقيلٍ لا يعْرِفُ كيفَ يتصَرّفُ فيهِ دونَ شَريكتِهِ الّتي كانتْ تلقِّنُهُ ما يصِحُّ وما لا يصِحُّ، مذْ كان في الثّالثة عشرةَ مِنْ عمره.

تبادَلَ أبناؤُهُ في اليومِ السّابقِ، دونَ الحاجَةِ إلى الرُّجُوعِ إليْهِ، عِباراتٍ مِنْ نوْعِ: «الدّفْنُ بعْدَ صَلاةِ العصْرِ»، «أمّي كانتْ ستفضِّلُ

أنْ يُرشَّ كفنُها بالعِطْرِ، لا بخشَبِ العُودِ الّذِي كان يثيرُ صُداعَها»، «سَتَسْعَدُ إنْ كان قصي مَنْ سيُنزِلُ نعْشَها إلى القبْرِ»، وهاهم الآنَ يسيرونَ بها دُونَ أن يحتاجوا إليهِ أيضًا، إذْ كان يمشي مختبئًا وراءَ جِدارٍ وَهْمِيٍّ، بوَجْهٍ حليقٍ مُثيرٍ للتّساؤلاتِ، وهو يُتمتِمُ في صدْرِهِ: «ها هي نبيلة القائِدة، حتّى وهي مُسجّاةٌ في نعش، تتقدّمُنا، ونحنُ كلُّنا نسِيرُ خَلْفَها». وبدا لهُ، وهو المحبُّ العريقُ لكُرةِ القدَم، أنّهُ يحضُرُ حفْلَ اعتزالِها الحياةَ، لكِنّهُ سُرعانَ ما هشَّ الأفكارَ الكُرويّةَ مِنْ رأسِهِ، فليْسَ هذا وقتَها بكلِّ تأكِيد. كانَ يمضَغُ لُبانَ «مستكة» تَسْتطِيعُ أن تُميِّزَهُ مِنْ رائِحَةِ أنفاسِهِ حالما تقْتربُ مِنْهُ لتُعزّيَهُ، وكان يحِسُّ بالرّاحةِ وهو ينظرُ إلى أولادِهِ المُسْتجِيرينِ بظِلِّ أمِّهم. وعلى الرّغمِ مِنْ أنّ الوقتَ ليسَ مُناسِبًا للتّفكيرِ بإيجابيّةٍ، فقَدْ أشْعَرَهُ شيءٌ مّا مِنْ قبيلِ أنّ «المسَطّرَ على الجبينِ لا بدّ مِنْ أن تراهُ العينُ»، بالاطمئنانِ. ومَعَ ذلكَ، يكادُ سُليمان لا يُصَدِّقُ مَوْتَها، منذُ تلكَ اللّحظةِ الّتي رأى فيها مشْهَدَ سُقُوطِها وقد تقطّعتْ أنفاسُهُ، والتصقَ شعرُهُ بجبينِهِ المتعرّقِ، ونخزهُ الألمُ تحت ضُلوعِه، ذاكَ الألمُ الّذي كان يرافقُهُ كلّما أرهقَهُ الرّكضُ إلى جوارِها، بينما بدتْ وكأنّها تمشِي مِشْيَها المعتادَ، دونَ تعرُّقٍ أو أنفاسٍ متقطّعةٍ، فقدْ أحبّتِ الرِّياضةَ وعوّدتْ نفسَها عليْها طَوالَ حياتِها. وكانت في لحظتِها الأخيرةِ تلكَ، تُمسك بموزةٍ تعوّدتْ التِهامَها بمُجرّدِ وصُولِها إلى آخِرِ المَشى. كيف تموتُ دون أن تلهثَ وهي تمسكُ بـ«فاكهة السعادة» كما كانت تُسمّيها، وينجُو هو الّذي كان الغثيانُ يعتصِرُ معِدَتَهُ حينَ يمارسُ الرّياضة؟ هذا ما

لَمْ يسْتطِعْ فهْمَهُ كلّما حاولَ اسْترجاعَ ذاكَ اليومِ العصِيبِ، لذا كان يسْعى في كلِّ مرّةٍ إلى إعادةِ ترتيبِ الأحداثِ في رأسِهِ، لعلّه يظفر يومًا بجوابٍ مُريح.

أرادَ يومَ دفنِ السيّدة نبيلة أنْ يتقدّمَ أكثرَ، ليُجاوِرَ أبناءَهُ ويواسِيَهم، لكنّهُ سُرعان ما تراجَعَ، إذْ تذكّرَ أنّه لمْ يذْرفْ دمْعَةً واحِدَةً، يُسَدِّدُ بها ثمنَ العِشْرةِ الطّويلةِ على الأقلِّ، ومِنْ ثمَّ قدْ لا تُؤخذُ مُواساتُهُ على محْمَلِ الجدّ.

لم يتناقشْ اثنانِ بخصُوصِ ردِّ فِعْلِ الزّوجِ الحليقِ الباردِ تجاهَ مَوْتِ زوجتِهِ، فلكلِّ أسْرةٍ نقائِصُها، ولكنّ هذا لا يعْني أنَّ الأمْرَ لمْ يثِرْ بعْضَ الاسْتِغرابِ مِنْ قِبَلِ إخوةِ السيّدة نبيلة وأبنائِها الّذين حاولَ بعضُهم أنْ يلتمِسَ لهُ الأعذارَ، فربّما يرجِعُ عدمُ مبالاتِهِ ومضْغُهُ اللّبانَ، وهو الّذي عاشَ في ظلِّها أغلبَ سنينِ حياتِهِ، إلى صَدْمةِ مَوْتِها المفاجِئ. وفي الحقِيقَةِ، يُقدِّمُ الموْتُ للمَرءِ خِدْمةً جَليلةً، تُحسَبُ لصالحي في هذِهِ الحالةِ، إذْ يُحرّرهُ مِنْ أكبرِ آلامِهِ، بدفْنِ أقربِ النّاسِ إلى قلبِهِ، ليصْبِحَ بعدَ ذلكَ قادرًا على مواجهةِ أيِّ حزنٍ يخبّئُهُ لهُ القدرُ، لأنّ الحزنَ الأكبرَ صارَ خلفَهُ. لكنْ، هل يُعدُّ موتُ نبيلة أكبرَ أحزانِ سليمانَ حَقًّا؟

***

بالعوْدةِ إلى أيّامِ العَزاءِ، أؤكّدُ لكم أنْ لا أحدَ شَكَّ في أنَّ أبناءَ سليمانَ، بدَوْا أكبرَ سِنًّا ممّا هُمْ عليْها، فقد ظهرُوا بهيئةٍ أضْخمَ مِنْ أبيهم، كما كانت ملامحُهم أخشنَ مِنْ ملامِحِهِ، لكنّهم في الواقِعِ، كانوا

يفتقِرونَ إلى الموهبة، بل يفتقرونَ إلى أيّ نوعٍ من الذّكاءِ الاجتماعيِّ. فقد ظلَّ ثلاثتُهم يُردّدونَ، كصَدَى الكهُوفِ، ما نبسَ بهِ الوالدُ أو الأخوالُ مِن عباراتِ العَزاءِ الجوفاءِ المتعارفِ عليْها في مثلِ هذا الحدثِ، دونَ رُوحٍ، أو لمسَةٍ شَخْصِيّة. وعندما أتكلّمُ عنِ الموهبة، عليّ أنْ أتحدّثَ بحِرْصٍ، لأنّ السّيِّدَ سُليمانَ، كما كان يلقِّبُ نفسَهُ، صاقِلُ مَواهِبَ، إذْ عمِلَ بحُكمِ سِنِّهِ منسِّقًا فنيًّا، مَسْؤولًا عنْ تهيئةِ الأطفالِ المشاركينَ في برامجِ المواهبِ أو المسابقاتِ في التّلفزيونِ، بوساطةٍ مِنْ خالِهِ، فقد تعاطَفَ هذا الرّجلُ مع الطِّفلِ والزّوجِ المُعيلِ، فاقترحَ على أختِهِ أنْ يُوظّفَهُ في مَبْنى التّلفزيونِ... فيعتني بمظْهَرِ الأطْفالِ، ويُهنْدِم ياقاتِهم، ويُضحِكَهم، في كثيرٍ منَ الأحيانِ، ليُذهبَ خوفَهم، قَبْلَ وقوفِهم أمامَ الكاميرا. وليْسَ غريبًا أنّهُ نجحَ في عملِهِ بشَكْلٍ لافِتٍ، فقدْ كانَ يقولُ لكلِّ مُرتبِكٍ في أثناءِ الانتظارِ، وهو يضَعُ كفّيهِ على كَتِفيْهِ: «دَعْهُم ينتظرونَ خلْفَ كاميراتِهم، فلنْ نُرسِلَكَ إلى هُناك، ما لم تتحوّلْ إلى بطلٍ خارِق». وكانَ الأطفالُ، ينتظِرونَ فِعْلًا حُلولَ البطلِ الّذي سيمنَحُهم الجُرأةَ، حينَ يُحدِّقُ سُليمان النّظرَ في عينيْ كلٍّ مِنْهم، ويَهُزُّه فجأةً هزّةً بسيطةً مِنْ كتفيْهِ، وعلى وجهِهِ علاماتُ الدّهشةِ، كأنّ شيئًا مّا سماويًّا حلَّ في جَسَدِ الطّفلِ، ثمّ يصِيحُ: «يا للرّوعةِ... البطلُ الخارقُ جاهِزٌ الآن! انطلقْ إلى الكاميرا، ولا تقلقْ على الإطلاقِ، فأنتَ لسْتَ وحْدَك!». فيظنُّ كلُّ طِفْلٍ أنَّ شيئًا مّا بداخِلِهِ قدْ تغيَّرَ، ويتصَرَّفُ بعفويّةٍ وحماسةٍ، لا يشُوبُهما أيُّ خَوْف. وفيما بعدُ، عندما أصْبَحَ بعضُهم ممثّلينَ ومُذيعينَ

مشهُورينَ، صار سُليمان، بمجرّدِ أنْ يظهَرَ أحدُهم على الشّاشَةِ، يسْترسِلُ في اسْترجاعِ طباعِهم وعاداتِهم وهم أطفالٌ: «هذا أعسَرُ»، «كان هذا يتحلّى بحسٍّ درامِيٍّ أكثرَ ممّا يبدُو عليهِ في هذا اللّقاءِ»، «كم كان هذا طفلًا خجولًا وقليلَ الحركةِ!»، «لم يكنْ هذا يُطِيقُ الجُلوسَ على كرسيِّهِ... انظُروا... إنّهُ لا يكادُ يُفارِقُ الكُرسِيَّ الآن»... ثمّ تبرقُ عيناهُ، وهو يختمُ بصَوْتِ المحبِّ المعاتبِ: «هؤلاءِ هُم صَنِيعَةُ جُهْدي وتعَبي». ولكنْ، لا أحدَ مِنْ أولئِكَ المشاهيرِ، أتَى يومًا على ذِكْرِ سليمانَ في أيِّ لقاءٍ، أو حوارٍ مرئيٍّ أو مسْمُوعٍ، ما ترَكَ للشّكِّ مكانًا حصِينًا في صُدورِ أولادِهِ، وجعَل زوجتَهُ تُردّدُ وهي تخفِضُ صَوْتَ التّلفازِ، كلّما أطلّ منهُ أحدُ تلاميذِهِ المزعُومِينَ:

- لا تلُمْهم... هلْ يمكنُ لأحَدٍ أنْ ينْتَبِهَ إلى شَيءٍ لم يكنْ موجودًا بالأساس؟

كانتْ تَرْمِي بكلامٍ مُلغزٍ كهذا، ظنًّا مِنْها أنّ سليمانَ، وإنْ سمِعَهُ بوضُوحٍ، لنْ يفهَمَهُ، فهو لم يكنْ سِوى طفلٍ، في حاجةٍ دائمةٍ إلى معُونتِها، ومهما كبُرَ في عمره، سيظلُّ في نظرِها، ذلكَ الفتى ذا الثّلاثة عشر عامًا، القادِمَ مِنْ ماضٍ تُجاهدُ كثيرًا كيْ لا تنظُرَ إليْه.

***

في اليومِ الثّامنِ مِنَ الشّهرِ الحادي عشر، وصلَ أبناءُ سليمانَ مِنْ أحياءٍ مختلفَةٍ عَشِيّةَ تلكَ اللّيلةِ، وتعامَلوا مع الحدَثِ بنفْسِ الطُّرقِ السّاذجةِ الّتي يتعامَلُ بها البشَرُ معَ لحْظةِ الموْتِ منْذُ آلافِ السّنينِ: أصْواتٌ مبحوحَةٌ تتلمّسُ غِيابَ صوْتِ الأمِّ، وترتيباتٌ

مملّةٌ للحظاتِ العَزاء. ولمْ تكَدْ فناجينُ القهْوةِ تَفْرغُ، حتّى انتقلُوا إلى موضُوعِ ترتيبِ الإجازاتِ، فأخذتْ بدورِها نصِيبًا مِنَ البحثِ والمشاوراتِ في هذا الظّرفِ الصّعبِ، إذْ لمْ يسبقْ للجميعِ أنِ اقتربُوا مِنَ الموتِ إلى هذا الحدّ. اصْطحَبَ باسم، الابنُ الأكبرُ، وقصي، الابنُ الأصغرُ، زَوْجَتيْهما، أمّا أمجد، الابنُ الأوسطُ، فلم يزل عازبًا بعدُ. ولئنْ كانَ سُليمان لا يُخطِئُ في أسْماءِ حَفِيدَيْهِ، فإنّهُ يتعَثّرُ في تذكُّرِ صفُوفِهم الدِّراسِيّةِ، وهذا أمْرٌ غيرُ مُتوقَّعٍ مِنْ جَدٍّ بشَرِيٍّ يعْلَمُ أنّ الحفِيدَ يُشَكِّلُ انبعاثًا لهُ، وثأرًا كافِيًا مِنَ الهَرَم. وخِلالَ أيّامِ العزاءِ، اتّفقَ أبناؤُهُ، أمامَ عَينيْهِ، على استقدامِ سائقٍ بمُواصَفاتِ طبّاخٍ، ليُجاورَ أباهُم في الشّقّة.

بدا الابنُ الكبيرُ باسم، وهو أطْوَلُ الحاضِرينَ، هادِئًا بعَينيْهِ النّاعِسَتيْنِ، وقليلَ الكلام إلى درجةٍ تجعلكَ تشعُرُ بأنّ عائلتَهُ مضَتْ ونسِيَتْهُ في الخلفِ حينَ وُلِد، فهو لا يُشبِهُهم في شيءٍ. لذلك غمرت الدّهشةُ سُليمان عندما قال ابنُه بهُدوءِ قنّاصٍ مموّهٍ بيْنَ أوراقِ الشّجَرِ:

- سأتكفّلُ بالاستقدام، وسنتّفقُ هاتفيًّا على بقيّة التّفاصيلِ والتّكاليفِ مع باقي أفرادِ العائلةِ...

تمّ هذا الاتّفاقُ بينَ باسم وأخويْهِ أمامَ عَينيْ والدِهم، فتمتم مُخاطبًا نفسَه:

- ما الّذي تغيّرَ في أسْبُوعٍ واحِدٍ، حتّى أُصْبِحَ غيْرَ قادِرٍ على قِيادَةِ سيّارتِي بنفْسِي؟

وظلَّ مُتوتِّرًا إلى وقْتٍ قصيرٍ ثمّ قال لابنه الأكبر:

- تمنّيتُ لو أنّكَ تحدّثتَ إليّ بهذا الموضُوعِ قبْلَ أخَوَيْك؟!

وعلى الرّغمِ مِنْ أجْوِبَتِهم الّتي تراوَحَتْ بيْنَ الصُّراخِ ومُحاولاتِ الإقْناعِ، فشِلُوا جميعًا في جذْبِ انتِباهِ والدِهم، إذ انصرفَ إلى صُندوقٍ خَزَفِيٍّ كانتِ السيّدة نبيلة تحتفِظُ في داخِلِهِ بحبّاتِ سُكّرٍ شفّافَةٍ مُستخرجةٍ منَ النّباتِ المشهُورِ بيْنَ البشَرِ بإطالةِ الشّبابِ، ثمّ الْتَفتَ إليهم، وقال بنبرةِ انتقادٍ عاليةٍ هذه المرّة:

- إذا كانتْ نبيلة هِيَ مَنْ رعاني، طِيلَةَ هذِهِ السِّنين، فلماذا لمْ ترْعَ نفْسَها أوّلًا... لماذا ماتتْ قبْلي؟

وفي الحقيقةِ، أقلقَ سُليمان بهذا السّؤالِ المربِكِ راحَتي شخْصيًّا، قبْلَ أنْ يُزعِجَ أبناءَهُ، ويبدِّدَ سكينةَ زوجتِه. أما علِمَ أنّ على الإنْسَانِ تحاشي اسْتِفْزازي، إذا كان عاجِزًا حقًّا عنْ مُجاراتي؟

***

يبدُو أنّ سليمانَ تعوّدَ مُؤخّرًا على مدِّ معجونِ الأسنانِ فوْقَ إصبعِهِ، وتنظيفِ أسنانِهِ بسبّابتِهِ، إذِ اختلطَ عليهِ الأمرُ، فتخلّصَ مِنْ فرشاتِهِ ظنًّا مِنْهُ أنّها فرشاةُ السيّدة نبيلة، ثم تداركَ الخطأَ بِرَمْيِ فرشاتِها، فبقيَ الحوضُ مجهّزًا بنوعَيْ معجُونٍ، وخاليًا مِنَ الفُرَش. وفي وقتٍ متأخِّرٍ مِنْ تلكَ اللّيلةِ، قفزَ إلى المطبخِ، واتّجهَ ناحِيةَ دُرْجٍ احتفَظَتْ فيهِ الرّاحِلةُ بعُلبِ الكبْرِيتِ، حيْثُ فتّشَ عَنْ غِراءٍ يخُصُّ أدواتِ أصْغرِ أبنائِهِ الفنّيّةَ، وحينَ عثرَ عليْهِ، بدأَ في مُمارسَةِ هِوايةٍ قدِيمةٍ كانَ قدْ أقلَعَ عنْها. فألصَقَ الحوافَّ الغامِقةَ، وبدَأَ يَشِيدُ بيْتًا

بتلكَ الأعْواد. وفي تلكَ الفينةِ، تسلّلَ إلى ذهنِهِ صوتُهُ الطّفوليُّ، وهو يبْكي تحْتَ سُلّمٍ خشبيٍّ يختفي نصفُه العُلويّ في قلب شجرةِ التُّفّاحِ، وكانت أُمُّهُ تقف على ذلك السُّلّمِ وهي تقطفُ التفّاحاتِ وترمي بها إلى الأرضِ، أمّا هو فقد كان يُطارد حركةَ يدِها كي لا تُخطئَ ما تُسقطه في سلّته. وكان في قمّة الاستياء لأنّها تخلّصَتْ من بيتِ كبريتٍ ظَلَّ يُشيّده طوَال أسابيعَ سبقتْ يوم زواجِه. وحينَ يَئِسَ من لَفْتِ نظرِها بانتحابِه قال لها مُحْتَجًّا:

- قولي لي أين الخطأ؟ أتكرَهُ عروسُكِ بيوتَ الكبريتِ؟

فردّتْ عليه مُنتفِضَةً:

- هيَ عَروسُكَ وليستْ عَروسِي، زوجتُكَ أنتَ يا سُليمان... هذا أوّلًا! وثانيًا، لقد أصْبَحتَ رجُلًا، والرّجُلُ يصْنَعُ بيوتًا حقيقِيّةً، لا بيوتًا مِنْ أعْوادِ الكبريت.

يذكُرُ سُليمان، الآن، بوضوحٍ، أنّهُ قضّى اللّيلةَ الّتي تسبقُ عُرسَهُ مُفكّرًا في الكرةِ، وفي بيوتٍ من أعوادِ الكبريتِ تخلُو من رائحةِ كبارِ السّنِّ، ولا سِيَّما رائحةِ أمِّهِ، وفي ذلكَ الكائنِ غير المعروفِ القادمِ الّذي يُسمُّونَهُ: زوْجَة.

يمتدِحُ المجرِّبونَ التّكتُّلَ البشَريَّ أيّامَ العزاءِ، فذاك التّجمّعُ يمثِّلُ عندهم دافعًا قويًّا في مُواجهةِ الموتِ، وأضيفُ بدوري أنّ جَمْعةَ الأهلِ والأقاربِ، في مثلِ هذه الظّروفِ، تُقابَلُ باحترامٍ شديدٍ وسَطَ السّماءِ، خصوصًا إذا أبقَوْا أفواهَهُم مُغلقةً، للتّقليلِ مِنْ أخطائِهم. غير أنّ الحشودَ الّتي تبلُغُ ذُروَتَها في المقْبَرةِ، تتبدّدُ رُويدًا رُويدًا، حتّى

تكادُ تتلاشَى في اليوْمِ الثّالثِ مِنْ أيّامِ العَزاء. حِينَئذٍ، يَنْفَضُّ المُعزُّونَ عنِ الأُسْرةِ المكلومَةِ، ويتركُونَها في الأيّامِ والأسابيعِ التّاليةِ، وحيدةً في مواجهةِ أحْزانِها. لذا حَرَصَ سُليمان، بحَدْسِهِ الأبَوِيِّ، على جَمْعِ أفْرادِ أُسْرتِهِ رِجالًا ونِساءً وأحْفادًا، لتناوُلِ طعَامِ العَشاء. كان يقومُ على خِدْمَتِهم بنفْسِهِ، ويتدَرّجُ في غَرْفِ الطّعامِ، بدْءًا بالمقبّلاتِ، حتّى الوجْبةِ الرئيسِيّةِ، كما كانتْ تفْعلُ نبيلة باقتدارٍ، وهيَ بيْنَهم. وقدْ تواطأ كلٌّ منِ اجْتمَعَ حولَ السّفرةِ، فلمْ يسألْهُ أيٌّ منْ أبنائِهِ، عَنْ توقِيتِ العَودةِ إلى هِوايةِ تشْييدِ مَنازِلَ مِنْ أعْوادِ الكبْريتِ، ولطالما كان يتباهَى أمامَهم بمعْرفَةِ تفاصِيلَ كثيرةٍ عنْ بنائِها، لكِنّهُم، مُنْذُ غادَروا طفُولتَهم، لم يعُدْ أحدٌ مِنْهم يراهُ يبْنِي ولو بيْتًا واحِدًا مِنْها. لذلك عندما عاد إلى هوايتِه، في أوّلِ مُحاولةٍ بعد الانقطاعِ، وشيّدَ دَوْرًا واحِدًا بأعوادٍ مُتلاصِقةٍ ومثبّتةٍ بإحكامٍ على لوْحٍ كرتُونيٍّ سَميكٍ التفَّ الحفِيدانِ حولَهُ مُندهِشَيْن، لمْ يأكلْ بعضُ الكبارِ مُباشرةً، وإنّما بقَوْا يُنقِّلُونَ أبصَارَهُم بينَ سليمانَ، وبيْتِ الأعْوادِ، وسفرةِ الطّعامِ، ثمَّ يتناولُونَ في أعْقابِ ذلكَ لُقْمَةً تُشبِهُ الغُصَّة. وهيَ كلُّها أفعالٌ تأتِي بالتّدْريجِ، لتُلهِيَ عنِ الواقِعِ الّذي يقولُ إنَّ رائِحةَ كبيرةِ البيتِ، امتزجتْ بالهواءِ، وبدأتْ تخفُّ شيئًا فشيئًا، لأنّها بعُدتْ عنْ نبعِها، ولنْ تبقَى مِنْها بعْدَ أسْبوعٍ، إلّا صُورةٌ مُغلّفَةٌ بطبقةِ زُجاجٍ رقيقَةٍ. ولهذا تحديدًا قدْ لا يختلِفُ اثنانِ في أنّ النّسيانَ، يأتي في المرتبةِ الثّانيةِ في الأفضليّةِ عند البشرِ، بعْدَ الجِنْسِ مُباشَرةً.

***

مِنَ الجهةِ الجنوبيّةِ للعمارةِ الّتي يسكُنُها، حلّقتُ قريبًا مِنْ شقّتِهِ بوصفي ملاكًا صامِتًا، لا ملاكًا ذا طَبيعَةٍ إجرامِيّةٍ كما تعتقِدُون. فرأيتُهُ عائِدًا مِنَ المطبخِ في اتجّاهِ سريرِهِ، بوجهٍ كأنّما خُلقَ ليبْكيَ، ثمّ تأخّرَ قليلًا، قبْلَ أنْ يبدأَ دَندنتَهُ بنِصْفِ ابْتِسامَةٍ، وهو يَسْتلقِي على ظهْرِهِ: «قدّيشْ حلوة هالشّيبة... بتنقّطْ آاا وهيبة... إممم آاا». ردّدَ اللّحنَ الّذي أتقنتْ أذُنُهُ الوطواطيّةُ التقاطَهُ، أمّا الكلماتُ، فظلّتْ تُفلِتُ قليلًا مِنْ ذاكرَتِه. كيفَ سيعثُرُ على كلماتِ هذِه الأغنية الآن؟ ففيما مضَى كانتِ السّيّدة نبيلة تقومُ بمهمّةِ البحثِ نيابةً عَنْهُ، في جهازِ الكمبيوترِ الوحيدِ في الشّقّةِ. إذ عادةً ما كانَ يُدَنْدِنُ لحنًا، وبعْضَ الجُمَلِ المبتُورةِ، وهو يرسُمُ أشْكالًا فوضويّةً في الهواء. فتلتقطُ نبيلة بعْضَ الكلماتِ، وتبدأُ بالتّفتيشِ عنِ الأغنية، بيْنَ أغانٍ كثيرةٍ يستبعِدُها، وهي تعرضُها عليهِ، وتظلُّ تُسمِعُهُ إيّاها الواحِدةَ تلوَ الأخْرى، حتّى يستقرَّ على واحِدَة.

أمّا في ما يخُصُّ علاقةَ سليمانَ بنبيلة، فيسعُني إخباركمْ بأنّهُ ظلَّ مُستسلِمًا لفَرْقِ السّنِّ بينهما، حتّى وهو يحاولُ، أحيانًا، أنْ يبدُوَ أكبرَ مِنْ سِنِّهِ، أمّا هِيَ فحَرِصَتْ كلَّ الحِرْصِ على أنْ تبدُوَ أصْغَرَ مِنْهُ، بتعلُّمِها على الأجْهِزةِ الحدِيثةِ والتّقنيّاتِ، بشَكْلٍ يفوقُ قُدُراتِهِ المحدُودةَ في هذا المجالِ. ومع ذلكَ ظلّتْ تحتفِظُ بقَدْرٍ مِنَ الأمُومَةِ في تعامُلِها معَهُ، بلْ وفي تعامُلِها مع غيرِهِ مِنَ الرّجالِ، حتّى ممّنْ هم أكبرُ سِنًّا مِنْها! إذْ يبدُو أنَّ طبيعتَها الأُنثَوِيّةَ، استقرّتْ على وضْعِ الأمِّ، منذُ أنْ كانتْ صَبِيَّة. ومعَ أنّها لمْ تقصدْ هذا الأمْرَ بالطّبْعِ،

فقد تجذّرَ فيها معَ الوقتِ، ولم تجدْ ضررًا كبيرًا في ذلكَ، لأنّهُ منَحَها القُدْرةَ على السّيطرةِ بشَكْلٍ أكْبَر.

قام سُليمان إلى جهازِ الكمْبيُوترِ، وأخذَ ينقُلُ أصابِعَهُ ببُطءٍ شديدٍ فوْقَ مفاتيحِهِ... ها هو آخرُ بحثٍ لنبيلة: «مُشْكلةُ الابتِسامَةِ اللّثَويّة». ولأوّلِ مرّةٍ ارتجفَ قلبُ سليمانَ، كأنّهُ كوبُ ماءٍ أُسْقِطَ فيهِ للتوِّ مُكعَّبُ ثَلْج. ثمّ تَبِعَتِ الرّجْفةَ ارتعاشَةٌ خفِيفَةٌ في شَفتِهِ، قبَضَ عليْها بأسْنانِهِ قبْلَ أنْ تُفْلِتَ مِنْهُ إلى الأسْفل، وهمَسَ بصَوْتٍ خَفِيضٍ: «ماتتْ نبيلة!!». وحينَ نطقَ باسمِها، حضَرتْ صُورةُ أمِّهِ مِنَ الخيَال. كانتْ تنظرُ مِنْ علٍ، حيثُ تقفُ على سُلَّمٍ خشَبيٍّ، تُزيحُ برأسِها بعْضَ الأغصانِ، وتُطِلُّ مِنْ بيْنِها بيدٍ رخاميّةٍ تلتصِقُ بخصْرِها، وهي تنْظرُ إليْهِ نظْرةً لا يمكنُ أنْ نصِفَها باللُّطف! أكملَ سُليمان نقْلاتِهِ البطِيئَةَ، فوْقَ مَفاتِيحِ جِهازِ الكمبيوترِ، بَعْدَ أنْ دَسَّ بيْنَ أسنانِهِ لُبانَ «المستكة»، فهو لَمْ يبْكِ بسَببِ هذا الأمْرِ قَطُّ، لكنّهُ سَيبْكي لاحِقًا، لأمْرٍ لا شأْنَ لهُ بالسيّدة نبيلة. ثمّ قامَ إلى هاتفِهِ، واتّصَلَ بولدِهِ باسم، الّذي كان آخرَ منْ غادرَ بيتَهُ قبْلَ يوْمَيْن. بعْدَ ثلاثِ رنّاتٍ، جاءَهُ الصّوتُ مذْعُورًا:

- خير... خير يا والدي!! هل أنت على ما يُرام؟

ردَّ سُليمان بصَوْتٍ مُرتعِشٍ، لَمْ يكنْ قدْ جرّبَهُ معَ شخْصٍ آخر، منذُ أنِ اعتذرَ إلى سيّدةِ الظّلالِ قبْلَ ساعتيْنِ، وربّما لأنّهُ لَمْ يشْرَبْ كأسَ ماءٍ كالعادةِ، بعْدَ فنجانِ القهْوَةِ الّذي أعدَّهُ لنفْسِهِ، ظهَرَ صوتُهُ مُنْكمِشًا، ككيسٍ محشورٍ في حقيبةٍ:

- أمُّكَ، يا باسم، كانَتْ قلِقةً على لثّةِ سليمانَ الصّغيرِ، إذ يبدُو أنّ أسنانَهُ قصِيرةٌ، أو أنّ لثّتَهُ طوِيلَة. وقد تكلّمَتْ إليّ في هذا الأمْرِ أكثرَ مِنْ مرّةٍ، لكنّني لمْ أصْغِ إليْها، لذا أنا، في الحقيقةِ، لا أفهَمُ الأمْرَ على وَجْهِ الدّقّةِ، ولكنّ المهمَّ أنّ الأمْرَ أقْلَقَها... هل انتَبهْتَ أنتَ ومنال إلى مُشْكِلةٍ مّا في فمِهِ... هل تحدّثتْ إليكَ والدتُك في هذا الشّأن؟

مرَّ وقْتٌ ظنَّ فيهِ سُليمان أنْ لا أحَدَ على الجِهَةِ الأخْرى. وعلى الرَّغْمِ مِنْ أنّهُ لم يفكِّرْ في نقْلِ هاتفِهِ إلى الأُذْنِ الثّانيةِ، إذ لمْ يحصُلْ أنْ خانَتْهُ أذُناهُ يوْمًا، فقد تفقّدَ شاشتَهُ، فوَجدَها لا تزالُ مُضِيئَةً... ثمّ مسَحَ بشَعرِهِ إلى لخلفِ، وهو يُرطِّبُ شَفتَيْهِ قبْلَ أنْ يقولَ:

- ألووو...

تغيّرتْ نبْرةُ صَوْتِ باسم الّذي كانَ مذعورًا قبْلَ قليلٍ، وهو ينطقُ بكلماتٍ لا تخصُّ ملاحظةَ والدِهِ لا مِنْ قريبٍ ولا مِنْ بعيد:

- والدي، يا حبيبي... السّاعةُ الآنَ تشيرُ إلى الخامِسَةِ فجْرًا، أنظَرْتَ إلى ساعتِكَ قبْلَ أن تتّصِلَ لأمْرٍ كهذا؟! أعْني... أنّهُ كان بإمكانِنا تأجيلُ الكلامِ فيهِ إلى الغد... أليْسَ كذلك؟

ولمْ يكنْ باسم غاضِبًا، حين ردَّ عليْهِ بهذا الكلام، بل كان يتحدّثُ إليهِ بحنانٍ، كمَنْ يقُصُّ على أطْفالِهِ حِكايةً قبْلَ النّوم.

***

يُعَدُّ سُقوطُ الثّمرةِ إلى الأسْفل، جُزءًا مِنَ الغوايةِ الّتي تمارِسُها الأشْجَار. لكنْ، مهما ابتعدتْ تِلْكَ الثّمرةُ عَنِ الشّجرةِ الأمِّ، تظلُّ

تنتمِي إلى النّوعِ نفْسِهِ وتحْمِلُ الصِّفاتِ عيْنَها الّتي يتّصِفُ بها جِنْسُها. أمّا البشَرُ، فمُذْ خلقَهُم الله، والشّبَهُ يقِلُّ بينَ الأجيالِ، وعلاقةُ الآباءِ بالأبناءِ تسيرُ مِنْ سيّءٍ إلى أسْوأَ... وهكذا بلغْنا مَرْحلةَ التّشبُّعِ، ولمْ يبقَ مِنْ سُوءٍ يمكنُ أنْ يزيدَ الطّينَ بلّةً. وقدْ بدأَ هذا النّزيفُ منذُ قالَ ابنٌ لأبيهِ بذُعْرٍ: «ارفَعْ ثيابَكَ يا أبي، حتّى لا تتلطّخَ بدَمِي، فتفْزَعَ أمّي، واشْحذِ السِّكّينَ شحذًا كيْ لا يطُولَ ألمي». حينَها أحْكَمَ الأبُ الوِثاقَ على معْصَمَيْ القُربانِ المستَسْلِمِ، بعَينَيْنِ فقدَتا بريقَهما، وأَحْنَى لَهُ جَبينَهُ ليُسوّيَها بالأرضِ، قبْلَ أنْ تتمرّدَ السِّكّينُ على حامِلِها، وتنزِلَ الرّحمةُ مِنَ السّماءِ، ولكنَّ الخوْفَ الكامِنَ في النُّفوسِ، ظلَّ مُتوارثًا بيْنَ البشَرِ، ودافِعًا لتمَرُّدِ الأبناءِ على آبائِهم، وافتِراقِهِمْ عَنْهُم جيلًا بَعْدَ جِيل.

بدا سُليمانُ نحيلًا كعصًا مِكْنَسَةٍ، وهو عائِدٌ إلى البيْتِ في عمرِ الثّالثَة عشْرةَ، مُفكّرًا في الطّريقةِ الّتي ارتأتْ أمُّهُ قتلَهُ بها. لقَدْ تشاجرَ معَ ثلاثةٍ مِنْ رفاقِ الملعَبِ الّذين رشَتْهُم والِدَتُهُ بالمالِ والحلْوى كيْ يرفُضُوا مُواصلةَ اللّعِبِ مَعَهُ بعْدَ زواجِه. سارَ أمامَهم ذهابًا وإيابًا كشِبْلٍ مجْرُوحٍ لا يُفزِعُ زئيرُهُ أحدًا، وهو يشتُمُهم، ويحجُبُ عَنْهم دمُوعَهُ بعَينَيْنِ شاخِصَتيْنِ تُدركانِ تمامًا أنّهما لو سَمَحتا لدُمُوعِهما بالتّساقُطِ، لغدا أضْحُوكةَ الفتيةِ وقتًا طويلًا. أمّا رِفاقُهُ، فقد اكْتَفَوْا بترديدِ الكلِماتِ الّتي أمْلَتْها عَلَيْهِم أمُّه: «اجلسْ في مجالسِ الرّجالِ... فمَكانُكَ مع آبائِنا وليْسَ معَنا...»، وغيرِها مِنْ تلكَ العباراتِ الّتي تَعوَّدَ الآباءُ والأمّهاتُ دلقَها في آذانِ أبنائِهِم.

وفي الحقيقةِ، بلغَتْ مقاومةُ سُليمان لدموعِه ذرْوَتَها، حينَ تيقّنَ مِنْ أنَّ أُمَّهُ تقفُ خلْفَ هذِهِ المكيدةِ. لقد كان التّجْسِيدَ الكامِلَ للقُربانِ المقدّسِ دون أن يَعِيَ بالأمرِ. حتّى إنّه هَمَّ بإلْقَاءِ نَفْسِهِ أمَامَ سَيّارةٍ مُسْرعَةٍ في طريقِ العوْدَةِ إلى البيتِ. وعندما وصَلَ إلى غُرفَةِ نومِهِ، وجَدَ نبيلة تتربّعُ بالقُربِ مِنْ دُولابِها، تَطْوي الملابِسَ بطَريقَةٍ أنِيقَةٍ: تتعانقُ الأكمامُ أوّلًا في الأعْلى، ثمّ تُطْوى مِنَ الأسْفلِ، حتّى تلتقِيَ في المنْتَصَف. لم يَنتبِهْ إلى ذلك النّظام، ولمْ يُدْرِكْ أنَّ دُموعَهُ تغْسِلُ غُبارَ وجهِهِ في مَسارَيْنِ مُتوازِيَيْنِ، إلّا حينَ رأى انْعِكاسَ صُورتِهِ في مِرآةِ دولابِ العَرُوس. أبعدتْ نبيلة الملابِسَ النّظِيفةَ عَنْ حِجْرِها بحذَر، ثمّ فتَحتْ يدَيْها كهَيْئَةِ طَيْرٍ يَهُمُّ بالتّحْليقِ، وهي تبتسِمُ لزوْجِها الّذي عادَ مِنَ الخارجِ مُتّسِخًا. حِينَها، هَرعَ يبْكي في حُضْنِها، ماسِحًا سَوائِلَ وجْهِهِ فوْقَ ثِيابِها، وهي تُربِّتُ على رأسِهِ، وتمسَحُ شَعْرَهُ، وتقبِّلُهُ بحَنَان. حاولتْ اسْتِنْطاقَهُ بهدُوءٍ، لكنّه كانَ غاضِبًا إلى دَرجَةٍ جعَلَتْهُ يصرخُ بأعلى صوتِه كيْ تسمَعَهُ والِدتُهُ في الغُرفةِ المجاوِرة:

- لتتزوجْ هيَ، لتُنْجِبْ أطفالًا لنفسِها، ما شأني أنا إذا كانتْ عجُوزًا يموتُ أزواجُها؟

فركَ رأسَهُ بقُوّةٍ بيْنَ نهدَيْها، ليمْسَحَ عنْ وجهِهِ تلكَ السّوائِلَ، واسْتأنَفَ سخطَهُ:

- لمَ لا ألعبُ الكُرة؟ لمَ عليَّ أنْ أتوقَّفَ عَنِ اللّعِب؟

عَلَتْ أنفاسُ نبيلة بما يكفِي ليسْمَعَها سُليمان، ومَعَ كلِّ شَهيقٍ

كان صَدْرُها يرفَعُ رأسَهُ الصّلبَ، ذا الرّائحةِ الّتي تُشبِهُ رائِحَةَ القَشِّ المبْلُولِ، ويخْفِضُه. وعندما توقّف انهمارُ الدُّموعِ، قالَ بما تبقّى مِنْ صَوتِهِ:

- لا أحدَ يُحبُّ مُرافقةَ أمّي، حتّى والدِي فضّلَ الموتَ على البقاءِ بقُربِها، وقَبْلَهُ رحَلَ عَنْها رجلٌ آخر... هل كنْتِ تعرفينَ هذا يا نبيلة؟

لم يكنْ سُليمان قدْ تعلّمَ بعْدُ كيفَ يُؤتمَنُ على سِرٍّ، أمّا هي فناضِجةٌ إلى حَدٍّ كبيرٍ، إنّها في الرّابعةِ والعِشْرينَ مِنْ عمرها، ومع تلكَ الوحْمةِ البُنّيّةِ المُتمدّدة على مُنتصَفِ خدِّها الأيْسَرِ كجزيرةٍ، بكّرتْ بالنُّضْجِ، واسْتَنتجَتْ وحْدَها، وهي تراقِبُ أخواتِها الأصْغرَ سِنًّا مِنْها، أنّ ارتباطَها برجُلٍ مّا سيقتضِي بعْضَ التّنازلاتِ، لذا لمْ تتردَّدْ لحْظةً في قبُولِ عَرْضِ السيّدة حمدة الّتي قفَزتْ فوْقَ رؤوسِ الآباءِ والعاداتِ، وقدّمَتِ العَرْضَ للعَرُوسِ مُباشَرةً هذِهِ المرّةَ، وهي تمرّرُ أصابِعَها الخشِنةَ، بإحسانٍ قاتلٍ، فوقَ الوحمةِ البنّيّةِ المتعرِّجَةِ بنعُومَة. كانت يداها ضَخْمتَيْنِ كعامِلِ بناءٍ، لذا لمْ تتنفَّسْ نبيلة لحْظةَ مَرّتْ تلكَ الأصابعُ على وحْمَتِها:

- سأطلبُكِ غدًا لابْنِي سُليمانَ، وافِقِي يا نبيلة! سيكبُرُ الفتى سَريعًا، وستجدِينَ نفْسَكِ، قبْلَ أنْ تنتبِهي للأمْرِ، برِفْقَةِ رجُلٍ ضَخْمٍ كوالِدِه... ولنْ يكترِثَ حِينَها للطْخَةٍ على خدٍّ تعوّدَ عليْها قبْلَ أنْ يُدْرِك!

عَدّلَتِ السّيّدة حمدة خِمارًا مُطرّزًا تَلُفُّ بهِ رأسَها، ونظَرتْ

بصَرامةٍ إلى سَيّدةٍ تجْلِسُ على يسارِ نبيلة، كانتْ تسْترِقُ السّمْعَ في ذلكَ المجْلسِ، ثمّ عادتْ تهمِسُ إليْها:

- إنّ انتظارَ بضْعِ سنواتٍ أهونُ بكثيرٍ مِنْ عمرٍ يتراكمُ في انْتِظارِ فِراشٍ لنْ يَدْفأَ برفْقَةِ أحدِهم.

جعَلتْ صَرامَةُ السيّدة حمدة كلامَها أهْلًا لثِقَةِ نبيلة في حينِها، أمّا وهيَ تهمِسُ في هذِهِ اللّحْظةِ إلى سليمانَ الّذي ألقى بنفسِهِ بينَ أحْضانِها قائلةً: «لا أحَدَ يُحِبُّ مُرافقَةَ شَخْصٍ يحتضرُ ثمّ يمُوت... لا بُدّ أنّ ذلك كانَ قاسِيًا عليْها»، فقَدْ بدا لها الأمْرُ نظَرِيّةً يتطلّبُ إثباتُها بُرهانًا.

قبّلَتْ شَعْرَهُ، ثمّ جبينَهُ، ثمّ ما بيْنَ عَينيْهِ، وكادتْ تُطبِقُ شَفتيْها على شفتيْهِ، لكنّها تراجَعَتْ بحذَر:

- أتعْلَم... حتّى المُسنّون يُحبُّونَ اللّعبَ، وأمُّكَ تريدُ أن نُنجِبَ أطفالًا لتلْعَبَ معَهم. فلنصنَعْ لها لُعْبَةً تُلهيها عنْكَ... ما رأيُك؟

مَرّتْ عليْها بعْدَ ذلكَ ليالٍ عديدةٌ، تقُومُ في أثنائِها، حالما ينامُ سُليمانُ، إلى دولابِها، لترتَدِيَ بعْضَ فساتينِ المُناسَبات. ثمَّ تَشْرَعُ في الدّورانِ، كلّما لبِسَتْ فستانًا جديدًا، وتظلُّ تدورُ حتّى تنكشِفَ ساقاها مِنْ تحْتِ الفستانِ، فتدورُ الأرضُ مَعَها، ويدورُ أثاثُ الغرفةِ حَوالَيْها، وشيئًا فشيئًا يصير مُتلاصِقًا كصفٍّ مِنَ اللّآلِئِ، في عقْدٍ تتوسّطُه فتاةُ الفُستان. حينئذٍ، تترنّحُ، وتسقُطُ، وتُغمِضُ عَينيْها، فتشعرُ بأنَّ الأرضَ مازالتْ تدُورُ وتدُورُ وتدُورُ، وكأنّها

هي الأُخْرى تُجرّبُ فُستانًا جدِيدًا. وفي ليلةٍ مِنْ تلكَ اللّيالي، حدثَ أمرٌ كانَ مُنْتَظرًا منذُ عامٍ وثلاثة أشْهُر. فحينَ غَفَتْ بفُستانِها الّذي حلّقَتْ بهِ في عنان السّماءِ، اسْتيقَظَ سُليمان مُنتصَفَ اللّيلِ جائِعًا، بعْدَ أنْ عاقبَتْهُ أمُّهُ بحِرْمانِهِ مِنْ عشائِه. فتأمّلَ نوْمَ نبيلة وهو يفكّرُ، هل يُحتاج إلى مساعدَتِها من أجلِ بعضِ اللّبَنِ والخُبز، أم يتكفّلُ بالأمر وَحْدَهُ ويتركها هانئةً في نومها؟ كانَ قدِ اتّضَحَ لهُ منذُ مُدّةٍ، أنّ النّساءَ يَختلِفْنَ، فنبيلة لا تصْرُخُ في وجهِهِ، ولا تُرسِلُهُ إلى أيِّ جهةٍ، ولا تنْهاهُ عنْ أيِّ شيْءٍ، وحتّى رائِحَتُها حِينَ تعانِقُهُ، لا تُشْبِهُ رائِحَةَ أُمِّهِ، وكذلكَ حُضْنُها الّذي لا يدفَعُهُ إلى إغْماضِ عيْنَيْهِ، بلْ إلى فتحِهما على اتّساعِهما. ثمّ تَحسّسَ تلكَ الكُتْلةَ الطّرِيّةَ تحْتَ ثِيابِها بحَذَرٍ، فبدَتْ لهُ شَبيهةً بالكُرةِ الّتي يُحِبُّ، مَعَ فارِقٍ بسِيطٍ هو أنّها مَشْطورةٌ إلى كرتينِ أقلّ حجمًا، وأكثر طراوةً، وأعظم أثَرًا، تلمّسَهما بشغفٍ. غير أنّهُ سُرعانَ ما ولّى على عقبهِ، وانقلبَ على جنبهِ إلى الجهةِ المعاكِسَةِ لنبيلة المستلقيةِ بفستانٍ حريريٍّ تشرّبَ بعْضَ عرقِها. التحفَ بثيابِهِ مُحرَجًا ممّا فعلَهُ بجسَدِها وجسَدِهِ، وعادَ لينامَ في جهةٍ لا يراها فِيها. لكنّها بحدْسِ الأنْثَى المتربِّصَةِ، أدْركتْ معنى تقلُّبِهِ في السّرير... فالتصقتْ بهِ مُغمضَةَ العينينِ، وهي تتظاهرُ بأنّها نصْفُ نائِمَةٍ، وما إنْ شعُرَ سُليمان بأنفاسِها، وحركةِ كفِّها فوْقَ خصْرِهِ، حتّى ألقى بقُنبلتِهِ السّائلةِ الّتي خَطفَتْ أنفاسَهُ، وهو يرتعِشُ على حافّةِ السّريرِ، بينما ظلّتْ كفّا نبيلة، تُداعِبانِ خصْرَه. ومنذُ تلكَ اللّحظةِ الّتي تعلّمَ فيها اسْتِخدامَ فتيلِهِ، لم يتوقّفْ عنِ الانْفِجارِ،

سواءٌ برفقةِ نبيلة، أو بمُفردِهِ في أحلامِهِ. وكأيِّ طفلٍ، كرّرَ لُعبتَهُ حتّى مَلَّها، أو ربّما مَلّتْهُ، ثمّ انْسَحبَا معًا مِنْ هذه اللّعبةِ بعْدَ إنْجابِ ثلاثة أبناءٍ، تفصِلُ أربعُ سنواتٍ أكْبرَهم عَنْ أخويْهِ، ويفصِلُ عددٌ أقلّ مِنَ السّنواتِ أوْسَطَهم عَنْ أصْغرِهم.

***

ثمّةَ نظْرةٌ صَبُورٌ ترصُدُ بَيْتَ سليمانَ مِنْ عَلٍ، مِنْ مسافَةٍ أعْلى مِنْ أسْطُحِ المنازلِ، وأقلّ منِ ارتفاعِ الغمامِ، وتظَلُّ تقترِبُ، ثمّ تدخُلُ غُرَفَ منزلِهِ الواحِدة تلْوَ الأخْرى، دونَ الحاجةِ إلى المرورِ عَبْرَ بابٍ أو شُبّاكٍ، حتّى تصِلَ إلى غُرفَةِ نوْمِهِ، حيثُ رُتِّبَتْ ملابسُهُ في الخِزانةِ، ورُصَّ الملبُوسِ مِنْها حديثًا في الخلفِ، وتلك طريقةُ السيّدة نبيلة لتمْنَعَهُ مِن ارتداء الملابس ذاتِها كلّ مرة. وهي في الواقِعِ أمُورٌ بسِيطةٌ، ولكنّها كلُّ ما يسْتقِرُّ عليهِ الزّواجُ بعْدَ مُضِيِّ مُدّةٍ طويلةٍ مِنَ الزّمن.

حين صعِدْتُ برُوحِ السيّدة نبيلة قبْلَ خمسة عشرَ يومًا، كنتُ قدِ انتزَعْتُها وهيَ تتبعُ حِميةً أنْسَتْها مذاقَ السُّكَّرِ منْذُ ثلاثينَ عامًا، فضلًا عن أنّها كانتْ تمارسُ رياضَةَ المشْيِ كلّ يومٍ، إنْ لم يكنْ في الممشَى القريبِ، فعلى سطْحِ بيْتِها، وكانت تشرَبُ الماءَ بكثرةٍ، وتنامُ بلا عشاءٍ، لأنّها تتوقّفُ عنِ الأكلِ منذُ السّاعةِ السّادسةِ مساءً، حتّى صباحِ اليوْمِ التّالي. في البداية ظننتُها ستَسْخَطُ على هذا الأجَلِ غيْرِ المتوقّعِ مِنْ سَيّدةٍ تُربّي عمرها ليطولَ، كحالِ جميعِ الرّياضِيّينَ حينَ ألتقِطُ أرْواحَهُم وهم في عُنفُوانِ صِحّتِهم، فلا

يأخُذُونَ مَسْألةَ حتْمِيّةِ الموْتِ بهذِهِ البَساطَة. لكِنَّها كانتْ سَعِيدةً، وتلقّتْني بشَغَفٍ يُشْبِهُ حماسَ مُتسلّقِي الجِبالِ، إذا اقتربُوا مِنَ القِمّة، بل تصَرّفتْ كرُوحٍ قديمةٍ، ملّتْ مِنْ كثْرةِ تنقُّلِها في أجْسادٍ جدِيدَةٍ، فكنتُ في نظرِها خَلاصًا انتظَرَتْهُ كثيرًا، حتّى إنّها قالتْ خِلالَ رِحْلةِ صُعُودِها:

- لَكَمْ كنتُ أودّ لقاءَكَ حينَ كان زوْجِي طِفلًا، وكنتُ مُجبرةً على لمسِهِ في كلِّ مكانٍ ليُصبِحَ رجُلًا.

واقْشَعرّتْ روحُها وهي تُكرِّرُ أكثرَ مِنْ مرّةٍ:

- لا تأخُذْ رُوحَ زوْجِي قبْلَ إحْدَى عشْرَةَ سنةً أخرى...

وألحقتْها بـ:

- أرجوك!

فكيْفَ لمنِ اعْتَنى بنَفْسِهِ كلَّ هذهِ العِنايةِ أنْ يُفرِّطَ في هِبةِ الحياةِ بهذِه السّهولةِ؟ ولمَ تمنّتْ لزوْجِها عمرًا طويلًا، على الرَّغمِ مِنْ أنَّ علاقتَهما لمْ تكنْ مِثاليّةً في يومٍ مِنَ الأيّام... هل كان ذلكَ بدافعٍ أمُوميٍّ بحْت؟

تختلِفُ المقاييسُ في عالمِ الأمْواتِ... فهُناكَ ستجِدُ رضِيعًا أكبرَ مِنْكَ، وإنْ كُنتَ قضيْتَ نحبكَ عجوزًا في أرذلِ العمرِ، لأنّهُ ببساطةٍ سبِقَكَ في الموتِ بثلاثمائةِ سنةٍ، فيما حدثتْ وفاتُكَ للتوّ! ربّما تتعثّرُ في فهْمِ ذلكَ، لكِنَّ هذِهِ الأمُورَ تُفْضِي إلى مَتاهَةٍ لا طائِلَ مِنْها الآنَ، بالإضَافةِ إلى أنّكَ ستتعَوّدُ عليْها بمُمارسَةِ الموْتِ في وقْتٍ لاحِقٍ، بعْدَ

إنْزالِ نعْشِكَ إلى القَبْرِ، حيثُ ستبقى ميِّتًا وقتًا طويلًا، لذا لا مبرّرَ لأنْ يشْرُدَ ذِهْنُكَ مُنْذُ الآن! ومِنْ ثمّ سأحسنُ استغلالَ الوقتِ، وأُحَدِّثُكَ قليلًا عَنِ الأرْواحِ الّتي تشِفُّ بيْنَ يدَيَّ، وهي صاعِدَةٌ إلى السَّماء!! تلكَ الأرواحِ الّتي تنتزِعُني مِنَ اللّامبالاةِ الّتي أعيشُها منذُ ملايينِ السّنينِ، وتزْرعُ في داخِلي شيئًا مِنَ الفضُولِ، كما حدَثَ معَ السيّدة نبيلة، الّتي أعُودُ، في لحظاتِ فَراغِي، لأتعقَّبَ آثارَها في بيْتِ زوْجِها سليمان. نعمْ، في لحظاتِ فراغي... وهي لحظاتٌ نادِرَةٌ وسَرِيعَةٌ، وعليْكم أن تلتقِطُوا فيها أنفاسَكم، وتُخرِجُوا ما تُسمُّونَهُ ثاني أُكسيد الكربونِ، فقدْ حلَّ عليْكُم في أثنائِها الأمانُ، ما لمْ تطرأْ حالةٌ لم تكنْ في الحسبانِ: قلبٌ توقّفَ فجأةً عنِ النّبضِ، أو رجُلٌ ابتلعَ لِسانَهُ، أو حادِثُ سَيْرٍ، أو عُقُوبةُ إعْدامٍ... ولكي أكونَ صادِقًا معكُمْ، أُقرّ بأنّ فكرةَ القتل تُشعرني بالاشمئزاز، خاصّةً عندما يتعلّق الأمرُ بالإعدام. فأنا أكرهُ أن أُجْلَب مغصوبًا لأُقابل شخصًا لا يريدني ولا أريده.. وفي تلكَ اللّحْظةِ، لحظةِ الإعْدامِ وَحْدَها، أتأثّرُ بخوْفِ المحكومِينَ، دُونَ أنْ أبادِلهم الإحْساس. صَحِيحٌ أنّني لستُ مكلّفًا بإصْلاحِ ما ينهارُ بعْدِي، فأنا في عَجَلةٍ مِنْ أمْري دائمًا، لكنّ هذا لا يعْني أنّني لا أندمُ مِنْ وقتٍ إلى آخر، فقدْ مرّتْ عليّ أوقاتٌ، تمنّيتُ فيها لو كُنْتُ قادِرًا على إعادَةِ مَيِّتٍ إلى أهْلِهِ، والتّراجُعِ عنِ الطّريقِ الوعْرِ الّذي بدَأْتُه. فبعضُهم يمحُو الحياةَ بعْدَهُ، ويترُكُ خلفَهُ ناسَهُ وقدِ انشغَلُوا بهِ كثيرًا، وأفرغُوا حياتَهم مِنْ كلِّ شَيْءٍ عَداه. فتمُرُّ الأعوامُ، ويظلّونَ مَعَ ذلكَ مُتحلِّقينَ حوْلَ فُوَّهَةٍ عَمِيقَةٍ، كتلكَ

الّتي تُحدِثُها الأجْسَامُ الصّخريّةُ الآتِيَةُ مِنَ الفضَاءِ، تلكَ الأجسامُ الّتي لا تتركُ في مكانِ سُقوطِها إلّا الفَناء. عِنْدَئِذٍ، رحْمةً بهم، أُمارِسُ أقْدَمَ خدعةٍ في الكونِ... فأنسِيهم الحُزنَ القدِيمَ، بحُزنٍ جدِيد.

***

لنْ تسْمعَ يومًا مِنْ أحَدِهم، ما عدا سليمانَ، أنّه كانَ يغْلي الحليبَ في أمانِ المولى، وإذا برأْسِ فأرٍ كرغْوةٍ رماديّةٍ، يسْبَحُ في دوائرَ بيضاءَ داخِلَ الإبْريق. أطبقَ سُليمان الغِطاءَ على الرّأسِ المتمركِزِ في الطّرفِ، وعادَ إلى الوراءِ مذْعُورًا، وعيناهُ كبيْضَتيْنِ مَسْلوقتَيْنِ، تكادانِ تفِرّانِ مِنْ وجهِه. فكّرَ في إطْفاءِ النّارِ، ولكنّهُ رفَعَ مَوقِدَ النّارِ إلى أعْلى دَرجَةٍ، وهو يتدَبّرُ بهُدوءٍ جريمةَ قتْلِهِ الثّالثةَ، فقدْ خَنَقَ في المرّةِ الثّانِيةِ قِطًّا حتّى الموتِ، بعْدَ زواجِهِ مِنْ نبيلة بليلتيْنِ، ظنًّا مِنْهُ أنّ ذلكَ سيجْعَلُ مِنْهُ رجُلًا بأقْصَى سُرعةٍ مُمكِنَةٍ، ويُنْسِيهِ رفاقَهُ والكُرةَ والملْعَب. لمْ يُصْدِرِ الفأرُ أيَّ ضَوْضاءَ في الدّاخِلِ، «يبدُو أنّهُ مِنْ فصِيلةٍ نبيلةٍ، لا تُحبُّ أن تُظْهِرَ ضَعْفَها»، قال سُليمان لنفْسِهِ ساخرًا، وهو يتذكّرُ زوجتَهُ في هذا الموْقِفِ، إذْ رأَتْ فأرًا في المَشى قبْلَ أن تسقُطَ، فتذمّرتْ مِنَ الإهمالِ الذّي تُعاني مِنْهُ الحدِيقَة. وتذكّرَ أيضًا أنّها قالتْ شيْئًا بخُصُوصِ وضْعِ شَكوًى في صُندوقِ الاقْتراحاتِ الّذي لمْ تجِدْهُ في مَكانِهِ المخصَّصِ لهُ، وأنّها غَضِبَتْ غَضَبًا مُبالغًا فيهِ، واتّهمَتْهُ بالبُرودِ وقِلّةِ الإحْساسِ. لمْ تُقاومِ الموتَ بالتّشبُّثِ بصَدْرِ زوْجِها أو بكتِفِهِ، ولمْ تُصْدِرْ أيَّ ضجيجٍ، حتّى إنَّ الرّائي البعيدَ يظنُّ أنّها مالتْ لتسْتريحَ على الرّصِيف. وفيما هو مأخوذٌ بحرارةِ

الذّكرى، فاضَ الحليبُ على جوانِبِ الإبْريقِ، فانْتَظرَ ظُهورَ خليطٍ مِنَ الدّمِ والشَّعْرِ الرّماديِّ، لكنّ كُتْلَةَ حليبٍ تصَاعَدتْ وتجمّدتْ، كورقةٍ فارِغَةٍ مِنَ الكتابَةِ على سَطْحِ الموقِدِ. حينئذٍ، انْحَنَى بعُنُقِهِ يتأمّلُ المشْهدَ متسائلًا في قرارةِ نفسِهِ: «هل سالتْ عيْنا الفَأْرِ مَعَ الحلِيب؟» فاقشعرَّ للفِكرةِ، وأسْرعَ بوضْعِ الإبريقِ في كرتونِ بطاطا، وفتحَ البابَ الزّجاجيَّ المؤدّي إلى الشّرفةِ، ثمّ ألقَى بالكرتونِ أسْفَلَ الزّقاقِ، مُتحسِّسًا أيَّ حَركَةِ نجاةٍ، قَدْ تصْدُرُ عنِ الفَأْرِ في القاعِ المُظْلِمِ، وظَلَّ يراقِبُ حتّى تناهَى إلى ذاكِرتِهِ مَشْهدُ والدَتِهِ وهي تُعلّمه السباحة. وعادَ به الزَّمانُ إلى سَنّ السادسة. تذكّرَ كيْفَ كانَ مَربُوطًا بحَبْلٍ ممتَدٍّ بيْنَ خاصِرتِهِ وخاصِرةِ أمِّهِ المبلّلةِ، لأنّها قطعَتْ أمْتارًا مُتقَدِّمةً في المياهِ المالِحة. ولمْ يكُنْ بمقْدورِ أحَدٍ أنْ يتكهّنَ، والماءُ يغمُرُها حتّى مُنتَصَفِ خَصْرِها، بأنّها لا تُجِيدُ السِّباحَة. فقدْ ظلّتْ واقِفةً كتمثالٍ، تنظرُ إليْهِ بثباتٍ، كيْ لا تُضَيِّعَ مَكانَهُ، منفُوخَةَ الخدّيْنِ، تُقاوِمُ سُعالًا يُحاوِلُ أنْ يندفِعَ خارِجَ فمِها، لأنّها تخافُ أنْ تَطْرفَ، ويغيبَ عنْها سُليمانُ، وفجأةً أخذَتْ تُجدِّفُ في الهواءِ بيدَيْها، وتُباعِدُ ما بيْنَ فخذَيْها كضِفْدعٍ، ثمّ تضُمُّ كفّيْها حوْلَ فمِها على شَكْلِ قمْعٍ، وهي تقولُ: «أغلقْ فمَكَ... لا تبْتَلِعِ الماء». ولا شكَّ في أنّ ما تفجّرَ مِنْ ضَحِكِ النّاسِ حواليْها، يعودُ إلى الحركاتِ الغريبةِ الّتي أتى جسدُها بها، ولا شَكَّ في أنّها لمْ تُعِرْ ذلكَ أدْنى اهْتِمام، وأنّها تجاهَلَتْ بشَكْلٍ مقْصُودٍ كُلَّ ما يحدُثُ حَوْلها. أمّا سُليمان الصّغيرُ، فظلَّ ينظُرُ إلى الأعْلى، وهو يرى السّماءَ قد اقتربتْ منهُ بشَكْلٍ مُريبٍ،

وينْتَظرُ أنْ تمتَدَّ يدٌ لتنتشِلَهُ. كانتِ السّماءُ صافِيةً، لا يُعَكِّرُ سُطوعَ شمسِها سِوى نافورةِ الماءِ الّتي تنْطَلقُ مِنْ فَمِهِ وأنْفِهِ كلّمَا صَرخَ، بينما كانتِ الطّحالبُ تمرُّ فوْقَ رأسِهِ ببُطءٍ، وتلتَفُّ حَوْلَ الحبْلِ الّذِي يشُدُّهُ إلى خَصْرِ أمِّهِ، وهو يُحاكي بعْضَ حركاتِها، فيستدِيرُ على ظهْرِهِ كدَلوٍ مَقْلوبٍ، مُحاولًا التّشبُّثَ بالحبْلِ والعوْدَةَ إلى أمِّهِ، الّتي كانتْ تشُدُّهُ بقوّةٍ لتسْحَبَهُ إليْها. لقد كنتُ هُناكَ، في تلكَ السّاعاتِ الّتي قضّاها سُليمان في مُقاومَةٍ شَرِسَةٍ للماءِ، وكنتُ قريبًا منهُ أيضًا في أحدِ أيّامِ تلكَ الصّائِفة الّتي قضّاها على شاطِئِ البحْرِ، حتّى إنّه سمِعني بوضوحٍ حينَ قلتُ لهُ: «لا تَشْعُر بالخوفِ، فأنا لا أطارِدُك». وحينئذٍ فحسبَ اسْتطاعَ أنْ يتعلّمَ السِّباحَة.

«يومًا مّا سَترتَكِبُ جِنايَةً بحرْقِ رأْسِ أحدِهم، ولنْ تسْلَمَ مِنَ العقابِ يا جار... فلا تقلْ إنّ أحدًا لمْ يُحذِّرْك!»، جاءَ الصّوتُ مُبتهِجًا وساخِرًا، مِنَ الجهةِ المقابِلَة. ثمّ ظهَرتْ، دونَ ظِلالٍ هذه المرّةَ، سَيِّدةٌ برأْسٍ يتّكئُ على كفٍّ ممتلئةٍ وساعِدٍ بضٍّ، تجلسُ على كرسِيٍّ قُربَ الطّاولةِ، وتنظُرُ باتِّجاهِه. ميّزَ سُليمان بأُذُنيْهِ الكبيرتيْنِ أنَّ لها صوتًا مُتقَطِّعَ الأنْفاسِ، كصَوْتِ مَنْ يصْعَدُ الدَّرَجَ، ربّما لأنّها مُرتَبِكة...

- يا جارةُ، نظَرْتُ إلى ذاكَ الاتّجاهِ قبْلَ قليلٍ ولم تكُوني هُناك!

ثمّ بدأَ بفرْكِ مِعْصَمِهِ، وضَمِّ كفّيْهِ فوْقَ صدْرِهِ، في مُحاولةٍ بائِسَةٍ لرَسْمِ شَخصِيّتِهِ، قبْلَ أنْ يُضِيفَ:

- أنتِ تظْهَرينَ فَجْأةً كإعْلاناتِ التّلفزيون.

ابتسَمتْ بشَيْءٍ مِنَ المكْرِ وهي تقولُ:

- وُصِفتُ بهذا مِنْ قَبْل! وعلى كلِّ حالٍ، فبعْضُ ألحانِ الإعْلاناتِ مُسَلّيَة.

كانَ سُليمانُ يقِفُ دُونَ صَبْرٍ، مستندًا إلى حافّةِ تِلْكَ الشُّرفةِ، ويتنقّلُ بقَلَقٍ مِنْ قدَمٍ إلى أخْرى:

- إنّها الثّالثةُ فجْرا! أنتِ تنامِينَ، في معظمِ لياليكِ...

صمتَ قليلًا، ثمّ أكْمَلَ

- ... مُتأخِّرَة.

كانتْ تجلِسُ إلى طاوِلةٍ في مُنتَصَفِ مَطبَخِها، ورأسُها مُلتفِتٌ إلى اليَسارِ قَلِيلًا، فلا يظْهَرُ مِنْها سِوى قمِيصٍ عُلْوِيٍّ أبْيَض، أمّا ما تحْتَ الطّاوِلةِ، فظلَّ تحْتَ الطّاوِلة. وبدا شَعْرُها أسْفَلَ رقَبَتِها مَبْرومًا في هيْئَةِ قبْضَةِ يدٍ، وكانَ شَعْرًا أسْوَدَ مُتمَوِّجًا فحسْبُ، دُونَ مُواصَفاتٍ أخْرى تُمَيِّزُهُ:

- لكنّ الثّالثةَ فجرًا قدْ تكونُ أيضًا وقتًا مُبكّرًا يا جار...

ابتسَمتْ لهُ، ثمّ أدْخَلتْ أصابعَ يدِها اليُمْنى في قبْضَةِ شَعْرِها المتكوّمِ أسْفلَ عنُقِها، وأضافَتْ:

- أنا ابْنَةُ مُغنّيَةِ أفْراحٍ، ولطالما كانَ اللّيْلُ في نَظَرِي أوّلَ اليوْمِ، أمّا النّهارُ فعابِرٌ، ولا يمكِنُ أنْ أحْظَى فيهِ بمشْهَدِ رجُلٍ مَذْعورٍ مِنْ كرتونٍ صَغِيرٍ، وهو يرمِي بهِ في الزُّقاقِ، ويَلْعَنُ الحلِيب!

استغربتْ أذُنا سليمانَ، كيفَ يمكنُ للضّحْكةِ أنْ تمحُوَ كلَّ الكلامِ الّذي قيلَ قبْلها، ففتحَ فمَهُ مُندهِشًا:

- هاااه!!

كانَ لا يزالُ يَستوْعِبُ تحوّلَ الظِّلالِ إلى إنسانٍ لطيفٍ وساحرٍ، لكنّ المشْكِلةَ الوحيدَةَ أنَّ استيعابَهُ يستغرقُ وقتًا ثقيلًا بالنّسبةِ إلى ليلٍ خفِيفِ المرورِ، وحينَ قرّرَ أنْ يفْعَلَ شيئًا، لمْ يكنْ أمامَهُ سِوى التِقاطِ حَبّةٍ حلوى مِنْ سلّةٍ خصّصَتْها نبيلة للأحفادِ، حلوى مغلّفةٍ بألوانِ الفاكهةِ وبنكهاتٍ لا تُشبِهُ طعْمَ الفاكهةِ الأصْلِيّ، رفعَها عاليًا في إشارةٍ منْهُ إلى أنّه سيقذِفُ بها نحوها، عندئذٍ وقفتْ واقتربتْ مِنَ الشّرفةِ، فداهمَهُ قوامُها، حتّى نسِيَ يدَهُ مُعلّقَةً في الأعْلى، وظلَّ يُحدِّقُ النّظرَ في خصْرِها ورِدفيْها. ورغم ذلك، لم يُخطِئِ الرّمْيَةَ حينَ قذفَ بالحلْوى إليْها، ولمْ تُخطِئِ هي الإمْساكَ بِها. حدّثها عنْ قصّةِ الفأْرِ الّذي أطلَّ مِنْ إبريقِ الحليبِ، واضطرَّ إلى أنْ يُبالِغَ في وصْفِ حركتِهِ، ليسْتأثِرَ باهْتِمامِها أكثَر. وتسنّى لهُ وهو يحكي القصّةَ، أنْ يخمّنَ أنّها سيّدةٌ في عقدِها الرّابعِ، بعنقٍ طويلٍ، قد يكونُ أطولَ عنقٍ رآهُ مِنْ قَبْلُ، فضلًا عنْ أنّها سيّدةٌ تُصْغِي باهتمامٍ، وتتأخّر في الرّدِّ، كأنّها تُفتّشُ في صُندوقٍ عميقٍ عنِ الإجابةِ المطلوبةِ قبْلَ أنْ ترفعَ اللّوحةَ لتُرِيَهُ إيّاها. ولكنّهُ لمْ يكنْ يأبَهُ بمدّةِ تأخُّرِها، طالما أنّها تنظرُ إلى جهتِهِ بكُلِّ جسَدِها. وفي هذِه الأثناءِ، أطلَّ رأسُ سيّدةٍ تسْكنُ الدّورَ الثّالثَ، تحْتَ شقّةِ جارةِ سليمانَ مُباشرةً، أخرجَتْ ببغاءً مسْجونًا في قفَصٍ صَغِيرٍ، ووضَعتْهُ على حافّةِ نافِذتِها، وهي تصْرخُ مُشِيرةً بإصْبَعِها إلى منقارِه:

- أيِّ نوعٍ مِنَ الطّيورِ الحقيرةِ أنت؟

زعقَ الببغّاءُ ليُخبرَ عَنْ نوعِهِ، لكنّها لمْ تفهمْ لُغتَهُ، لذا عاودتِ الصُّراخَ:

- اخرسْ وإلّا جعلتُكَ طَعَامًا للقِططِ يا حيوان.

وسرعانَ ما انتبهتْ إلى أنّها ليْستْ وحْدَها في تلكَ الجهةِ مِنَ البنايةِ... فنظرتْ إلى الأعلى قليلًا، وحينئذٍ رأتْ سليمانَ في العمارةِ المقابلةِ واقفًا في الشُّرفة، فوضَعتْ كفَّها على وجْهِها لتستُرَهُ، وعادتْ إلى الدّاخلِ مُسرعةً تاركةً نافذَتَها مفتُوحةً، كما كانتْ قبْلَ أن تُخرجَ القفَص. نظرَ سُليمان إلى جارتِهِ وهو يقولُ بصَوْتِ مُراهِقٍ قديمٍ، مازالَ مُختبِئًا بداخِلِهِ:

- تعاليْ... لقد ذهبَتْ.

تقدّمتْ جارتُهُ خطوتينِ، والتصَقتْ بنافِذَتِها، وهي تنظرُ إلى الأسْفلِ:

- مهامُّ كثيرةٌ تضطلعُ بها عبارةُ «يا حيوان» حين تقولُها جارتي هذه.

أشارتْ بسبّابتِها إلى الأسْفل، نحْوَ شقّةِ الدّوْرِ الثّالثِ، وهي تستدْرجُ الكلامَ بضِحْكةٍ خبيثةٍ، خصُوصًا أنّ سليمانَ بدا لها، وهو يُحاوِلُ ألّا يُفوِّتَ شَيْئًا ممّا تقُولُهُ، شَخْصًا شَغُوفًا، ثمّ أكمَلَتْ ردَّ فِعْلِها المفْرطَ بضَحْكةٍ حاوَلتْ أنْ تُدارِيَها وهيَ تقولُ:

- مِنْ كلمةِ «حيوان» ما تكوِّرُهُ في حُنجُرتِها، وتقذِفُ بهِ زوجَها في نَوْباتِ غضَبِها المتكرِّرةِ، ومِنْها ما تشْهقُ بهِ في ذروةِ تواصُلِها الحمِيمِ معه.

ابْتَسَمَ سُليمانُ لجُرْأَةِ الجارةِ وتبسُّطِها في الحديثِ، دونَ أنْ تنتبهَ لردّةِ فِعْلِهِ، فقدْ أكمَلتْ كلامَها، وهيَ لا تزالُ تحاولُ أن تميلَ برأْسِها، لتنظرَ إلى الأسْفلِ، مُضِيفةً:

- هذا الببّغاءُ يسْكنُ في شقّةٍ لا تُغلَقُ نوافِذُها، وهو يُردِّدُ عادَةً ما يسْمَعُ... ومِنْ ثمّ أظلُّ أسمعُهُ يُعِيدُ الكلِمةَ نفْسَها بطريقَتَيْنِ مُختلِفتيْنِ وفي غيرِ أوانِهما، فيجعلُكَ في الأولى تأسَفُ للشّجارِ الّذي هبطَ بالزّوجيْنِ إلى ذلكَ الدّركِ، ويقُولها في الثّانيةِ معَ انزلاقٍ أملسَ لا تُغفِلُهُ أذْنٌ سَرِيريّة.

حافظَ سُليمانُ على ابتِسامَتِهِ طَوالَ الوقْتِ، دُونَ أنْ يُرخِيَ بصَرَهُ عَنِ الجارةِ، وهو يُلصِقُ جُزءَهُ السّفْليَّ أكثرَ فأكثرَ بالنِّصْفِ الأسْفلِ مِنَ الشّرفةِ، معَ كثيرٍ مِنَ الامْتِنانِ لإصْرارِ نبيلة على أنْ تظلَّ الشُّرفةُ مفتوحةً، وغيرَ محمِيّةٍ بالزُّجاجِ الدّاكنِ، كما أراد. فبقِيَ جزؤُهُ العلويُّ مَرِنًا يميلُ في كلِّ اتّجاهٍ، فيما كانتْ جارتُهُ تتحدّثُ إليْهِ كما لو أنّهُ نائمٌ، فلا تهتمُّ متى تبدأُ قصّةً سمِعَتْها، ومتى تُواصِلُ الثّرثرةَ عَنْ نفْسِها فَحسب:

- أتساءلُ لو جاءَ الببّغاءُ مُصادَفةً إلى بيْتِي... ماذا ستكونُ حصيلتُهُ مِنَ الكلام؟

الْتفتَتْ إلى الخلْفِ بنظرةٍ يائسةٍ تدُورُ في شقّةٍ بدا أنّها تعْرِفُها جيِّدًا:

- جدران الشّقّةُ مزدحمةٌ بالذِكريات، فالمدفونُ ومن تريدُ أنْ تنْساهُ فيها أكثرُ مِنَ الحيّ.

وسُرعانَ ما ظهرَ النّفورُ والضّجرُ على وجهِها وهي تُضِيفُ:

- الآخرونَ يذْهبُونَ، ونحنُ نُعاني.

ثمّ ابتسمتْ بسكينةٍ:

- لا أعرفُ كيف مازلتُ أنجُو منْ كلِّ هذا يا جار؟

أرادَ سُليمان المفتونُ حتّى بكتِفَيْها الضّيّقتَيْنِ، مُقارنَةً برقَبتِها الطّويلةِ، أنْ يقولَ: «تستحقّينَ الإنقاذَ إلى ما لا نهاية»، لكنّهُ تجنّبَ قوْلَ هذا، لذا خرجَ صوتُهُ عاليًا وهو يحيدُ عن الكلامِ الّذي بدأ يوحي بالقتامَةِ:

- لمْ أرغبْ في بناءِ فيلا كما أرادَتا دائِمًا... فمنْ لا يسْمعُ مِنْ صالةٍ تتوسّطُ بيتَهُ، كلَّ ما يقعُ على أرضيّةِ الغُرفِ الأخرى، لنْ يشْعُرَ بلذّةِ الأمان. ولمْ أحلُمْ يومًا بأن أكونَ صاحِبَ بَيْتٍ يتكوّنُ مِنْ طابِقَيْنِ، لأنّني لنْ أعلمَ ماذا يحدثُ في الأعلى!

وجدَ سُليمان أنّهُ بحاجةٍ إلى أنْ يقولَ شيئًا يُعرِّفُ نفْسَهُ بهِ، حتّى لو لمْ يكنْ مُهمًّا. لكنّهُ لنْ يكذِبَ، لأنّهُ لا يُجيدُ ذلكَ أساسًا. فاسْتغرقَ في سَرْدِ تفاصِيلَ عَنْ وُقُوفِهِ عادةً وحيدًا ومُرهقًا، في مُواجَهةِ امرأتيْنِ لا تتركانِ لرأيِهِ فرصَةً، وكيف أصرَّ، مع ذلكَ، على فِكْرةِ بناءِ هذِهِ العمارةِ، ولمْ يخذِلْهُ عنادُهُ أمامَهما. أمّا هيَ، فقدِ اسْتمَعَتْ إلى كلامِهِ باهتمامٍ شديدٍ، وهي تقلّبُ حلوى النّعناعِ في فمِها، إذْ كانتْ وجهةُ نظرِها مطابقةً لوجهةِ نظرِهِ بخصُوصِ الأمانِ الّذي يحقّقُهُ البيتُ الملمُوم. وتبدّى لها أنّ تلكَ الزّاويةَ مِنْ شقّتِها، تبدُو أكثرَ دفئًا عنْدَما يكون هو في الجهةِ المقابلةِ لها، حيثُ يقفُ الآن. ففكّرتْ في أنْ تقُولَ لهُ هذا، دونَ أنْ تبالغَ في اللّهفةِ،

لكنَّ الوقْتَ لمْ يتّسِعْ لذلكَ، إذْ توجّهتْ مُسْرعةً، لترُدَّ على هاتِفِها الّذي علا صوتُ جرسِهِ مِنْ غُرفةٍ داخِلَ بيْتِها. وقدْ تسنّى لهُ في غيابِها أن يُحضّرَ لها سُؤالًا تأخّرَ كثِيرًا... سؤالًا عنِ اسْمِها، لكنّها لمْ تعُدْ إلى الشّرفةِ في تلكَ اللّيلة.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

قدْ تُصابُ بِي مرّتين

هُناكَ، على ما يبدُو، ما يبشِّرُ بالخيرِ، فالأرضُ تكادُ تنْدثِرُ ولا شيء فيها ظَلَّ على حالِه لا الطّقسُ ولا الزمان ولا الإنسان، فكلّ شيء صار زائفًا، وكلّ شيء يحتضر. وهذا يفتح شهيّتي للعمل ويضع أمامي خياراتٍ كثيرةً، لذلك نظرتُ مباشرةً إلى آدم وخطوتُ نحوه الخطوة الأولى. كان شابًّا طويلًا، بعظام جسيمة تكسوها العضلات وتغلّفها بشرةٌ صافيةٌ تميل إلى الحمرة. من المؤكّد أنّكَ ستلحظُ طريقتَهُ في تحسّس جيبِهِ، ليتأكّدَ مِنْ وجودِ مفاتيحِ الصّيدليّةِ الّتي يعملُ فيها. فتلك عادةٌ اكتسَبَها منذ أضاعَ مفتاحَ خزانتِهِ وهو طالب في الجامعةِ. وظَلّت تُلازمه إلى الآن، وتصدر عنه في اليوم الواحد ثلاثَ مرّاتٍ على الأقلّ، حتّى عندما يكون جَيْبُه خاويًا من المفاتيح أيّامَ إجازتِهِ الأسْبوعيّةِ. منذ أقلّ من سنة، اِلْتَحَقَ آدم بصيدليّة في حيٍّ بَدّار بَعْدَ عمَلِهِ في سِلْسِلةِ صيدليّاتٍ شهيرة. والغريبُ في الأمر أنّ أكثرَ مِنْ نصْفِ النّساءِ اللّاتي زُرْنَهُ خلال الأسابيع الأولى مِنْ عملِهِ في صيدليّةِ الحيّ، لم يكنّ يشتكينَ من أيِّ علّةٍ في أجسادِهنَّ، فلمْ تشْترِ أيٌّ منهنّ دواءً أو مُستحضَرًا، وإنّما جئنَ للاستشارةِ بخصُوصِ عِلّةٍ وهميّةٍ، لا لشيءٍ إلّا ليُجمّلن أعينهنّ برؤية هذا الصيدليّ الفاتن. فهو كاملٌ على

نحوٍ غريبٍ، ودونَ أيِّ اجتهادٍ منهُ. لكنّ كماله لا يتجاوزُ الشّكلَ، فمن النّادر جدًّا أن يقول شيئًا ذا أهمّية، ولم تثبتْ طرافته يومًا.

وكانت الصّيْدَليّةُ تَبْعُدُ مائتيْ مِترٍ فقط عَنْ بِقالةِ «المسرّاتِ» المسْتأجَرةِ في طابق عِمارةِ سُليمانَ الأرْضِيِّ، وعلى يمين العمارةِ تقعُ بنايةٌ مِنْ خمسةِ طوابقَ، تُشاركُها في زُقاقٍ ضَيّقٍ، أصْبَح مكبًّا لكَراتِينِ تموياناتِ البِقالةِ الفارِغَة. ومِنْ نافذةٍ في الطّابقِ الرّابع من تلكَ العمارةِ الرّخامِيّةِ الصّفْراءِ، يخرجُ عنقُ سيّدة جميلة كلَّ مَسَاء. تردّدَ وصفُ آدمَ على ألسِنَةِ النّساءِ في هواتِفِهنّ، وفي تجمُّعاتِهنَّ داخِلَ البُيوتِ ومراكزِ تحفيظِ القرآنِ، وفي المقاهي. وظلّت الروايات تتطهّر، روايةٌ تنقّح روايةً، حتّى خلت نهائيًّا من كلّ شائبة يمكن نِسْبتُها إلى آدم. غيْرَ أنَّ أمجد ابن سليمان الأوسَطَ الّذي يشتركُ معَ والدِهِ في شكل الأذُنيْنِ، وفي سَرْدِ النّكاتِ بطريقةٍ تثيرُ الشّفقة، كانَ لهُ رأيٌ آخر في آدمَ وكماله. رأيٌ تشكّل بمجرّد أن دار بينهما حديث قصير في الصيدليّة. فإثر انتهاء أيّام العزاء في أمّه، كان ابن سليمان الأوسط عائدًا إلى بيته من حيّ بدّار، فعرّج على الصّيدلي يسأله خدمةً، لكنّ الحوارَ سرعان ما انتقل إلى باطنه: «ما هذا الـ....آدم؟ كيفَ له أنْ يحتمِلَ نفْسَه؟ على كلّ حال، ومن أجل صحّة والدي، لا شيْءَ يمنعُ مِنَ الاسْتِعانةِ بصَيدَليٍّ لا تخلُو مفاصِلُ أصابِعِهِ مِنَ الكُتَلِ المتدِّرنَةِ». عندئذٍ أعطاه عُنوانَ بيْت العائلة، وشَعُرَ بالارتياحِ أكثرَ حينَ اتّفقَا على مبلغٍ ماليٍّ، مُقابِلَ أنْ يعود والدَه أكثرَ مِنْ مرّةٍ في الأسْبوعِ، ليفحصه ويُطمْئِنَهم عليه. كان أمجد يرى أنّ أباه يمرّ بحالةٍ غريبةٍ،

فهو لمْ يذرفْ دمعةً من أجل زوجته، ولا تبدو عليه أيُّ علامةٍ من علامات الحزن. خَشِيَ أمجد أنَّ مرضًا غامِضًا يتراكمُ داخِل والده، خصُوصًا منذ أن صارَ يأكلُ بشراهةٍ ولا سيّما بعد السّادسةِ مساء، وهو الوقتُ الّذي لمْ تكنْ السّيّدة نبيلة تسْمَحُ لهُ في أثنائهِ بتناولِ شيءٍ غير الفاكهةِ، حتّى لا يستفزَّ جوعَها، ويُفسِدَ عليْها حِمْيَتَها.

حينَ فتحَ سُليمانُ البابَ بعْدَ السّاعةِ العاشرةِ ليْلًا، لفتَتْهُ هو الآخرُ تلكَ الأصابعُ الّتي يظهرُ أسْفلَ كلِّ ظفرٍ منها، نُتوءٌ مُنتفِخٌ يكادُ ينْفَجِر. وبما أنّ سليمان يحمل تصوّرًا مسبقًا عن جسد الصّيدليّ، إذ يراه خاليًا مِنَ العِلَلِ الظّاهِرةِ، والعضَلاتِ المشُوبةِ بالاحْمِرارِ، فقد رفضَ تسليم نفسه لآدم حتّى يقوم بفحصه، دُونَ أنْ يذكُرَ له سبب امتناعه. كانت الضّغينةُ واضِحةً على وجهِ الصّيدليّ مثل صفْعةٍ. وعندما همّ بالنزول مغادرًا العمارةَ السابعة والثلاثين، بدا لهُ الدّرج أطْولَ ممّا كان عليه عند الصّعود، وهكذا صعد إلى رأسه المثلُ القائل «لا شيءَ يدومُ على حالِهِ»، ليزجّ به مباشرةً في آخر الكلمات الموجّهة إلى سليمان الّذي كان يقِفُ حافِيًا على عتبَةِ شقّتِهِ:

- سأتحدّثُ إلى أمجدَ يا حاج سُليمان، وسأخبرُهُ بتصَرُّفِكَ هذا! فلا شيْءَ يدومُ على حالِهِ... صَدِّقْني.

اختفى آدمُ وصوتُهُ عَنْ نظَرِ سُليمانَ، ولمْ يبْقَ إلّا وَقْعُ كعْبِ حِذائِهِ أسْفلَ الدّرَج. في الحقيقةِ، ليْسَ هُنالكَ ما يجعل الأب ضئيلًا، أكثر مِنْ أنْ يشكوه أحدُهم إلى أبنائِه. ولكن، لم يكن ذلك ما ظَلّ سليمان يفكّر فيه إلى وقتٍ متأخّرٍ من تلكَ اللّيلةِ، بل كان ذهنه مشغولًا بما

مضى مِنْ حياتِهِ وبما بقي مِنْها، ولم يكن لآدم وتهديده أيُّ وجودٍ في كلا الزمنيْن. قضَّى ساعاتٍ بعد مُغادَرةِ الصّيدليِّ يعصِرُ الوقتَ، وهو يحاولُ أنْ يُغْلِقَ ثُقْبَ ضَوءٍ صَغيرٍ يتسلّلُ مِنْ بينِ جفُونِهِ، ويمنعُ عنهُ النّوم. وأحاط به صَمْتٌ عميقٌ، لم يسْمَعْ خِلالَهُ إلّا صَوْتَ اللّبان في فمه. وفجأةً، خطر بباله، بعد إحدى فرقعات «المستكة»، ما يحدث في الأفلام، حيث تمرّ الحياةُ بسرعة، فحدّق في السّقف كأنّه يرى شاشةً تعلن بكلماتٍ مقتضبة عبارةَ: *«بعْدَ مُرورِ سَنة»*... فانتابته رغبةٌ شديدةٌ في معرفة حياته بعد سنة، كيف ستكون حاله دونَ السيّدة نبيلة، ودون كلّ ذلك الماضِي الّذي لا يمكنُ تجاهلُ وجُودِها فيهِ؟ كان تفكيره مجانبًا للحقيقة، فهي كلّ ماضيه. وعقابًا له على هذا الإجحاف في حقّها، أطلّت في تلك اللّحظة من شاشة السقف، بنظرتها القاسية وفمها الحادّ، لتوبّخهُ على نسيان شرفةِ المطْبَخِ مفتُوحةً، فقام مُسْرِعًا ليُغْلقَ بابَها. وهناكَ، انتبهَ إلى الجارةِ الّتي بدتْ لهُ في ثوْبٍ يُظْهِرُها أكثر اكتنازًا. كانتْ تغنِّي بصوتٍ مُستهْجَنٍ، لكنَّ ذلكَ لمْ يغيّرْ شيئًا مِمّا يحسّ به سليمان من أُنْسٍ كلّمَا دَخَلَ المطْبَخَ الّذي ازدادَتْ قِيمتُهُ عِنْدَهُ بَعْدَ وَفَاةِ زوْجَتِه. كانتِ الجارةُ تُخرجُ قِدْرًا، وتُعِيدُهُ إلى المكان نفسه. فابتسَمَ لأنّه التقطَ تلكَ الإشارةَ المكرّرةَ، وربّما قالَ في نفسِهِ أيضًا: «مِنَ السّهلِ أنْ أحبّ هذِهِ المرأة». غير أنّهُ كانَ أشدّ حكمةً مِنْ أنْ يُظْهِرَ فرحَهُ، فطبيعةُ معرفتِهِ بها تقْتضِي أنْ يطرقَ كلَّ شيءٍ في وقتِهِ، خصُوصًا أنّها بدَتْ مُبالِغَةً في الاعْتِناءِ بمظْهَرِها تلكَ اللّيْلة. ولم يخفَ على سليمان أنّ هذه الصُّدْفة مدبّرةٌ،

فقدِ اسْتَبْدَلتِ القمِيصَ القُطْنيَّ بثوْبٍ بنفْسَجِيٍّ قماشُه السميك لا يناسب حرارةَ ذلكَ الشّهر، وأرخت شَعْرها اللّامع ذا القَصّةِ المتدرّجةِ. غير أنّ سليمان لم يميّز الخطوط الرّفيعة المحيطة بفمِها، ولا تجعّدَ أجفانِها المتعبةِ، فهذا أمرٌ مستحيلٌ وهو ينظرُ مِنْ تلكَ المسافَةِ. ولكنّهُ انتبهَ إلى أنّها أصغر سنًّا ممّا تبدو، وكلّ ما في الأمر أنّها تتمتّعُ بوقارِ سيِّداتِ المجتمَعِ الرّاقِيات. أمّا هيَ فقَدْ نظرتْ نحوه وهي تلتقِطُ مسْمارًا صَغِيرًا مِنْ مَنْديلٍ مفْروشٍ أمامَها مُسبقًا، دونَ أنْ تنظُرَ إلى أيِّ اتّجاهٍ عدا وجْهِ الجارِ، ثمّ نخزتْ بهِ ظاهِرَ يدِها أكثرَ مِنْ مَرّة. حينئذٍ، ارتبكَ سُليمانُ كثيرًا، دونَ أنْ يبدُوَ ذلكَ على وجهِهِ، فهو محاطٌ بأفكارٍ جريئةٍ سعى جاهِدًا طَوالَ عمرِه إلى إماتتِها. وسُرعانَ ما سمِعَ نبْضَهُ أقْوى مِنْ وقعِ قُدور مطبخِهِ على الرُّخامِ، تلكَ الّتي أصبحَ ضجيجُها، أكثرَ ما يُزعِجُهُ منذُ وفاةِ السيّدة نبيلة. حاول أن يُفاتحها في موضوعٍ كي يَسْتبقِيَها أمامَهُ أكثرَ وقتٍ ممكنٍ، ولكنْ أيّ موضوعٍ؟ لم يكن أمامه متّسع من الوقت للتّفكير، فبادَرها بسُؤالٍ وهو يهزُّ رأسَهُ، كمن يستطعمُ شيئًا شدِيدَ الملوحةِ:

- كيفَ يمكنُ أنْ أُعِدَّ فنجانَ قهوةٍ لذيذة دونَ سُكَّرٍ يا جارة؟ أعترفُ بأنَّ الأمْرَ أصْعَبُ ممّا توقّعْت.

كانت لسليمانَ ضحكةٌ، متى أفرجَ عَنْها بدا أصْغرَ مِنْ سنِّهِ بعشْرِ سنواتٍ، لذا كرِهتْها نبيلة بشدّةٍ، وظلّتْ تُصرُّ على أنّ كثرة الضّحِك تخصّ مهرّجي السّيرك، لا الأشْخاص العادِيّين. أمّا الجارةُ، وبمجرّد أن حظيت بضحكة سليمان، اقتربت مِنَ النّافذةِ والتصَقتْ بها وهيَ

تُطلِعُهُ على سِرَّ القهْوةِ الّذي يكمُنُ في كثرةِ تقليبِها، قبْلَ وضْعِها على النّار. وبينما كان يُراقِبُ كفَّها تُدِيرُ على مهلٍ مِلعقةً وهمِيّةً، تخلّلَ صَمْتَهُ عُبورٌ خَفيفٌ لقطّةٍ هبطتْ إلى الأسْفَلِ عبر مواسِيرِ الزّقاقِ، فأعارتْها الجارة كلَّ اهتمامِها حتّى وصلتْ إلى القاعِ آمِنةً، ثمّ رفعَتْ رأسَها إلى سُليمانَ، بينما بقِيَتْ بعضُ خصَلاتِ شعْرِها مجذوبةً نحوَ الأسْفل. عندئذٍ، ابتسمتْ فاعتبر ابتِسامَتَها جائزةً:

– هل تقذفُ لي بمفكٍّ صغيرٍ لأعيدَ مسمارًا سقطَ مِنْ ذراعِ نظّارتي؟

بسَطتْ كفَّها الأيسرَ والمسْمارُ يتوسَّطُ راحَتَها، وحالما أنهتْ سؤالَها اسْتدارَ مُحرجًا ممّا تبادرَ إلى ذِهْنِهِ حين ظنّها تخدشُ كفَّها بالمسْمارِ، ثمّ خرجَ مِنْ مطبخِهِ مسرِعًا وهو يشيرُ إليْها بأنْ تنتَظِرَ، مُكمِلًا كلامَهُ مِنْ الدّاخلِ عن أحفادِهِ البارعينَ في إخراجِ كلِّ شيءٍ مِنْ مكانِهِ، ولولا ضآلةُ أجسادِهم لما تردّدوا حتّى في انتزاعِ الأبوابِ مِنْ أماكِنِها. سرد أحداثًا كثيرة عَنْ شقاوتِهم، لكنّها لم تسمَعْ إلّا بعْضَ الضّجيجِ قادمًا من جِهتِهِ، أمّا كلامُهُ، فكان أبْعَدَ مِنْ أنْ يُفْهَم. بعْدَ بُرهَةٍ، عاد إلى المطبخِ، وقذفَ بالمفكِّ مباشرةً، دونَ أنْ يأخُذَ وضْعَ الاستعدادِ، أو ينبّهَها لتتلقّفَه. فارتبكتْ حينَ أصابَ رأسُهُ المدبّبُ ما بيْنَ نهدَيْها، ومالتْ إلى الأرضِ تلتقِطُهُ وهي تضرب على صدْرَها ضرباتٍ خفيفةً وسريعةً تعبيرًا عن الفزع. ماذا لو أنّه أصابَ إحْدى عَينيْها؟ انحصر ذهنها في هذا الإمكان. أمّا هو فقد تأسّفَ كثيرًا، حتّى قبلَ أنْ تُقيم ظهْرَها ويعودَ وجهُها إليه... تأسّف وهو

يمسِكُ برأسِهِ، ثمّ بصَدْرِهِ، ثمّ ضمّ ذراعيْهِ متقاطعتيْن وكأنّه يمسك بنفسه لئلّا يقع:

- كم أنا غبيٌّ! كان عليّ أن أنبِّهكِ، آسف، فأنا أتخيّل كلّ شيءٍ أقذفُه كرةَ قدمٍ لا تُؤذي...

شكرتْهُ بابتسامةٍ حذرةٍ، وهي تقولُ:

- عليّ أنْ أشْكرَ أيضًا حلوى النّعناعِ الّتي قذفْتَ بها إليّ في المرّةِ الماضيةِ، فلولا أنّها مرّنتْنا قليلًا على رَمْيةٍ كهذِهِ، لأصَابتْ هذه ربّما...

أشارتْ إلى عينِها ضاحِكةً، ولمْ تُكمِلْ جُملتَها، لأنّهُ سرعان ما انْتقَى من سَلّةِ حلويّاتِ الأحفادِ حلوًى مغلّفةً بلونٍ برتقاليٍّ، وقذفَها نحو جارتِهِ الجميلةِ دونَ سابقِ إنذارٍ، فارتطمتْ هذه المرّةَ بعُنُقِها، ثمّ سَقَطتْ في فتْحَةِ ثَوْبِها العُلويّة. ضحِكتْ، وهي تُخرِجُ الحلْوى مِنْ هُناكَ وتضَعُها في فمِها، ثمّ انْحنَتْ تُصْلِحُ ذِراعَ نظّارتِها. وحينَ بادَرها بسُؤالٍ أعدّه على عَجَلٍ وهو يفتِّشُ عَنِ المفَكِّ ليُطيلَ بقاءَها معهُ، كانتِ الحلْوى تنْتقِلُ في فمِها مِنْ جِهَةٍ إلى أخرى:

- أعرفُ كلَّ الجاراتِ اللّاتي تواصَلتْ معهُنّ زوجَتِي نبيلة، وكنتُ أعجز عن إسْكاتها حينَ تبدأُ في الكلامِ عنهُنّ. لكن... لا أذكرُ أنّها تكلّمتْ يومًا عنِ الجارةِ الّتي تسكنُ الشّقّةَ المقابلة، ولا عنْ مطبخِها المواجه لمطبخِنا!

ثمّ أضافَ كلامًا عميقًا بصَوْتٍ رخِيمٍ كمَنْ يوشِكُ على الموتِ:

- ...الجارة الّتي تتركُ شُرفَةَ مطْبَخِها مفْتُوحةً معظمَ الوقْتِ، وتحاولُ أنْ تتقرّبَ مِنْ جيرانِها بطرافَتِها!

جاءت النّتيجة مُعاكِسةً تمامًا لما خطّط له بارتجال. فقد كان وقْعُ السُّؤالِ عليْها مُربِكًا، وكأنّهُ سقَطَ على رأْسِها مِنْ خِزانَةٍ عالِيَةٍ، لا لأنّه مُحرِجٌ، بلْ لخلوّه مِن كلّ معْنى، ما أكّدَ لها حماقةَ هذا الرّجُلِ الّذي كادَ يُصِيب عينَها مرّتينِ منذ قليل.

حينَ تفطّنَ لانْزِعاجَها، حاولَ أنْ يتداركَ الوضْعَ، وقد ثبتَ لديْهِ أنّ خطط الطيّبينَ تَفْسُدُ أسْرعَ مِنْ خطط الخبيثين. فهمّ بأنْ يقُول لها: «أنتِ جميلةٌ ووجودُكِ بالقُربِ أجمَلُ». كما أرادَ أنْ يسألها: «هل لكِ حبيبٌ أو زوجٌ؟ فمثلُكِ تخرجُ مِنْ رحمِ أمِّها ومعَها حبيبُها»، لكنّهُ اكتفى، في مُحاولةٍ للتّخفِيفِ مِنِ انزِعاجِها الّذي لمْ يسبقْ لهُ أنْ رأى أرقَّ مِنْهُ، بقولِهِ:

- سأبدأُ بإعدادِ القهْوةِ فورًا، تحتَ إشرافِ جارَتي ومعلمّتِي.

تذكّرَ، في تلك اللّحظةِ، أنْ يسْألَها عنِ اسْمِها، لكنّهُ خشِيَ زيادةَ توتّرِها. فأخْرجَ شيئًا مِنْ حَوْضِ مطبخِهِ، وغسلَهُ، بينما اكتفتْ برفْعِ كتِفَيْها، ثمّ انْسَحَبتْ مِنْ مَطبخِها كأنّها ضوءٌ وتلاشَى. تذكّر أنّه لا يعْرِفُ الكثيرَ عنِ النِّساءِ، وأنّ جهله بطباعهنّ وعجزه عن فهمنّ لم يُمثّلا عندَه أيّ نَقص. لكنْ، منذُ ظهرتْ لهُ هذِه الجارة، تغيّر الأمر. فتدرّبَ إلى حين عوْدتِها على هذه الجملة: «آسفٌ على وقاحةِ السّؤالِ الّذي صدرَ عنّي قبل قليلٍ». ثمّ جعلَها في أثناءَ غليانِ القهوةِ: «آسفٌ على وقاحةِ السّؤالِ الّذي صدرَ عنّي قبْلَ ساعةٍ»، أمّا وهو

يشرب القَهْوةَ، وعَيْناهُ مُعلّقتانِ بنافِذَتِها، فقد رأى أنّ الأصَحّ هو: «آسفٌ على وقاحةِ السّؤالِ الّذي صَدَرَ عنّي قبْلَ ساعَتيْنِ». كما بدّل كلمةَ: وقاحةٍ في اعتذارِهِ بكلماتٍ أخْرى أشدّ قَسْوَةً، وحضّرَ قهْوةً ثانيةً، ليبرّرَ بقاءَهُ في المطبَخِ، حِينَ تعُود. وبينما كان يُعدّ كوبَ القهْوةِ الثّاني، حكّ قفاه بيدِهِ اليُسْرى، وكأنّ شيئًا مّا قرصه من ذلك الموضع للتّوّ. وقبلَ أنْ يختفيَ اللّيلُ، تخيّلَ كلِمَةً واحِدَةً وهي تتعاود مِئاتَ المرّاتِ كسلسلةِ نملٍ: «آسف، آسف، آسف...»، حتّى تصير جسرًا يمتدّ بين البنايتيْن، فيعبره سُؤالٌ مشوبٌ بالقلقِ: «هلْ سَنلْتَقِي مَرّةً ثانيةً؟»، وربّما يلتحق به سؤالٌ آخر: «ما اسمكِ؟» لكنْ لا أحد في الضفّة الأخرى.

***

كان لقاءً خاطفًا ومشوّشًا، كمعطفٍ مفتوح تعصِفُ بطَرَفيْهِ الرّيح... فيلتقيان ولا يلْتَقِيان. انحنت لتقبِّلَ جبينَ والدِها الّذي سيُحْمَلُ بعد حين على الأعْناقِ لِيُدفَن. كانت حاملًا في شهرها التّاسع. رفّت بطْنُها المكوّرةُ حين لاصقت يدَ والدِها الملفوفةَ مع كامل الجسد البارد في قماش أبيض. حَركةٌ طفِيفَةٌ لا تكاد تُلحظ، رغم ذلك كان من العبث تفْويتُها. يدٌ أو قدَمٌ تعزلُها طبقاتٌ مِنَ القماش والجِلْدِ والظّلمة، تمكّنت من مَسِّ الميّت الممدّد، وكأنّها تُودِّعُه هي أيضًا. هكذا، على حافةِ ذلكَ السّريرِ، عند أقْربِ نُقْطةِ الْتِقاءٍ بيْنَ عَالمينِ مُتناقِضَينِ، تماسَّ الجنينُ والجَدُّ بضْعَ ثوانٍ، ثمّ تباعَدا... يدُ الجنين القادِمة مِنْ أغزرِ عتَمةٍ في الكوْنِ عادت إلى

سُباتِها، بعْدَ أنِ امتدّتْ نحْوَ حياةٍ لم يحِنْ أوانُ الخروجِ إليْها بعدُ، ورحلتْ يد الجدّ عَنْ حياةٍ ظنّها لنْ تكتمِلَ مِنْ بعْدِه، فهو اللّواء المتقاعدُ وأحد أعيانِ حيّ بَدّار، أو هكذا كان، لا يبخل على أحد ولا يتأخّر عن واجب. منذ أيّام فحسب، شارك سليمانَ وأبناءَه عزاء نبيلة، متكفّلًا بما يلزم من قهوة وماء، راجيًا من الله الثّواب ومن الجيران الاحتفاء بجوده ليرسِّخَ مكانتُهُ في الحيّ... لكنّ حِكمَةَ الرّبِّ لافِتةٌ كما ترى. وليْسَ هذا الجدُّ ذو الرّتبةِ العسْكريّةِ الرّفيعةِ وصاحِبُ الهيئةِ المَهيبةِ، وحدَهُ مَنْ يظنّ أنّ الحياة ستكون منقوصةً دونه، فكلُّكم تعزّون أنفسكم بذلك، حتّى تلك السيّدة التي زرتُها بعد أن غادرتُ بيت اللّواء. توجّهتُ مباشرةً إلى العمارةِ الرّابعةِ والعشرينَ في حيٍّ مجاوُر، حيثُ تقيمُ امرأةٌ مسكونةٌ بأفكارٍ عظيمةٍ تُعبّر عنها بحركاتٍ خرقاء. كانتْ يومًا مّا طالِبةً من طالباتِ السّيدةِ نبيلة. كلّ من يعرفها وإن من بعيد، يعرف جملتها الشهيرة التي تكرّرها دائمًا: الزّمن يمضي مُسْرعًا... والوقتُ المهدورُ لا يلتفِتُ إلى أحد! كانت تركضُ خلْفَ شيءٍ تُسمّيهِ طمُوحًا، بينما أرى بوضُوحٍ، مِنْ مَوقِعي هذا، أنّهُ يدندن بألحانٍ متقطّعةٍ، وهو يقِفُ أبْعَدَ ما يكونُ عنْ نُقطةِ وصُولِها. هذا اليومَ، استقبلتِ الحياةَ منذُ السّاعةِ الخامسةِ فجرًا. وعلى غيرِ عادتِها، أيقظتْ أطفالَها للذّهابِ إلى المدْرسَةِ، قبْلَ مَوْعِدِ استيقاظِهم المعهُود. ثمّ سرّحَتْ شعْرَها، ووضَعتْ أقراطَها وهي تمضغ فطورَها. انطلق طفلاها في الثّرثرة كعادتهما. كانا يحدّثانها عن مدرستهما وأصْدقائِهما، وهي تجيب

بكلماتٍ مثلَ: جميل، مدهش... حتّى إنّهما صارا يخمّنان ردودَها الفارغةَ، ويتراهنانِ على ذلك. كانت عيناها تعكسان انزعاجَها مِنْ كلِّ شيء، بدءًا برأسِها حتّى كعْبِ حذائِها، ليفيض شعورُها ذاك على كلّ ما حولها. وصلتْ إلى عملِها مرتعبةً من يومٍ قصيرٍ وجهدٍ كثير، متجاهلةً التّحيّةَ الصّباحيّةَ الّتي ألقتْها عليْها موظّفةُ الاستقبالِ الجالسةُ طَوالَ اليومِ، خلْفَ مكتبٍ نصْفِ دائِريّ. ثمّ انغرسَتْ في كرسِيٍّ دَوّارٍ، وظلّتْ تُجري مكالماتٍ عِدّةً تَستعْجِلُ فيها ملفًّا أو ردًّا، أو تطّلع على بعْض الأوراق قبل توقيعها. اتّصلتْ، وهي ترتشفُ قهوتَها الباردةَ، بخادمتِها، تحثّها هي الأخرى على الإسراعِ في إعداد الغداء. وفي وقتٍ لاحِقٍ مِنَ النّهارِ، فكّرتْ بضْعَ ثوانٍ فقطْ في طلبِ إجازةٍ، لكنّها تذكّرتْ أنّ الحوافزَ الماليّةَ، والمناصِبَ المرموقة، لا يحصلُ عليها طالبو الرّاحة. لقد أهْدرتْ وقتًا كثيرًا، أكاد أنا نفسي آسَفُ له، رُغمَ كلِّ ما حقّقَتْه. وما الذي حقّقَتْهُ؟ العمل! ثمّ ماذا؟ مزيدًا من العمل... ترسلُ ملفًّا، تديرُ اجتماعًا، ترفعُ طلبيّةً، تجيبُ على رسالةٍ، تشكّكُ في إجازةٍ مرضيّةٍ... وفي نهاية المطاف تستقبِلُني أنا، فأنا الأخيرُ دائِمًا... تحسّستْ جِهتَها اليُسرى، كمن يبحث عن قلم في جيب معطفه الدّاخلي، وكذّبتِ الوخزَ الّذي تشعُرُ بهِ، ثمّ حاولتْ إذابةَ الألمِ بالتّجاهُلِ، فوقفتْ توهِمُ نفسَها بأنّها تفعلُ ذلكَ لتَضْبُطَ تنُّورتَها، لكنّها ترنّحتْ قليلًا بفِعْلِ الحرارةِ الصّاعدة إلى عُنُقِها، وأخطأتْ مكانَ جلوسِها فسقطتْ وعيناها إلى السّقفِ. حينئذٍ، رأتْني، فانقلبَتْ على وجْهِها فزِعَةً، لتهربَ منّي إلى أوهامٍ

يتخيّلُها كلُّ النّاسِ، ظانّةً أنّها سترى نفقًا مُظلمًا، أو صُورَ طفُولتِها أو زوجَها وأطفالَها، لكنّها تجْحَظُ فحسب، والألم يمزّقها. لا وقتَ أمامَها في لحظةٍ مُرعِبةٍ كهذهِ، لرؤيةِ الأنفاقِ، والصُّورِ، وذكرياتِ الحياةِ الّتي تمرُّ كشريطٍ سينمائيٍّ مُسْرعٍ. ظلّتْ تُراقِبُ أعضاءها وأشياءها وهي تسْتقِلُّ عَنْها في سُكونٍ تامٍّ: قدمٌ ترجُفُ حتّى تسقُطَ على كعبها ثمّ تهمَد، لونها يشحب تدريجيًّا، والبرد يتسلّق جسدها، بيْنَما عَيْناها تنظُرانِ نحوي في هلع، وأنا أحلّقُ بيْنَ مَكتبِها وسَقْفِ الغُرفةِ. وبنظرةٍ أخيرةٍ أرادتْ أن تُبرْهِنَ لي أنّها تسْتحِقُّ فرصَةً ثانِيَةً، وأنّها إن تُركتْ حيّةً ستتغيَّر، وتملأُ الفراغاتِ الكثيرةَ الّتي تركتْها خلْفَها. وبحسِّ الأنوثةِ الغاويةِ، باعدتْ بيْنَ فخِذَيْها... يا للتّنافرِ بينَ ما تفكّرُ فيهِ، وما أنوي فِعْلَه! كانت هذه الفكرةُ رشْوةً رخِيصَةً بيْنَ البشرِ، فكيْفَ والحالُ معِي أنا بالذّات!؟ أمْسَكتْ عُنُقَها بكفّيْها، وهي تُلاحِقُني بنظراتِ عَينَيْها مُتَوسِّلةً. كانت تلك المرّةَ الأولى الّتي يرفُّ فيها جفنُها مُذْ رأتْنِي، وتنطقُ في أثنائِها بكلماتٍ لا حُروفَ لها... كان يكفيها أن تسْتَسْلِمَ حينَ رأتْني، لكنّها قاومَتْ حتّى أسْقَطتْ معظمَ أوراقِ مَكتبِها على الأرْض. وسُرعانَ ما تدَفّقَتْ روحُها دافِئَةً خارِجَ جسَدِها، وتفَشّتْ كالحِبْرِ، فوقَ السّجّادِ الّذي تتمدّدُ عَليْه. فعلًا، من الصّعبِ إقناعُ إنسانٍ طَمُوحٍ بأنّ مَشْروعَهُ لنْ يَكْتَمِل.

لم يكنْ موتًا، بلْ خلاصًا...

وقتُ الوفاةِ: (14:55)

***

ظلّتْ نافِذةُ الجارةِ مُغلقَةً طَوالَ ثلاثَةِ أيّامٍ، وبالتّحديدِ، منذُ بادَرها سُليمانُ بسُؤالِهِ الأحْمَق. لقدِ انْتَظَرها تلكَ اللّيلةَ حتّى الفجْرِ، وحينَ عادَ إلى شُرفةِ المطبخِ، بعْدَ أنْ غادَرها بعْضَ الوقْتِ، وجدَها قدْ أغلقَتْ نافِذَتَها. فباتَ يتساءَلُ، إلى أن غرِقَ في النّومِ، ما إذا كانت قدْ رأتْهُ ينتظِرُها، وتجاهَلتْهُ مُتعمِّدَةً؟ في اليومِ الثّالثِ، سمِعَ سُليمان أغنيةً أيقظتْهُ: «صغيرة كنت وانت صغيْرون/ حبّنا بدا بنظرات العيون/ قالوا ترى ذوله يحبّون». عندئذٍ، أزالَ الغِطاءَ عَنْ رأسِهِ، ولم يستغرقْهُ القفزُ مِنْ سَريرِهِ سِوى ثوانٍ انبرى في إثْرِها مُسْتعِدًّا للدِّفاعِ عنْ نفسِهِ، وهو يقفُ أمامَ شُرفَةِ مطْبَخِه. كان هناك بالفعل، بعد أن توهّمَ أنَّ الأغنيةَ آتيةٌ مِنْ تلكَ الجِهَةِ، لكنّ أذنه قدّرت أخيرًا أنّ مصدر الأغنية قريب جدًّا، أقرب مِنْ نافِذةِ الجارَة. وحينَ اسْتدارَ منسحبًا من الشّرفة، انْتبَهَ إلى أنّهُ تجاهَلَ شَخْصًا بجبينٍ مُتغضِّنٍ، وازرقاقٍ طفيفٍ تحْتَ عيْنيهِ، يجْلِسُ في صَالتِه. هَرعَ سُليمانُ مَرّةً ثانِيةً داخلًا إلى المطْبَخِ، والأغنية ما تزالُ مُنسابَةً مِنْ هاتِفِ ذلك الشّخص. وفي تلكَ اللّحظةِ، اقْتربَ مِنْهُ ابنهُ الأصغرُ قصي وهو يقولُ بصَوتِهِ الهامِسِ المتناسبِ معَ شفتيْهِ الدقيقتيْن، وفمِهِ الصّغيرِ غيرِ المنسَجمِ معَ ضَخامَةِ جسَدِهِ:

– ما الأمرُ يا والدي، ما الّذي أفزعكَ هناك؟

أشارَ إلى جِهةِ المطبَخِ، ثمّ عانقَ والدَهُ، وعيناهُ تفتّشانِ في الجدرانِ والخزائنِ عمّا أخافَهُ، فسَحبَ سُليمانُ نفسَهُ مُعتذرًا، ومُتعلّلًا بعدمِ غسْلِ وجْهِهِ بَعْد. غير أنّ قصي ظلَّ يتحدّثُ مِنْ خلْفِ بابِ الحمّامِ،

ويشرحُ لوالدِه أنّهُ لم يشأ إيقاظَهُ، لذلك ظلَّ جالسًا في الصّالةِ يتصَفّحُ هاتِفَهُ، ولمْ يكنْ يعْرفُ أنّ صَوْتَ الأغنية عالٍ إلى هذه الدّرجة، أيْ إلى درجة اقتحامه غرفةَ النّومِ، وإيقاظ أبيه. «هذا هو قصي... لا يزالُ طفلًا يُكثِرُ مِنَ التّبريرِ والتّفسِير». هذا ما قالهُ سُليمانُ، وهو يحدّقُ في مرآةِ الحمّامِ، ويفرِّشُ أسْنانَهُ بإصبعِهِ، بينما تناهتْ إلى سمعهِ حركةُ ابنِهِ في المطبخِ وهو يفتِّشُ عَنْ أمرٍ مّا. وكمنْ تذكّرَ سِرًّا مدفونًا هُناك، خرجَ مُسْرِعًا، قبْلَ أنْ يزيل بقايا المعجُونِ حَوْلَ فمِه. وزّع بصَرهُ بيْنَ نافذَةِ الجارَة وبينَ حَركةِ ولدِهِ الطّائِشةِ وهو يبْحَثُ بحماسَةٍ عَنِ البنِّ والسّكّرِ والأكوابِ. وعند إحدى الالتفاتات، لمح سليمان ابنه وهو يسحب بلطفٍ مُبالَغٍ فيه كوبًا أزْرَقَ عليه نقوش صينيّة. كانت لقصي عَيْنَا والدِهِ تمامًا، عَيْنَانِ تغوصانِ عَمِيقًا عندما يضحك، مثلما تغُوصانِ عمِيقًا عند البُكاء. لذلكَ سرعانَ ما أدركَ سُليمان ما خلّفه الكوبُ من أسًى في نفس ولده. في الحقيقةِ، كان تأثّر قصي بفنجانِ أمِّهِ بمثابةِ البَرْقِ، وعلى سُليمانَ أنْ يُرعدَ إثره مُباشَرةً، لكنّ بالَهُ كان مَشْغولًا بالجارةِ، فتأخّرَ الرّعْدُ على نحو مَلحُوظ. إذْ كيف يُمكِنُكَ أنْ تُواسِيَ حزينًا دُونَ أنْ تقُولَ لهُ شيْئًا مّا لمْ تَره عيناه، كي يدرك أنّ حالكَ أسوأُ مِنْ حالِهِ؟ لكنّ سُليمانَ لم يكن مُسْتعِدًّا لهذا. فكّرَ في أنْ يحضُنَ ولدَهُ ليُخْفِيَ وجْهَهُ، فتتسَنّى لهُ مُراقبَةُ نافِذةِ الجارةِ مِنْ فوْقِ كتِفِه. غير أنّهُ حوّلَ اهْتِمامَهُ صَوْبَ منشورٍ إعلانيٍّ لنوعٍ جديدٍ مِنَ الوساداتِ، كان قصي حينما وصَلَ صَباحًا قد وجدَهُ مُلقًى أمامَ بابِ البيت، فحمله إلى طاولةِ المطبخِ، بعد أن قلّبهُ بيْنَ أصابِعِهِ قليلًا، وهو يضْحكُ ساخرًا:

- يقولون إنّ جرّاحي العظامِ ينصحُونَ بهذا النّوعِ مِنَ الوساداتِ لسلامةِ الظّهرِ والرّقبَة... كم أودُّ منْ بابِ التّغيير أنْ أقابلَ طبيبًا يصفُ دواءً نافعًا أوّلًا، ثُمَ فليصِفْ لنا القُطْنَ أو الرّيشَ الملائمَ للأعْناق.

عندما اطّلع سليمان على الإعلان، كان ينتظر من أبيه تعليقًا مشابهًا، فهو مثله يرى أنّ السخرية أفضل طريقة للتغلّب على متاعب الحياة. لكنْ، بعد أن خيّب الأب انتظارات ابنه، صار قصي أكثرَ فُضولًا لمعرفةِ ما يحدث لسليمان. فغابَ لحظاتٍ أجرى فيها اتّصالًا هاتفيًّا سريعًا بزوجتِهِ أسماء، ثمّ خرج مِنْ غرفتِهِ القديمةِ، وتوجّه إلى المطبخِ ليُخبرَ والدَهُ بأنّه سيبيت عِنْدَه اللّيلة. قال له ذلك وهو يبتسم، فأخذَتِ العينانِ وضْعِيّةَ الاخْتِباءِ بيْنَ الرُّموشِ، وبدا طفْلًا في العاشِرةِ مِنْ عمره. ورغم أنّ البشر قدْ طَوّروا على مرِّ العصُورِ طرائقَ كثيرةً للمجاملة، يبدو أنْ لا واحدة منها وصَلتْ إلى سُليمانَ، لذلكَ اكتفَى بالنظر طويلًا إلى قصي، وهو يهزُّ رأسَهُ، بمعنى «عُلم»، ويبدُو أنّ قصي لمْ يتوقّعْ أكثرَ من ذلك.

***

بقيتِ النّافِذةُ مُغلقَةً حتّى صَباحِ اليومِ الثّالثِ. كان سُليمان قدِ استنفد كلَّ اللُّبانِ المتوفّرِ في شقّتِه. فتوجّه إلى بقالةِ «المسرّاتِ» ليتزوّدَ بما يكفي منهُ، وليشتريَ أيضًا فرشاةَ أسنانٍ عوضًا عنْ تلكَ الّتي تخلّصَ منْها، ظنًّا منهُ أنّها تخصُّ زوجتَهُ. في طريق عودته خطر ببالِهِ الصّيدليُّ آدم. ودون تردُّدٍ، هاتفَهُ على الرّقمِ الّذي قدّمَهُ

لهُ حينَ دخلَ بيتَهُ أوّلَ مرّةٍ، واعتذر لهُ عَنْ فَجاجَتِه، وسوءِ الفهْمِ الّذي حدثَ في اللّقاءِ السّابقِ، مُحاولًا تبريرَ انفعالِهِ بضغوطِ الحياةِ ووفاةِ زوجتِهِ، وربّما بضغطٍ من جسدِهِ أيضًا، وتمنّى أنْ يُساعِدَهُ في تشْخيصِ علّتِه. وصَلَ الصّيدليُّ إلى بيت سليمان مُتبخْتِرًا بحقِيبتِهِ، كان قصي لا يزالُ نائِمًا... قاس آدم لهُ كلَّ ما يمكنُ أنْ يُقاسَ، دونَ أنْ يُخفِّفَ منْ لهجةِ العارفِ بكلِّ الأمراضِ ومسبّباتِها، وفي أثناءِ ذلكَ، همسَ لهُ سُليمان:

- أنا بحاجةٍ إلى خِدمةٍ صغيرةٍ، أو سمِّها معروفًا يا بنيّ.

هذّبَ سُليمان صُعودَ النّارِ الثّاويةِ في جوفِهِ، بتقمُّصِ دَوْرِ الأُبّوّةِ هذا، فكان لهيبها يصِلُ إلى الأعْلى في هيئةِ كلماتٍ عاديّةٍ لا تثيرُ الرّيبة. ضمَّ كفّيهِ كثمرتيْنِ ناضِجتيْنِ أمامَ وجهِ آدم، وهو يشرحُ لهُ بهدوءٍ، حتّى لا يسمعَهُ قصي إن استيقظ:

- أنتَ تعرفُ طبعًا أنّهُ لا فرقَ في المرضِ بينَ أنْ يكونَ المريضُ رجلًا أو امرأةً يا بنيّ.

وكان مرتبكًا وهو يخفضُ صوتَهُ إلى درجةِ الهمْسِ، مُضِيفًا:

- جارتي لمْ تفتحْ نافِذتَها مُنْذُ ثلاثةِ أيّام، وهذا ليْسَ أمْرًا مُعتادًا في حالتِها. صدِّقني!... إنّها بمثابةِ أختٍ لي ولزوجتِي رحمَها الله. أرجُو ألّا تسيءَ فهْمِي، ولكنّني قلقٌ جدًّا عليْها، فهي تعِيشُ وحِيدَةً مِثْلي.

سكتَ قليلًا، ثمّ أضافَ:

- لستُ واثقًا تمامًا مِنْ وحْدتِها...

تساقطَ بعضُ دهانِ سَقْفِ بيتِهِ تزامُنًا مع تسلُّلِ سِرِّهِ إلى فهْمِ آدم، دُونَ أنْ ينتبِهَ سُليمان إلى اللُّغْمِ الّذي خطا عَليْهِ للتّوِّ ولمْ ينْفَجِرْ في وجْهِهِ بَعْد. عرض على الصّيدليِّ خطّتَهُ البسيطةَ: «تصعد إلى شقّةِ الجارةِ، تضْغطُ على جرسِ الباب... أنتَ مبعوث من وزارةِ الصّحّةِ ضِمْنَ حملاتِ التّطعيمِ المجّانيّةِ، لا شكّ في أنّك تملكُ الحقيبةَ المناسبةَ لهذا الدَّورِ، يُسمح لكَ بالدخول، تدخل، تمسح ببصرك ما أمكن من البيت، تعتذر، تستأذن، تخرج، وتأتيني بتقرير مفصّل عمّا يدورُ داخل تلكَ الشّقّةِ: منْ فتح الباب؟ ما الّذي يُعرضُ على التلفاز؟ هل تضوعُ في البيتِ رائحةُ طبيخ؟ هل شعرت بوجود أحدهم دون أن تراه؟ *وهكذا أقدِّرَ بنفسي الوضْعَ*».

لا أحد سواي سمع الجملة الأخيرة، فقد قالها سليمان في سرّه.

ثمّ أخْرجَ مِحفظتَهُ مِنْ جيْبِهِ وهو يقولُ:

- يمكِنُكَ تغييرُ الخطّةِ إذا اقتضى الأمرُ... فلا قواعد ثابتة هنا يا بُنيّ.

لم يكن سُليمانُ مولعًا بدور الأبُوّةِ في كلّ مراحل حياته، لكنّهُ الآن يصرّ على لعب هذا الدّور، ليطْرُدَ الأفْكارَ السّيّئةَ الّتي قدْ تخطُرُ ببالِ الصّيدليّ. وجاءَ ردُّ آدم بصوتٍ مكتومٍ وحاسم:

- لا... لنْ تُرسِلني إلى أيِّ مكانٍ يا والِدي!

كانَ يمكنُ لِسُليمان، وهو يُعِيدُ مِحفَظتَهُ إلى مَخبئِها، أنْ يلتقِطَ غيْرةَ آدم بكلِّ وُضُوحٍ، لكنّهُ كان مُشتّتًا بيْنَ قصي الّذي ينامُ في الدّاخلِ،

وبين شُرفةِ المطبخِ، ونافِذةِ الجارةِ، وكرامتِهِ الّتي أصبَحَ لها صَوْتٌ يُشبِهُ صَوْتَ نزعِ الورقِ مِنْ دَفْتَر. وقبل أن يُقدم سليمان على محاولةِ إقناعِ يائسةٍ، بادر آدم بوضع مسطرة خشبيّة في فم ابن حمدة متعلّلًا بضرورة استكمال الفحوصات بأسرع ما يمكن، فالوقت قد تأخّر وعليه أن يغادر. ولا يخفى على أحَدٍ أنّ ما فعله آدم أمرٌ سليمٌ طبّيًّا، بل ضروريّ، وأنّ كلّ ما كان يعنيه هو إسكات ذلك الرّجل الخرف، مهما كانت الوسيلة، حتّى إنّه بالغ في إدخال المسطرة الخشبيّة فكاد سليمان يُخرج ما في جوفه. غير أنّ الصيدليّ لم يشفِ غليله بعدُ، فانتقلَ إلى العينِ مسلّطًا عليْها ضوءًا أسالَ دَمْعَها وأفْزَعَ بؤبُؤَها، ثمّ ثبّت سبّابته قريبةً من أنف سليمان وطلبَ منهُ أنْ يتبعها بعينيْه، وراح يحرّك إصبعه في كلّ الاتّجاهات، أسرع فأسرع، إلى أن تحوّلت عيناه الغائرتان إلى كرتيْن تتقافزان هنا وهناك. وفي الأخير، قرّب آدم إصبعه من وجه سليمان حتّى لامست أنفه فاحولّت عيناه. كتم الصيدليّ ضحكته ومرّ مباشرةً إلى السّاقين يجسّهما بأصابعه. وبمجرّد أن لمس إحداهما تحرّكت بتردّد وكأنّها تهمّ بالانسحاب فأحكم آدم قبضته عليها. كان التقزّز باديًا على سُليمان، لكنّ الصيدليّ واصل انتقامَهُ دون اكتراثٍ، فطلبَ منهُ أنْ يتبوّلَ ويتبرّزَ في عُلبتَيْنِ، ليسلّمَهما إلى صديقِهِ في مَخبرِ مستوصفِ الحيِّ، حيث سيتمّ تحليلهما. كنتُ مثلكم، أنتظر ردّة فعل سليمان، لكن ليس بدافع الفضول وإنّما لسببٍ آخر من الأفضل لكم ألّا تعرفوه. وأخيرًا نطق ابن حمدة، بنبرةٍ محَتْ كُلَّ ما حدث للتوّ:

- أيّ نوع من العُلبِ صالح لهذه المهمّة؟

فأجاب آدم بخيبة أمل كادت تخنق صوته:

- أيُّ عُلبٍ... أيّ عُلبٍ مِنْ مطبخِ زوجتِكَ الرّاحلةِ سَتفِي بالغَرض.

حين استدار سليمان متّجهًا إلى المطبخِ، ليُرِيَهُ ما لديهِ مِنْ عُلَبٍ، تسَنّى لآدمَ النّظرُ إلى تلكَ الشّرفةِ بتشفٍّ...

***

«هيه... أنتِ... أيّتُها السّيّدة الجميلةُ، إنّ الوقْتَ غيرُ مناسِبٍ للعواطفِ الأموميّةِ الآن، لا أستطيعُ أنْ أحْضُنَكِ وأقنِعَ الجميعَ بأنّكِ أمّي! ولعِلْمِكِ، أنتِ تُضيِّعينَ عليّ فُرصَ التّعَرُّفِ إلى الفَتيَاتِ الجميلاتِ هنا»، قال ذلكَ مرسلًا إليها غمزةً يشير بها إلى جِهَةِ الحافِلةِ اليُسْرى، حيْثُ تجلِسُ إحداهُنَّ ضَجِرةً بجِوارِ أمِّها، وهي تسْترقُ النّظراتِ، وتُدَنْدِنُ بشَفَتيْها كلماتِ أُغنِيةٍ مُحَبّأةٍ في سمّاعةِ أذنيْها.

كانت رحلةً داخليّةً، فأنس متّجهٌ مع أمّه إلى أخته ريما في العاصمة بعد أن وصلها خبرُ إجهاضها. طبعًا، أنا من قبَضَ روح الجنين، لكنّكم لا تعتبرونه موتًا، لأنّكم ببساطةٍ ترون الموت نقيض الحياة، وهذا الجنين لم يأت إلى الحياة. علتْ ضحكةٌ من كُرسِيٍّ أمام أمِّ أنس، فشنّفت أُذنيْها وحاولت أن ترى وجهَ صاحبةِ الضّحكة، ليس من باب الفضول، فهي من أولئك اللّاتي لم يعد يعنيهنّ شيء. غير أنّ تلك الضحكة ذكّرَتْها بالفتية الّذين تقاربُ أعمارُهم عُمْرَها،

والمرشّحينَ للزّواجِ بها. كانت أمّها تُحصيهم مطلقةً ضحكة شبيهةً بهذه الضحكة التي سمعتها للتوّ. ولم يكن فاضل ابن عائلة الصّاهد ضمن قائمة الأزواج المحتملين، ربّما لأنّ أمّها، مغنّيةَ الأعراسِ، قد رُفضت فيما مضى من قِبَلِ هذه العائلة الرّفيعة التي لم يحضر أغلب أفرادها حفلَ زواج ابنهم بتلك المغنّية... على كلّ حال، لمْ تستمتع المغنّية طويلًا بحياة الرّفاه، فقدْ غابَ زوجُها تاركًا في رحِمِها بَذْرةً تنْتَمِي إلى عائِلةِ «الصّاهد».

وهكذا صارت البذرةُ شجرةً وأثمرَتْ، وهي الآن تتنازعها المشاعر، فظاهرها يبدو عليه الأسى لأنّ ابنتها أجهضت، لكنّ شيئًا مّا، في أقصى أعماق روحها كما تقولون، يدعوها إلى أن تسعد بهذا الخبر، فهي ليست مستعدّةً لدور الجدّة، ولم تعِشْ بعدُ ما يستحقّ أن يُروى على لسان الجدّات، فمنذ تلقّت خبر حمل ابنتها وهي تشعر بأنّها تُفارق الحياة كسمكةٍ ذهبيةٍ تتلوّى فوق سجّادة. فقد قضّت حياتها وهي تعتني بفاضل المتواكل، فاضل الذي عاش والداه مُرتعبيْن مخافةَ أن يتوقّف قلبُه المولودُ بعلّةٍ خلقيّةٍ فيه، لكنّ صبرها توقّف قبل قلب زوجها فاضل، فانفصلا دون طلاق. ولأنّ الأقدارَ كثيرًا ما تُقدّم بديلًا للإنسانِ الصالحِ الّذي يضلّ الطريق، وجدَتْ عزاءها في حمويها فأغرقاها طيبةً ومحبّةً، لتُشارِكَهما لُعْبَةَ العائلةِ السّعيدةِ، وقد أحبّتهما هي الأخرى بصِدْقٍ، وظلّتْ تُكرّرُ على نفسِها كلّما تشكّكتْ في مشاعِرِهما تُجاهَها: «منْ يستطيعُ تمثيلَ المحبّةِ عشرينَ عامًا، فلا بدَّ أنَّ شيئًا حقيقيًّا مَركوزًا في داخِلِه!».

***

كانَ سُليمانُ يُدخِلُ سيّارتَهُ في موضع ضَيّقٍ، ببراعةٍ وخفّةٍ اكتسَبَهما مع السّنينِ، وهو يتذكّرُ مُبتسِمًا رغبةَ أولاده في اسْتِقْدامِ سائقٍ، بإمْكانِهِ أنْ يكونَ طبّاخًا أيضًا، ليُلازِمَهُ ويعْتَنِيَ بِهِ، فتساءلَ في قرارةِ نفسِهِ: «لِمَ تخيّلَ أولادي أنّني سأصْبِحُ رجُلًا عاجِزًا بعْدَ وفاةِ أمِّهم؟». وأوشْكَ أنْ يشْرعَ في لوْمِ السيّدة نبيلة على سُوءِ تَرْبِيَتِها، لولا أنّ بابَ سيّارتِهِ الخلفيَّ انفتح فجأةً، وإِذْ بكومةٍ سوداءَ تسْتجمِعُ نفْسَها، وتنْحَصِرُ في جزءٍ منَ مقعدِ السّيّارةِ الخلفيِّ، كأنّ أحدَهُم ركَلَها من الخلف. كان سُليمان يركنُ سيّارتَهُ أمامَ محلٍّ لموادّ التنظيف قصدَهُ ليشتريَ مِرشَّةَ حمّامٍ، أوصَتِ السّيّدة نبيلة بتغييرِها، لكنّهُ تكاسَلَ طَوالَ الأشْهُرِ الماضِية، وحينَ صعِدْتُ بروحِها إلى السّماءِ، أرادَ أنْ يُحقّقَ لها رغْبتَها، رغم أنّهُ لمْ يلحظ الماء يتسرّبُ كما كانت تدّعي. توسّلتْ إليهِ الفتاةُ ليمْضِيَ بسُرعةٍ، ومعَ أنّه لم يلتفتْ إلى الخلفِ إلّا مرّةً واحدةً، فقدْ أحسَّ بذُعْرِها. ومِنْ ثمّ رضَخَ لتوسُّلِها كأيِّ رَجُل شَهْمٍ، وقادَ ما يُقاربُ رُبعَ ساعةٍ مبتعِدًا عنِ المكان. فامْتَصَّ الوَقْتُ بعْضَ اللّهاثِ الّذي كانَ يسْمَعُهُ في الخلْفِ، وصارَ جاهِزًا أخيرًا لينطقَ بالكلمةِ الّتي جهّزها منذُ حرّكَ السّيارةَ:

- ما الأمْر؟ مِمّ تهرُبين؟ هل أنا الآنَ شَريكٌ في جريمةٍ لم أقترِفْها؟

لمْ يَسْتغرِبْ سُليمانُ دُخولَها في نَوْبةِ بُكاءٍ حادَّةٍ، فهو يُدرِكُ تمامَ

الإدْراكِ مُعْضِلتَهُ معَ الأسْلوبِ واخْتِيارِ الكلِماتِ، لذلك انتظَرها حتّى هدَأ صوتُها، ثُمّ أعادَ على مسامِعِها بحزمٍ:

- ما الأمر؟

وبينما كان يُحاولُ التّراجُعَ عنِ الطّريقِ الخاطئةِ الّتي سلكَها، تذكّرَ أنَّ دُروبَ الهارِبينَ هيَ المسالكُ الخاطِئَةُ، فانْحرفَ إلى الجِهَةِ الّتي كادَ يتجنّبُها، ثمّ رنّ هاتفُه فجأةً فأجاب بجُملٍ قصِيرةٍ مُرتبِكةٍ اختَصَرَت المكالمة. أخبرهُ ابنه باسم بسفرِهِ إلى تركيا في رِحْلةِ عمَل، بعْدَ أنْ مرَّ ليُودِّعَهُ ولمْ يجِدْهُ في الشّقّة. في أثناءِ المكالمةِ كان العرقُ قدْ بدأَ يُغرقُ ياقةَ ثوبِهِ على الرَّغمِ مِنْ بُرودةِ الجوِّ، وتغيّرتْ نبرةُ صوتِهِ على نحوٍ ملحوظٍ، حتّى لاحظَ باسم ارتباكَهُ، وسألهُ أكثرَ مِنْ مرّةٍ:

- أين أنتَ؟ ما بك يا أبي؟

في الواقعِ، لمْ يكنْ ثمّةَ شيءٌ منطقيٌّ يفسّرُ خوفَ سليمانَ منَ الإجابةِ على أسئلةِ ولدِهِ، إلّا أنّ الخوفَ عدوى تنتقلُ مع الأنفاس، والفتاةُ تتنفّسُ بقوّةٍ في سيّارتِهِ مُنْذُ نِصْفِ ساعَةٍ. حالما أنْهى المكالمة أوقفَ سيّارتَهُ، ثمّ التفتَ غاضِبًا نحْوَ السيّدة الّتي أفزعتْها الالتِفاتةُ المفاجِئةُ، وقال بفمٍ مزمُومٍ كمنْ يحبسُ مسمارًا بينَ شفتيْهِ:

- إمّا أنْ تُخبريني الآنَ عنْ سببِ هُروبِكِ يا فتاة، وإمّا فَلْتَنْزِلي من سيّارتي... فقَدْ ابتعدْنا، ولا أظنُّ أنّ هنالك من يتبعُنا... ما رأيُكِ؟

سيعاني سُليمان من تبعاتِ هذا التهديد، وسيظلّ السؤال القاتل

يرافقه طويلًا: هل كان المتسبّبَ فيما حدثَ، أم كان ذلك مجرّد فخّ نصَبتُهُ أنا لاسْتِدراجِ الفتاة؟

اختارتْ كومةُ السّوادِ الخيارَ الثّاني مُكرَهَةً، رغْم أنّهُ لمْ يكنْ احتمالًا واردًا في رأسِ سليمانَ حينَ قالَهُ، ولو أرادتْ أنْ تبيتَ في السّيّارةِ، وتطرُدَهُ خارجَها لسمحَ لها بذلكَ. لكنّها فتحتِ البابَ مُنطلقةً إلى جهةِ الشّارعِ المقابلة، وخلال ثوانٍ أسْرعَ مِنْ صَوتِ مكابحِ السّيّارةِ العابرة بسرعةٍ قاتلة، كنتُ قد أخذتُ روح الفتاة وتركتُ جسدَها ممدّدًا على بُعْدِ بضْعةِ أمتار من سليمان. «وفاةٌ دماغيّة» أنتم تصنّفونَها هكذا في نوعٍ منَ الاسْتعراضِ اللّفظيّ... «فشلٌ قلبيٌّ»، أو «فشلٌ رئويٌّ»، أو «وفاةٌ دماغيّةٌ»، وهذه التّسميةُ الأخيرةُ لم تكُنْ موجودةً، قبْلَ عامِكم الثّامن والسّتين مِنْ قرنِكُم الماضِي، أمّا تلكَ الحالاتُ الأكثرُ مِنْ غيبوبةٍ، والأقلّ مِنْ وفاةٍ، فلم تجِدُوا لها اسْمًا بعدُ، ولا قرارًا أخلاقيًّا حاسِمًا بشأنِها، ومازال كلُّ بلدٍ يتصرّفُ فيها حسب ما يظنُّ أنّهُ ملائمٌ لعقائدِ مواطنيه.

تزامنَ قرارُ الفرارِ الّذي اتّخذهُ سُليمان بسرعةٍ، مع حركةِ شفاهٍ لا إراديّةٍ صَدَرتْ عنِ الفتاةِ، قبْلَ أنْ يصمُتَ فمُها إلى الأبد.

وقتُ الوفاةِ الدّماغيّةِ: (15:30).

***

قضّتْ ليلتينِ عصِيبتَيْنِ إلى جوارِ ابنتِها، الّتي ظلّتْ تغطُّ في نومٍ عميقٍ، بفعْلِ أثرِ المسكّنِ في جسدِها، بعْدَ أنْ تمّتِ السّيطرةُ على مضاعفاتِ الإجهاضِ. عند منتصفِ اللّيلةِ الأولى، داهَمتْها نوْبةُ

أرَقٍ واخْتِناقٍ مِنَ الغُرفةِ... وكانت الغرفةُ باردةً لا تضِيئُها، في ذلكَ الوقتِ مِنَ اللّيلِ، إلّا أضواءُ الشّارعِ، ومسطرةُ ضوءٍ بعرضِ ثمانينَ سنتيمترًا، تُطلُّ باستحياءٍ مِنْ تحْتِ البابِ، لذلك اختلقَتْ قِصَّةً لعبَتْ فيها دورَ سائحةٍ عالقةٍ في جبلٍ تكسُو الثّلوجُ قِمَمَه. ولا يشكُّ اثنان في أنّ بردَ المستشفى هو منْ فرضَ عليْها تلكَ القمّةَ الثّلجيّةَ. وبعد أن عثرَ عليْها رجالُ الإنقاذِ، أخذَتْ قصّتُها منحًى عاطفيًّا، إذْ تخيّلتْ أنّها تقعُ في حبِّ أحدِهم، ولمْ يُعِقْ علاقتَهما إلّا حاجزُ اللّغة. عندئذٍ، بدأتْ في اختلاقِ لغةِ إشارةٍ تقرّبُها منهُ، هذا ما يبرّرُ حركة يديها وهي غارقة في الأريكةِ طَوالَ تلكَ اللّيلةِ، حتّى بزوغِ أوّلِ أنوارِ الفجر. في اللّيلةِ الثّانيةِ فكّرتْ طويلًا... ما الّذِي يفرض على ابنها أنس وابنتها الإعراضَ عن ذكرِ والدِهما في كلّ الحالات، فرحًا كانت أو حزنًا... لقد كانَ والدُهما ضحيّةَ والديْه أكثرَ من كونه ضحيّةَ قلبِه الضّعيف. عاش حياته وكأنّه غير موجود. تصوّروا حياةَ امرأةٍ مع زوجٍ لا وجود له إلّا على الأوراق والوثائق! زوج مشتّت الذّهنِ يأتيها مرّتينِ أو ثلاثًا في السّنة، برغبةٍ مِنْ أمِّهِ لا منه، في مَهمّةٍ رسميّةٍ لإيصالِ سلالةِ العائلةِ إلى أدفئِ مكانٍ في جسدِها، مُحاولًا نفيَ إشاعةِ الخبلِ الّتي انتشرتْ بخصُوصِهِ، منذ كان في السّابعةِ من عمره.

كانت أمّ فاضل وراء فكرة المقايضة: عمْرُها مقابل شقّةٍ فارهةٍ. كلُّ ما كان يعنيها هو ألّا يثرثرَ النّاسُ بكلام يسيء إلى ولدِها، والحقيقة، أنّه يسيء إلى العائلة فحسب، أمّا فاضل فلم يكن معنيًّا بشيء. كان يقضِّي حياته في السّفرِ رفقة من يُحسِنونَ اسْتغلالَ سذاجته وماله. كان

بيته بالنسبة إليه مجرّد محطّة، وفي إحدى مرّات نزوله بتلك المحطّة، نزولًا عند رغبة أمّه طبعًا، دخل غرفة النّوم، فقالتْ لهُ زوجتُه بحزمٍ:

- صار لدينا ولدان... قل لأمّكَ: هذا يكفي. لنكنْ فقطْ، شريكينِ على الورقِ يا فاضل!

عانقَها بسعادةٍ لا أحد بإمكانه وَصْفها، حتّى أنا. فانتابَها الإحساسُ بالخديعةِ، ولم يقطَعْ إحساسَها ذاك إلّا دخولُ الممرِّضةِ إلى غُرفةِ ريما. وكانت الممرّضةَ نفسَها الّتي أخْبَرتْها، مساءَ وصُولِها، بأنّ هناك فتاةً ميّتةً سريريًّا في إحدى غرفِ المستشْفى، حُصِدتْ أعضاؤها الصّالحة ونُقلتْ مِنْ مدينةٍ إلى مدينةٍ، حتّى حطّ أحدُ تلك الأعْضاءِ في غرفةِ العمليّاتِ مُباشرةً، وزُرِعَ في جوْفِ فتاةٍ تجاوزتِ اللّحظاتِ الحرجَةَ دونَ تعقيداتٍ، فضلًا عنْ أنّها تنامُ في الغُرفةِ المجاورةِ لغرفةِ ريما، وتتلقّى النّتائجَ الجيّدةَ لعمليّةِ الزّرعِ منْ هذه الممرّضةِ الّتي تتفقّدُها باستمرارٍ، وتزفُّ إليْها الأنباءَ كنوعٍ مِنَ الاحْتِفاء. فابتعدَتْ قليلًا عَنْ سَريرِ ابْنَتِها، لفتحِ الموضوعِ نفسِهِ، ووافقت رغبتُها حماسَ الممرّضَةِ الّتي سَحبَتْ كرسيًّا كما في اليومِ السّابقِ، وجلسَتْ مُستعرِضَةً خِبْرتَها الطِّبّيّةَ في مجالِ الجِراحَةِ:

- يسمّي الجرّاحونَ هذه العمليّةَ: حَصْد الأعْضَاء.

ولأنّها كانتْ، إلى جانبِ حبِّها لجلساتِ الثّرثرةِ، سريعةَ التّأثُّرِ، أضافتْ:

- إنّ المتبرّعةَ في التّاسِعة عشرةَ منْ عمرِها فقطْ، صَدَمتْها سيّارةٌ فماتتْ على الفورِ، لكنّها ستُنقذُ بأعْضاءِ جسدِها ما يُقاربُ

العشرةَ مرضى... تخيّلي!! ثمّ أردفتْ بشيءٍ مِنَ الزّهوِ:

- بالإضافةِ إلى القلبِ والكبدِ والرّئتينِ والكليتينِ والطّحالِ والأمعاءِ، سيستخدمُونَ جِلدَها وقرنيّتيْها وأنْسِجَةَ عظامِها، وقدْ حَجزتْ بعضُ المراكزِ غضاريفَها أيضًا... فهيَ تُفتَحُ مرّةً واحدةً، لتمتدَّ إليْها الأيْدِي المغلّفةُ بالمطّاطِ الأبيضِ لقطف كلِّ ما في جوفِها.

وبيْنَما كانتْ على وشْكِ أنْ تُظْهرَ سببَ تفضِيلِها التّمريضَ على الطّبِّ، قاطَعتْها وهي تهمسُ، كي لا توقِظَ ابنتَها:

- بعدما يقطِفونَ مِنْ جوفِها كلَّ الّذي حدّثتِنِي عنهُ، هل يغلقُونَها بشكلٍ أنيق؟ أعنِي أنّها تستحقُّ الخياطةَ التّجميليّةَ الأنيقةَ، بعْدَ كلِّ ما منحتْهمْ إيّاهُ!

صمتتِ الممرّضةُ قليلًا، وكأنّها تتساءلُ أيضًا، ثمَّ وقفَتْ لتتفقّدَ المحلولَ في كفِّ ريما:

- يغلقُها أيُّ شخصٍ في الغرفةِ يا سيّدتي... يمكنُني أنا أيضًا أن أفعلَ، وطبعًا دون طبيبِ تخديرٍ أو تعقيم.

ثمّ ابتسَمتْ وهي تضِيفُ:

- هي ميّتةٌ، ولنْ تفسِدَها البكتيريا لو انتقلتْ إليها، على أيِّ حال.

نزعتْ الممرّضة قفّازَها المطّاطيَّ الأبيضَ، ألقتْ بهِ في سلّةِ المهملاتِ، وهي تغادِر مُتّجهةً نحو غرفة العناية المُركّزة. فلحقتُ

بها، كان يرقد هناك ينتظرُني منذُ أعوامٍ، وحينَ شعُرَ بدنُوِّ أجلِهِ، عانقَنِي مُبتسمًا، وهو يقولُ:

- لقد تأخّرتَ كثيرًا.

وقتُ الوفاةِ: (23:11).

ليس كلّي بلا فائِدَة

دخلَ سُليمان بيتَهُ كقاتلٍ مصدومٍ. لم يكنْ يحْمِلُ أثَرَ جريمةٍ أو دمٍ. ورغم ذلك، غسلَ يديهِ، وفركَ أصابعَهُ إصبعًا إصبعًا، وهُو يُرَدِّد:

- لا شكّ في أنّ ما كانتِ الصّبيّةُ تهرُبُ مِنهُ أهون ممّا وقعَ لها معِي، ماذا لوْ أنّي في لحظةٍ مّا التفتُّ إليْها، وناولتُها قنّينةَ ماءٍ لتشربَ وتهْدأَ، بدلًا منْ زجْرِها بتلكَ الطّريقةِ القاسيةِ، فقدْ كان الماءُ إلى جِواري طَوالَ الوقت!؟ وماذا لو أنّي ركنتُ سيّارتي في جهةٍ أكثر أمانًا، ثمّ انتظرتُ أن تتكلّمَ من تلقاء نفسها!؟

ظلَّ يتجوّلُ في بيتِهِ مُلتاعًا، يتحدّث إلى نفسه:

- هل نظرتْ إليّ بامتنانٍ وهي تموت؟

انتاب سُليمان هلعٌ فظيعٌ لا طاقةَ لهُ على تحمّله. وكان عليهِ أن يخوض معركةً مع الصّمتِ حتّى تظهرَ الجارةُ الّتي سيروي لها، بلا تردُّدٍ، كلَّ ما حدثَ معه. لكنّها لم تكن في مطبخها حين أطلّ من مطبخه. فأخْرجَ قالبَ ثلجٍ من الثلّاجة وظَلَّ ينقلهُ من كفٍّ إلى

كفٍّ، وهو يسيرُ نحو طاولةِ المطبخِ ذي الأنوارِ المطفأةِ، وفجأةً رأى نفسَه واقفًا في الثّالثة عشرةَ من عمره، يترصّدُ المارّةَ في وسطِ الظّهيرةِ بخيطٍ من ماءٍ، يسدّدُهُ مِنْ بيْنِ أسْنانِهِ الأماميّةِ كطلْقَةٍ. فبعدَ أنْ حُرِمَ من الملعَبِ ورفاق الكُرةِ، صارَتْ هذه اللّعبة تُمثّل مصدرَ سعادتِه وترويحه عن نفسه. وقدْ صوّبَ ذاتَ مَرّةٍ نحو إمامِ المسْجِدِ، فالتفتَ إليهِ مُسْتغفِرًا، ودَعَا لهُ بثباتِ العقْل. ولكنّ ما حدَث مع الجار أبي عليّ كان أكثَر عنفًا وتأثيرًا. فالجارُ معروفٌ بعصبيّته ونوبات غضبه الّتي تقتضي، في بعض الأحيان، أن يتدخّل الجيران لتخليص أهل بيتِه من قبضَته. وعندما صوَّب سُليمان الماء نحوَه، أصَابَهُ في قفَاهُ، فالتفتَ إليهِ الجارُ مُسْرِعًا، وبصقَ عَليْهِ، وصفَعَهُ بظاهِرِ كفِّهِ صَفْعةً قوِيّةً أسقطتْ نَابَه. وهذا ما لمْ تغفرَهُ السّيّدة حمدةُ، الّتي تعدُّ الأيّامَ، وتُحصِي الشّعراتِ في وجهِهِ، لتبشّرَ نفسَها بأنّ ولدَها يكبُر. وبالفِعْلِ، تحوّلَ الخِلافُ بيْنَ الجار والابن سليمان، إلى عراكٍ بالأيدي بينَ السّيّدةِ حمدةَ أمِّ سليمانَ والسّيّدةِ نبيلةَ في طرفٍ، وأمّ عليّ وبناتِها في الطّرفِ الآخر... وهو عراكٌ لمْ ينفضّ إلّا بتدخّلِ معظمِ الجارات. لقدْ كانَ نابُه غاليًا على أمِّهِ وزوجتِهِ كثيرًا، هذا ما فكّرَ فيهِ وهو مستلقٍ على ظهرِهِ في غُرفةِ عرُوسِهِ المعطّرةِ، مُمْسِكًا بقالبِ ثلجٍ دسّتهُ أمُّهُ في جوربٍ رياضِيٍّ من تلك الجواربِ الّتي تتمدّدُ حتّى أسْفل الرّكبة. وبخلافِ الحقِيقَةِ، ظنَّ أنَّ مَنْ شَفى تورُّمَ شَفتيْهِ، هو جوربُ لعِبِ الكُرةِ الصّوفيُّ، لا مكعّب الثّلج.

وفيما كان جالسًا في عتَمةِ المطبَخِ يسترجِعُ كلَّ تلك التّفاصيلِ،

بدأ ماءُ مكعّبِ الثّلجِ يسيلُ بينَ يديْه. ولمّا تكوّرَ، وخفّتْ حِدّةُ زواياه، رمَى بهِ صَوْبَ نافذةِ الجارَة.

***

كانت عينا باسم تبحثان عن فتاةِ إسطنبول الشّقراء. وحالما رآها، انتظر أن تنتهي من كَتْمِ سُعالها بكفِّ يدها، وتلتفتَ إليه، لذلك اتجّهت نحوه عندما لاحظتْهُ وحنَت رأسها لتميّز ما يقولُهُ وسطَ ضجيجِ الأغاني، وفي الأثناء حدّقت في طلبِه الموضوعِ على الطّاولةِ مخافةَ أن يكونَ قد فاتهَا إحضارُ شيءٍ. وجدَ مشقّةً وهو يحاولُ تمالك نفسِه حينَ اقتربَ وجهُها منهُ، ولكنّه نطقَ بصوتٍ عالٍ:

- لا تكتُمي سُعالكِ هَكذا.

ثم أكمَلَ رافِعًا ظهْرَهُ المقوّسَ، وقدْ شابَك أصابع يديه كدِرْعٍ:

- قد يسبِّبُ لكِ ذلكَ فَتْقًا، لا قدّرَ الله.

وجسّدَ لها معْنى الفَتْق راسِمًا خطًّا يعبرُ بطْنَهُ بالعرضِ. إذْ لمْ يرثْ باسم مِنْ سليمانَ إلاّ طباعَهُ السّيّئةَ، فهو غيرُ لبقٍ، ولا يجُيدُ انتقاءَ الكلماتِ، ويزيدُ عنْهُ بالتردّد والتشكّك رغم الهدوءِ المشوبِ بالحكمةِ الّذي يشعُّ من عينيهِ النّاعِستَين.

ورغم أنّ إنجليزيّته كانت رائعة، لم تفهم الفتاة شيئًا ممّا قاله، فهزّت رأسها بعلامة «لا»، ثمّ ابتسمتْ بارتباكٍ، وهي تنظرُ إليهِ، وإلى جهازِ الحاسوبِ المفتوحِ أمامَهُ، كما ينظُرُ فقيرٌ إلى سلسلةِ ذهبٍ معلّقةٍ على عُنُقِ كلْب! في تلكَ اللّيلة، حينَ مرّتِ النّادلةُ مِنْ أمامِهِ

مرّةً أخْرى، فكّرَ في منال بشيْءٍ مِنَ الشّعورِ بالذّنْبِ، وفي ولدَيْهِ سليمان الصّغيرِ وزياد، وأيضًا في سليمان الكبيرِ، وفي أمِّهِ الّتي لم تُكْمِلْ شهْرينِ منذُ رحيلِها، ثمّ نسِيَهم جميعًا دُفعةً واحِدَةً. لقدِ اسْتَحْوذَتْ على كلِّ أحاسيسِهِ، إلى دَرجةٍ جعَلَتْهُ عاجزًا عن صرف نظره إلى سواها! وتملّكَهُ يقينٌ من أنَّ ما يشعر به هو الحبّ... هذا الّذي ينمُو بسرُعةٍ، كما تنمُو بَذْرةٌ في فيلمٍ وثائقيٍّ مُسرّعٍ، لتُصْبِحَ نبْتةً في ثوانٍ. ولمْ يكنْ هذا خطأَهُ وحدَهُ، بلْ خطأَ معظمِ البشرِ، إذْ يظنُّونَ أنّ الحبَّ يكمُنُ في شخْصٍ واحدٍ يظهرُ فجأةً، وعليهم أن يتمسّكُوا بهِ، لأنّهُ لنْ يتكرّرَ طَوالَ حياتِهم. أدْركَ بعْدَ الإصْغاءِ إلى وقْعِ حِذائِها، أنّ لهُ صَوْتًا لا تلتقطُهُ إلاّ أذنُهُ، فصارَ يميّزُ خطواتِها مِنْ خطواتِ زمِيلاتِها في المقْهى، حتّى دونَ أنْ يلتفِت. بقِيَ هُناكَ إلى نهاية فترْةِ عَمَلِها، مُتفنِّنًا في شمِّها وتتبّع ثنايا جسَدِها. واشْترى في الأثناء بعْضَ الورودِ مِنَ الباعةِ المتجوّلينَ الّذين مرُّوا سريعًا بالمقهى، متحيّنًا الوقتَ المناسبَ ليهديهَا وردةً، ثمّ شَعُر بأنَّ هذا الأمْرَ سيُحْرِجُها أمامَ زملائِها، فتخلىَّ عنِ الفكرةِ، واكْتفَى بتكدِيسِ الوردِ أمامَه. راقبها ساعاتٍ حتّى رآها تنزعُ عنْ خصرِها مئزرَها لتُغادِرَ، فتأكّدَ منْ أنهّا أحبُّ شيءٍ إلى قلبِه. وتبِعَها وهو يُحْصِي كلَّ ما هو مستعِدٌّ للتّخلي عنهُ منْ أجلِ التركيّة الشّقراءِ الّتي تتقدّمُه.

***

ظلَّ سُليمان يتصبّبُ عرقًا طَوالَ اللّيلِ، كان يخنقه شبح الفتاةِ الّتي تركَها خلفَهُ ممدّدةً على الإسْفَلت. وكلّما تذكّر أنّه لم يعطِها حتّى

شربةً هرع إلى الثلاّجة ليسحبَ قارورة ماءٍ. شرب ليلتها ما يروي الصّحراء، لكنّه لم يكن محتاجًا إلى الارتواء، بل إلى النّسيان. كان يشرب ليطهّرَ أعماقه من ذلك الذّنبِ، ثمّ يُعيد القارورة إلى مكانها. وقبل أن يغلق باب الثلاّجة، يقفزُ نحوهُ السّؤال المحرق: «هل أنا فعلاً مذنبٌ؟»

نسِيَ أمر الجارة تمامًا وهو يصرخ بذلك السّؤال في وجه الثلاّجة بعد أن غيرّه في هذه المرّة تاركًا فيه نافذةً للأمل، أو ربّما للهرَب: «وما ذنبي أنا!؟» ثمّ الْتَفَت، بحركةٍ عفويّةٍ، نحو نافذة الجارة. في البداية، ظنّ أنّه قد توهّم رؤيتها، «فهذه ليلة الأشباح» مثلما غمغم بصوتٍ محروق. وحين أطال فيها النّظر دون أيّ حركةٍ أو صوتٍ كي لا تفزع، استدرك قائلاً: «بل إنهّا هي، بشحمها ولحمها، فمن المستحيل أن تقلّد الأشباحُ كيفيّة تحريكها القهوة بهذه الدقّة.»

بدا لهُ أنَّ المصباحَ قدْ غيّر مكانَهُ في مطبخِها، ليُظْهِرَ زاويةً مُختلفةً مِنْ وجْهِها، لمْ يرَها سُليمان مِنْ قَبْل. وشيئًا فشيئًا اتّضحت لهُ الجارة منْ خِلالِ نافِذتِها مثل صُورةٍ في غرفة التّحمِيضِ. لم يدرك أنّه قد خرج إلى شرفة مطبَخِه حتّى بلغ أقصاها، إلاّ عندما لفحت وجهَهُ نسمةٌ باردة. ولم يتذكّر كم انقضى من الوقت وهو هناك، على الحدود، فلا معنى لذلك ما دامت قد التفتَتْ أخيرًا. أمّا هي فقد بدا لها سُليمان معزولاً عنْ شقّتهِ، كأنّه يقف في الفراغ. كانت ابتسامتُها على وشك الارتسام حين قاطعها بسؤاله المتلهّف:

- ما اسمكِ أيّتها الجارةُ القاسِية؟

فقالتْ بنبرةٍ لا تُشْبهُ نبرتها وهي تتحدّثُ إلى ريما في المُسْتَشفى، أو إلى أنس في الحافلة، وهي ليسَت نبرة «أمٍّ» على أيِّ حالٍ:

- اسمي سمر.

ثمّ ابتسمتْ بشيءٍ من الفخْرِ، وهي تتلقّى ردَّ فعلِهِ على اسمِها، ذلك الاسم الّذي تعمّدتْ أمُّها عواطف أنْ يكونَ مُرتبطًا بحياتها، وبلياليها تحديدًا. تصالبَ ذراعا سمر خلْفَ رقبتِها، ثمّ سَحَبتْ دبُّوسًا كان يلمُّ شَعْرَها، فانهالَ مُتدرِّجًا فوقَ كتِفيْها، وهي تقولُ:

- ثمّة نسيمٌ باردٌ يا سليمان... عليكَ أنْ تَرْتدِيَ شيئًا ثقِيلا.

كانت تعرف اسْمه إذَن، لكنّه لم يستغرب ذلك، فقدْ أصْبحَ على يقينٍ من مُعاداةِ نبيلة لجارتِها، لأنّهُ لمْ يسمَعْ اسْمَ «سمر» على لسانِها مِنْ قَبْل.

جلسَتْ على كرسيٍّ سحبَتْهُ لتقتربَ مِنَ النّافِذةِ، وهي تتأكّدُ منْ أنَّ شَعْرَها مُوزَّعٌ بالتّساوي فوقَ كتِفيْها، ثمّ قالتْ:

- كنتُ أتابعُ فيلمًا، وحينَ وصلتُ إلى المشهدِ الّذي تعلُو فيهِ تلكَ الصرّخةُ الأخيرةُ الّتي نسمعُها حينَ تموتُ النّجمةُ وهي تلدُ، وقبْلَ أنْ يأتيَ المشْهدُ الّذي يُغَطّى فيهِ وجْهُ الفقِيدةِ باللّحاف الأبْيَضِ، تزامنًا مع تعزيةِ ذويها بالعبارةِ الشّهيرةِ: «البقيّةُ في حياتِكم»...

قاطعَها بحماسةٍ:

- رأيتُها في فيلمينِ أو ثلاثةٍ...

وكادَ يشرع في ذِكْر عناوين الأفلام، لكنّها سبقتْهُ:

- جئتُ إلى هُنا أُعدُّ قهوةً وكعْكًا، فهذا النّوعُ مِنَ الأفلامِ المليئةِ بالخساراتِ لا يروق لي.

انكمشَ عنُقُ سليمانَ قليلاً، ثمّ قالَ:

- أحبُّ لعِبَ الكرةِ، وأكرهُ كلَّ لاعبِيها! فأنا لا أحتملُ رؤيةَ تفوُّقِهِم عليّ، كانَ يُفترض أنْ أصيرَ واحدًا مِنْهم، وربّما أفضَلَهم!

فابتسَمتْ لهُ، وهي تقولُ:

- في النقطة أشبهُكَ، فأنا أحبُّ الطّبخَ، وأكرهُ الطّاهِيات اللّاتي يظهرنَ في التّلفزيون، وأستلطفُ الطُّهاةَ كثيرًا.

ولمعرفةِ مدى التّشابُهِ بينَهما، سألها بحماسةٍ:

- فقطْ عندَما تكونينَ مستاءةً، أم تشعُرينَ بذلك طَوالَ الوقْت؟

بقيا يتحدّثان طَوالَ خمسِ ساعاتٍ، كمنْ يكتُبُ على ورقةٍ واحدةٍ ما يمكنُ أنْ يملأ أوراقًا كثيرةً، ولمْ يكنْ باستطاعةِ أحدٍ سواهُما، أنْ يقرأَ ما كتباه. ثمّ انْتقَلا قبْلَ طُلوعِ النّهارِ إلى التّحدُّثِ هاتفيًّا، مع البقاء متقابلينْ: هو في شرفتِهِ، وهي في نافذتِها.

وبعْدَ سيْلٍ طويلٍ من الأحاديثِ الّتي لمْ تنقطِعْ، أخبرتْهُ بأنّها تُصابُ بالصُّداعِ، إذا أُمْطرتِ السّماء! ورغم أنّهُ لمْ يسمعْ بشيءٍ كهذا مِنْ قبلُ، علّق متسائلًا:

- لكنّكِ تحُبِّينَ المطر... صَحيح؟

لقدْ أرادَ أنْ يسمَعَ جوابًا يُشبِهُها... أرادَ أنْ تتطابقَ مع الصّورة الّتي أخَذ يرسمها لها في ذهنه، إذ لا يُعْقلُ أنَّ جمالاً كهذا لا يروقُهُ المطر. تبعَ بعينيْهِ طائرًا مرَّ بينَ عمارتيهما، ثمّ سألَهَا:

- إنّهُ المطرُ يا سمر! أيُعقلُ ألّا تحبّيه؟

كان سلكُ سمّاعةِ هاتفِها المحمُولِ يتَدلّى مِنْ أُذنيْها، مارًّا من بينَ شَفتيْها، فتعضُّ عليْهِ بأسْنانِها منْ وقتٍ إلى آخر:

- وأنا مصابةٌ بنوباتِ الشّقيقةِ، لا أجِدُ وقتًا لحبِّ أيِّ شيءٍ... هذه هي الحقيقةُ يا سُليمان، وعليْكَ تقبُّلُها.

ضَحِكتْ وهي تقولُ هذا، بيْنَما لاذ الجار بالصَّمت. كان على وشْكِ أنْ يُدافِعَ عَنْ جمالِ المطَرِ، لكنّهُ بدلاً من ذلكَ، قامَ عنْ كرسيٍّ سَحبَهُ إلى الشرّفةِ كيْ يجلِسَ عليْه، ثمّ تراجع إلى الوراءِ متّجِهًا صَوْبَ مطبخِهِ، وهو يقولُ:

- ليكن... ولعلمِك، ألاّ تكوني كامِلةً أمرٌ يُريحني جدًّا يا سمر، لكنْ، يومًا مّا سيتوجّبُ عليْكِ أنْ تمشيِ تحْتَ المطر، وتُصْلحِي هذا الخلَل.

غير أنّه استرسل في التّعليق بكلامٍ تمنّت أنّه لم يقله:

- في المصحّاتِ العقليّةِ، يخُرجونَ المجانينَ إذا أمْطرتْ، لتخِفَّ حِدّةُ جنُونهم، فما بالك بصُداعِ الرّأس؟ أعني...

وبعْدَ هذا التدخّل، تدلّتْ شفتُهُ نحْوَ الأسْفلِ، إذْ خافَ أنْ

تقُودَهُ رعونته في الحديث إلى خِلافٍ آخر معَها، لكنّها بدَأتْ تتفَهَّمُ طبْعهُ، لذلك حملت الحديث بعيدًا عنْ المطرِ:

- كانتْ أمِّي، في الأعْراسِ الّتي تأخذُني إليْها، تجُلسُنِي على دَرَجٍ إذا صعدْتُهُ أصلُ إلى مقْعدِها ومقاعدِ صديقاتِها، لكنّها لمْ تسمَحْ لي يومًا بالجُلوسِ حذوها، على المنصّة... فكنتُ من مكاني ذاكَ أُحْصي الأحْذيةَ النِّسائيّةَ الجميلةَ الّتي تمرُّ بجانِبي، في طريقِها إلى حلبةِ الرّقْص.

ثمّ حزمَتْ شَعْرَها ثانيةً ولفّته خلفَ رأسِها، وهي تنظرُ في اتجّاهِ الزُّقاقِ:

- كان مكاني مخْزيًا، لكنّها لمْ تحُاوِلْ أنْ تجِدَ لي مقْعَدًا في القاعةِ لتُجلسَنِي عَليْه. كنتُ آخذُ شيئًا آكلُهُ مِنَ الطّاولاتِ المجاورةِ للمنّصةِ، ثمّ أعودُ إلى الدَّرَجِ، فلا أجلسُ على الدّرجةِ الأولى القريبة من الأرضِ، ولا على الخامسةِ الموصولةِ بالمنصّةِ *(تنّهدتْ وهي تضِيفُ...)* وإنّما على درجةٍ بين الثّانيةِ والرّابعة. وهناكَ، أُنهي حلويّاتي وعصِيري وأصَفِّقُ للنِّساءِ اللاّتي يعبرُنَ، دونَ أن ينتبِهنَ لوجُودي.

سألها سُليمان عنْ أمِّها باهتمامٍ مبالغٍ فيه وهو يغادر الشرّفةَ، ليعودَ حامِلاً معهُ مجُسّمَ الكبرْيت الّذي وضعَهُ بالقُربِ مِنْهُ على طاولةٍ سَحبَها لهذا الغرضِ. كان ينظُر إلى عَينيْها مباشرةً، فابتسَمتْ بإعْجابٍ وهي تقولُ:

- أنتَ سيّدُ هذا البيْت؟

وكانَ في كلامِها وتعليقاتِها شيءٌ مّا، يجعلُ منهُ رجلاً أفضلَ ممّا هو عليْه. فاستعاضَ بالإيماءاتِ عنِ العناقِ، حينَ رفعَ قبْضتَهُ اليُمنى، وفردَها على صدْرِهِ وهو يبتسِمُ لها، ثمّ تذكّرَ أنهّا كانتْ تحُدِّثُهُ عنْ أمِّها فقاطعَها ببيتِ الكبريتِ، لذلك أعادَها إلى الحديث بسُؤالٍ تمنّى أنْ تلقيَهُ عليه فيما بعدُ:

- رُدّي دونَ حذرٍ في الإجابةِ... هل تُحبّينَ أمَّك؟

كانتْ نظرتهُا إليهِ تحملُ إجابةً بديهيّةً، فتراجعَ عنْ أمنيتِهِ:

- كانتْ أمِّي قادرةً على الموازنَةِ بينَ الجوِّ الرّاقصِ الاحتفاليِّ الّذي تصنَعُهُ على المنَصّةِ، والتّعاملِ معي بجدّيّةٍ مبالغٍ فيها تصِلُ إلى حدِّ الضرّبِ أحيانًا، لتُظهرَ أمامَ زبائنها أنهّا امرأةٌ صارمة... لقدْ بذلتْ ما في وسْعِها، ولا يمكِنُني لومُها على شيءٍ.

تفقّدَ سُليمانُ العلاماتِ الّتي قد تتركُها، في معظمِ الأوقاتِ، ذكرياتٌ كهذِهِ، وحينَ تأكّدَ منْ أنهّا لا ترتعش، أو تفقِدُ كلماتِها بسببِ الانتحابِ، أيقنَ أنَّ جُرحَها ليسَ سَطْحيًّا، بل هو ساكنٌ في العتَمة.

وحينَ اكتملَ وُضوحُ الشّمسِ في ذلكَ الزّقاقِ، تبادلا الوداع. فتوجّهَ سليمان على غير عادته مباشرةً ليستحمّ قبل النّوم... فلقد أخبرته بأنهّا ستنصرف لتستحمّ ثمّ تنام، وأحبَّ أنْ يسلُكَ الطّريقَ

ذاتَهُ، الّذي ستسلُكُه إلى النّوم. وبمجرّد أن ولِجَ الحمّامَ، أسْكَت المروحةَ الهادرةَ أعْلى الجدار، وهو يفكّرُ في درجةِ التّشابهِ بينَ جدرانِه وجدران سمر. ثمّ فتحَ شّبّاكَ حمّامِهِ، ليتخيّل أنّه يسمع تدفّق المياه على جسدها، أو ربّما سمعه فعلاً. خلعَ ثيابه هو الآخر مثلما فعلتْ هي... ودون اتّفاقٍ مسبقٍ، دندنا الأغنية نفسها. واستند كلّ منهما إلى حائطه النّدِيّ، ثمّ أغمضا عيونهما مبتسِمينْ لصَوْتِ الماءِ الّذي يزيحُ الرّغوةَ عنْ جسدِها وجسده، كما يزيحُ الهواءُ كتلَ الغمام.

***

رغم محاولاتِ سمر إقناعَ سليمان بأن لا يدَ له فيما حدث، أصبح «المسكين»، مثلما يراه أغلبُكم، يرى تلك الفتاة وهي تُصلح لهُ وصلةً مُرتخِيةً في بيتِ الكبريت. كانتْ مُنهمِكةً معهُ في تثبيتِ زوايا البيتِ على نحوٍ أفضل، دون أن تتوقّف عن النّحيب كما كانت تفعلُ في سيّارتِه. ولم تتوقّف هلوساتُه عند ذلك الحدّ، بل كلّمته مرّةً وهي أمامَهُ مُباشرةً وقالت له بصوتِ أمِّهِ المتحسرِّ الباكي:

- لَماذا يصرّ أبناؤنا على تخييب آمالنا يا سليمان؟

فردّ سُليمان على هذه الشكوى بصَوتٍ مَسْموعٍ في شقّتِهِ:

- ربّما ولدُكِ أنتِ فحسبُ، هو من خيّبَ أملَكِ مثلما تقولين! أمّا أولادي فلمْ يفعلوا، وأنا لا أريدُ منهم سوى أن يكونوا سُعداءَ يا أمّي... سُعداءَ فحسب... ولا أطمعُ في شيءٍ أكثر مِنْ هذا.

اختفتِ الفتاة قبل أن ينهيَ ردّه، لكنّ سليمان يعرف أنهّا ستعود بمجرّد أن يركب سيّارته، فهي ترافقه دومًا مهما كانت وجهته، متكوّرةً في المكان نفسه، خلف كرسيّه، عند موضع الأقدام. لمْ تكنْ روحًا شرّيرةً تُطاردُه، أؤكّد لكم ذلك. كلّ ما في الأمر، هو أنّ تلك الفتاة بقيت ممتنّةً لسليمان، ولا تذكر من كلّ ما حدث سوى مساعدته لها على الهروب، بل إنّه قد أشفق عليها حين استدار ليكلّمها فوجد أشعّة الشّمس تجهر عينيْها، ولم تستطع فتحهما إلّا عندما انعطف وسلك طريقًا خاطئًا، فقط كي يحجب عنها الشّمس.

طبعًا، سليمان لا يدرك ذلك، ولن يدركه ما دام على قيد الحياة. ولقد كاد يُفارقها بسبب كثرةِ تفكيرِه في تلك الحادثة. حدث ذلك في مطعم الحيّ، غير بعيدٍ عن بيته... في البداية، ذكّره السّحاب المتراكم بالحديث الّذي دار بينه وبين جارته عن المطر. فهو لم يستوعبْ بعدُ أنّ المطر يمكن أن يتسبّب في الشّقيقة أو حتّى في إثارتها. لكنّه تصالح مع تلك الفكرة أو نسيَها، بمجرّد أن اتّصلتْ به سمر. فسماعُ صوتِها كفيلٌ بأن يُقنعه بأيّ شيءٍ. فكّر طويلاً، بعد انتهاء المكالمة، في تفسير التّزامن بين استحضاره لسمر وبين اتّصالها به. ثمّ قرّر على نحوٍ غامضٍ، تسجيلَ رقمها على ورقةٍ يضعها في محفظته، وأخرى في درج طاولةٍ حذو سريره، دون أن ينسى إرسال الرّقم عبر رسالةٍ إلكترونيّةٍ إلى نفسه. وبينما همّ باحتساء الشربُّة، ظهرت له فتاة الحادث في زَيِّ نادِلِ المطعمِ، ومدّت إليه نصفَ ليمونةٍ. أخذَها مبالِغًا في إبطاء حركةِ يدِه كمن يريد التأكّد من موضع قدمه وهو

يصعد السُلّم في الظّلام. عصر نصف اللّيمونة في الشرّبة ولم يترك فيها قطرةً واحدة. كان يريد حموضةً تغلبُ مرارةَ الشّعور بالذّنب. وقبل أن يناصف الصّحن، شعر بوخزةٍ في جنبه الأيسر، فوق عظمة الخصر بقليلٍ، سرعان ما تحوّلت إلى مساميرَ تُدقُّ في نصفه العلويّ كاملاً، لتنحصرَ أخيرًا عند الترّقوّة. وفجأةً، اندفعتِ الأرض نحوه.

أحدثَ تدافعُ النّاسِ حولهُ جلبَةً كبيرةً. ولمْ يكنْ ما حصلَ سوى لكزة منّي، ستؤخِّرُ سليمانَ عنِ العودةِ إلى البيتِ قليلاً، فبعضُ التّدميرِ ضروريٌّ للإلهامِ البشريِّ. ومنْ ثمّ، تُرِكَتْ سيّارتُهُ أمامَ بوّابةِ المطعمِ، بينما نُقِلَ بسيّارةِ الإسْعافِ إلى المستشفى حيثُ تركتُهُ بينَ أيْدي الأطبّاءِ، ورحتُ أجوب الأرْوِقة. توقّفتُ قربَ سيّدةٍ شابّةٍ في جسدِ عجوزٍ، تلقّتْ للتّوّ خبرَ عودَةِ السرّطانِ إلى جسدِها بشراسةٍ تفوقُ ما كانَ عليهِ الورمُ قبْلَ استئصالِه. وعندما رأيتُ نفسي في عينيْها، أيقنتُ أنهّا هي أيضًا قد رأتْني ماثِلاً خلفَ طبيبِها، ولكنّها لم تأبه بحضُوري، بل شغلَتْ نفسَها عنّي بمحادثة الطّبيبِ وأنفها يرتعِشُ:

- لمَ كبَّدتني مَشقّةَ دُخولِ غُرفةِ العمَليّاتِ إذنْ، طالما هو عَنيدٌ إلى هذا الحدّ؟ أكُنتَ تجُرّبُ حلاً أمْ ستقدّمُ حالتي كورقةِ بحثٍ تجعلُ منكَ الأبرعَ في المنافسة بينك وبين زملائِكِ الأطبّاء؟!

انحنتِ الممرّضةُ الحاضرةُ معهُما كهيكلٍ آليٍّ، لتلتقِطَ ورقةَ نتائِجِ

التّحاليلِ التي قذفتْ بها المريضةُ في اتجّاهِ طبيبِها لحظةَ طرحِها لكلِّ تلكَ الأسْئِلة. ولأنّ الممرّضاتِ يحملنَ غَيْظًا فطريًّا تجاه الأطبّاءِ، راقَ لها أنْ تراهُ يتلقّى إهانةً استحقَّها في نظرِها. ولو كان الأمرُ بيدِها لأضافتْ: «ما كانَ عليكَ إصلاحُ الريموت كنترول، ما دمتَ تنْوي رميَ التّلفاز يا دكتور!!».

لكنّها اكتفتْ بضمِّ الأوراقِ إلى صَدْرِها، وظلّتْ تراقبُ المريضةَ الّتي عادتْ وسألتْ بثقةِ منْ يُصدّقُ الأطبّاءَ، وهي تنظرُ إليَّ مُباشرةً:

- بغضّ النّظر عن كلّ هذا، كم بقيَ لديّ من الوقتِ يا دكتور...؟

***

خطرَ ببالِ سليمانَ أنّ هذِهِ البنْتَ الّتي كانتْ تلمِيذةً في مَدْرسةِ السيّدة نبيلة، تنفردُ، ولا بُدَّ، بميزةٍ غير اللّباقةِ وصِياغةِ الكلامِ المنمّق... ميزة جعَلتِ السّيّدةَ نبيلة تختارُها منْ بينِ طالباتِها، لتُزوّجَها ابنَها البكرَ. ولكِنْ، أيُّ ميزةٍ هذه؟ ظَلَّ يفكّر في الأمر، فالبنت لم تكن نادرةَ الجمال، وزوجته ليست من النّوع الّذي يهتمُّ بالبلاغةِ في التّعبيرِ وفنُونِ الوصْفِ. مدّتْ إليهِ منال كتابًا رفيعًا جدًّا، وقالت:

- لعلّهُ يُسلّيكَ في هذِهِ الأيّام... أو هذا ما أعتقِدُهُ على الأقلّ.

ثمّ قبّلتْ جبينَهُ، وحينَ وصَلتْ إلى البابِ، التفَتتْ إليْهِ مجُدّدًا وقالتْ:

- اضطرّ باسم إلى تأخير رِحلته أسْبوعًا آخر في تركيا، لذا سَتراني هُنا كثيرًا، وسأقْضيِّ أنا والأطفالُ هذهِ الفترةَ في بيْتِك... أكمِلِ الكتابَ سرَيعًا من فضْلكَ يا عمّي، فضيفتُكَ تُلحُّ على معرفةِ رأيِكَ في ما تنشُر!

في تلك اللّيلة، لم يكن محُاطًا بمنال وأطفالِها في شقّتِهِ، بلْ كان وحيدًا، في غُرفةِ العِنايةِ المركّزة، مُقيّدًا بأجهزةٍ كالأعينُ فوْقَ صدْرِهِ، وكتابُ منال بعيدٌ عنْه. تذكّرَ دراسةً تقولُ إنّ المرضىَ المسِنِّينَ، مُعرّضونَ للموتِ بعدَ عامٍ منْ إجراءِ عمليّةٍ جراحيّة. فقالَ بصوتٍ مرتجفٍ مسموعٍ، وهو يخاطبُ السّقفَ كأنّهُ يقفُ على منصّةٍ:

- لكنّني لستُ مُسنًّا، ولمْ أُجْرِ عمليّةً جراحيّةً! لمَ إذنْ أشعُرُ بالموتِ ممسِكًا بيدي يا نبيلة؟!

ملأ أذْنَهُ صَوتُ أمّهِ، السيّدة حمدةَ، وهي تطلقُ الزّغاريدَ ليعرف الجيران أنّ زوجةَ ولدِها حامل. ولاحت السّيّدة نبيلة مُستنِدةً إلى الجدارِ، تتلقّى قُبلَ أمّهِ وأحضانهَا، وتتبادلانِ نظراتٍ، لم يرَ فيها سُليمان إلاّ تواطؤَ جسدِهِ مع حِيَلِ النِّساءِ ومكرِهنّ. كان في ذلك الحينِ يقفُ قرب نافِذةٍ، أتاحتْ لهُ رؤيةَ الجاراتِ وهنّ يتوافدْنَ ليُشارِكنَ أمَّهُ حفْلةَ الزّغارِيد. ومِنْ مَكانِهِ ذاكَ، بدت لهُ المسافةُ الّتي كان يقْطعُها ليصَلَ إلى مَلعَبِ الكرةِ. اسْتغربَ كيفَ كانتْ أمُّهُ تكتشِفُ وجودَهُ فيهِ بكلِّ سُهولةٍ، وتلحقُ بهِ لتُعيدَهُ إلى عروسِهِ وإلى مجالسِ الرِّجَال. وداهمتْهُ ذكرَى هَدفٍ وشِيكٍ في آخرِ مباراةٍ

لهُ. كان قريبًا مِنْ مرمى المنافسِ، لا تفصلُهُ عنهُ سوى خطواتٍ قليلةٍ، وكان رفاقُهُ ينتظرون تسديدَه الكرةَ بضربةٍ مقصّيّةٍ اشْتهَرَ بها آنذاك. فسمعَ صُراخَ أُمِّه وهو في الهواء، سمعها تقطع عليهم اللّعبَة والزمن والمتعة والأنفاس، شاقّةً الملعبَ نحوه... فمرّتِ الكرةُ، وسدّدت قدمُهُ الخواء.

في تلكَ اللّيلةِ، طبختْ أمُّهُ خروفًا صَغيرًا. وضعتْ رأسَهُ بموازاةِ مقعدِهِ فشعُرَ بالغثيانِ، لا لأنّهُ يكرهُ اللّحمَ، أو لأنَّ الجماجمَ تروِّعُهُ، ولكنّهُ رأى رأسَهُ يفترشُ الأرزَّ في ذلكَ الصّحن... رأى رأسَهُ بأذُنيْهِ الوطواطيّتينِ وهو يحُدّقُ فيه. فشعُر بأنّ ما حدثَ بينَهُ وبينَ نبيلة، في غرفةِ نومِهما، إنّما حدثَ بتوجيهٍ عنْ بُعْدٍ، مِنْ أمِّهِ السيّدةِ حمدة الّتي تسكنُ الغرفةَ المجاورةَ، لذلك لم يلمسْ نبيلة إلاّ بعدَ أربعِ سنواتٍ منْ ذلكَ النّبأِ السّعِيد.

تركتُ سليمانَ يلتقطُ نفَسًا طويلاً، قبلَ أنْ يغطسَ ثانِيَةً في ذاكِرتِهِ، وتوجّهْتُ إلى سَيّدةٍ في غُرفةِ العِنايةِ المركّزة المجاورةِ، فأصابتها رؤيتي بالهلع. ورحنا نلعب اللُّعبةَ نفسها التي أشاركها جميعَ البشر: أن يهربوا منّي وأنا أطاردهم. لن أسأل عمّا إذا كانت هذه اللّعبة تمتعكم، فهذا أمرٌ لا يعنيني.

***

لأمجد، أوسطِ أبناءِ سليمان ونبيلة، مَلامِحُ متجهّمةٌ تدلّ على ضيق صدره. وهو يميلُ إلى الفظَاظَةِ، فيختِمُ كلامَهُ عادَةً بضِحْكةٍ

عَجْلى. ولكنّ شَخصيّتَهُ كانتْ على خِلافِ ذلك. فهو بارع في الاتِّصالِ بالجانبِ الأنثويِّ في داخلِهِ، دونَ ابتذالٍ، ودون الإخلالِ بمقوّماتِ الرُّجُولةِ. لا يتَحرّجُ قَطُّ مِنِ ارتِداءِ اللّونِ الزّهْريِّ، أو وضْعِ أساورَ مُلوّنةٍ في يدِهِ، أو أحْذِيةٍ لافتةٍ بألوانها الفاقعة، وهو حريص على تصفيفِ شَعْره بطُرقٍ مختلفة. ولم يتردّد يومًا في إهداء ورْدَةٍ دونَ مُناسبةٍ. ولطالما اعْتُبِرَ في نظَرِ مَنْ حولهُ جذّابًا وجريئًا أكثرَ مِن كونه مخُنّثًا. فقدْ كانتِ الرُّجولةُ جُزءًا مُتأصِّلاً في الأبناءِ، بسببِ ظروفِ زواجِ والدِهم وهو طفلٌ، ما اضْطرَّ والدتهَم إلى الدّفْعِ بهم نحوَ النّضْجِ قبْلَ الأوان.

صَحِيحٌ أنّ هناكَ طُرقًا مخُتلفَةً للمضيِّ قدُمًا، ولكنّ أثقَلَها على البشرِ أنْ يتقدّمَ أحدُهم على كُرسيٍّ مُتحرّك، مثلما يحدُثُ مع سليمانَ وهو يغادر المستشفى، بعد أنْ أقامَ بهِ عشرةَ أيّام. ولئنْ ظنَّ سُليمان أنّ محبّتَهُ لأبنائِهِ متساويةٌ، يظَلّ أمجد الّذي يدفعُهُ نحو السّيّارةِ، الأقربَ إلى قلبِهِ، ربّما بسببِ تيْنِكَ الأذُنينِ الوطواطيّتينِ اللّتين ورثهما وحدَهُ عنْ أبيهِ، فللسُّلالاتِ جيناتٌ تتشبّثُ بالبقاء.

كان أمجد وقصيّ يتجادلان حول أنواع السيّارات طَوالَ الطّريقِ إلى البيْتِ، فيما اسْتَلقى سُليمانُ على المقْعدِ الخلفيِّ ليرتاحَ. الحقيقة هي أنّ كلّ ما أرادَهُ هو المزيدُ منَ الخصُوصيّةِ، لمراسلةِ سمر بأمَانٍ. وبينما هو يمسِكُ بهاتِفِه، مُنتظِرًا أنْ تُكمِلَ كتابَةَ ردِّها، اسْترجَعَ صِبا ولدَيْهِ، وتحديدًا حينَ كانَ يقُومُ بتعليم أبنائه قواعِدَ القيادَة. فقدْ تجاوزَ كلٌّ مِنْهما الرّابعةَ عشْرَة منَ العمرِ، وهي السّنُّ الّتي اعتبرها

سُليمان موجبةً لبدء التّدْريب. كانتْ حماسةُ أمجد تدفعُهُ إلى إيلاءِ التّعلُّمِ الأولويّةَ، وتقْديمِ ذلكَ على الطّعامِ واللّعبِ والأصْدقاءِ، ففاقَ بمهارتِهِ توقّعاتِ والدِيْه. أمّا قصيَ فشقَّ طريقَهُ بخوفٍ أشدّ، كأنّهُ مَحَطُّ أنْظارِ الجمِيعِ، أو كأنّهُ يخشى أنْ يُعاقبَ بعصًا ستمتدّ إليه مِنَ المقْعَدِ المجانب لو أخطأَ في حركةٍ أو نقلةٍ مّا، فكانَ كلُّ ما يعْنيهِ هو ألاّ يرتطِمَ بسيّارةٍ، أو يتسبّبَ في موتِ أحدِهم. ورغم أنّ الأبَ يتذكّر بدقّةٍ كُلَّ تلك التفاصيل، لمْ يشارِكهما الحديث عن السيّارات، بلْ جعلَ مِنَ الصّمْتِ قناعًا يحْمِي بهِ ذاكرتَهُ، خاصّةً وأنّ قلبَهُ معلّقٌ في مكانٍ آخر. ابتسمَ لصُورةِ فطيرةِ تفّاحٍ ظهرَتْ داخل صندوق المحادثات بينه وبين سمر الّتي شدّدتْ على أنهّا أعدّتهْا احتفالاً بعوْدتِهِ، وأنهّا ستوصِلُها إليه بنفْسِها، إذا غادَرَ ولدَاهُ البَيْت. لكنّها أُصيبت بخيبة أملٍ مثل سليمان، حين علمَتْ أنّ زوجةَ ابنِهِ وولديْها سيبيتانِ في بيتِهِ، وقدْ تطولُ المدّةُ حتّى عودةِ باسم مِنْ تركيا.

***

في المقهى، كان باسم يرى تردُّدَهُ بأمِّ عينيْهِ... فيلعنُهُ، وفي أحيانٍ أخْرى يحمدُهُ، وفي الحالتينِ، يلهثُ بصبرٍ مُطاردًا النّادلة دون أن يتفوّه بكلمةٍ واحدةٍ أمامَها، مثلما هو حالُهُ منذُ أسْبُوع. حتّى في عمله اكتفى بإجْراءِ بعْضِ الاجتماعاتِ على جهازِهِ، وهو ما مثّل لطْخَةً سَوْداءَ في مَسِيرته المتميِّزة، خاصّةً وأنّهُ يزورُ الموطِنَ الأصْليَّ للشرّكةِ الّتي يعملُ بها. أمّا بقيّةُ يومِهِ، فظلّ يقضّيها مُعتذِرًا من هذا وذاكَ، معلِّلاً تقصِيرَهُ بظروفٍ عائليّةٍ يمرُّ بها، يفصّلُها زملاؤُهُ

بسرْدِ قصّةِ وفاةِ والدتِهِ المفاجِئَة. لكنَّ الفُرصَ تُغافلُ الموتَ والرّتابةَ والإحباطَ، وتأتي مِنْ حيثُ لا يعلمُ البشرُ. ففي هذِهِ المرّةِ، كان باسم يغادرُ دورةَ المياهِ، بعْدَ أنْ أفرغَ كلَّ كؤوسِ الشّايِ الّتي طلبَها منذُ التّاسعةِ صباحًا، عندما انتبهَ إلى أنهّا وقفتْ قريبةً منهُ بالصّدفةِ، محُاولةً تعليقَ «ليّاتِ الشّيشةِ» على لوحٍ خشبيٍّ موازٍ، كانت تقذفُ بها الواحدة تلو الأُخرى كأنهّا تنشرُ ثيابًا على حَبْلٍ غسِيل. وتزامُنًا مع خروجِهِ مِنْ دورةِ المياهِ، ألقتْ بواحدةٍ منها إلى أعْلى، ولكنّها لمْ تصِلْ إلى وجهتِها، فارتدَّتْ عائدةً في اتجّاهِ رأسِها، مع التفاتتِها نحوَهُ لحظةَ خروجِهِ. كان سيَسْعدُ لو أنّهُ استطاع أن يُصبِحَ بطلاً خارقَ السرُّعةِ، ويتلقّفَ الضرّبةَ بدلاً منها، ولكنّ الطّرف الخشبيَّ ارتطمَ برأسِها ارتطامًا أحدثَ صوتًا مسمُوعًا. فانحنتْ تفركُ المكانَ متألّمةً شاتمةً، بينما ظلَّ هو يحُدّقُ في تلكَ المنطقةِ منْ صدْرِها الّتي انكشَفتْ صُدفةً عندما مالت بجذعها نحو الأرض. ورغم أنهّا نظرتْ إليهِ، وقالتْ كلامًا باللّغةِ التركّيّةِ لم يفهمْهُ، فقدْ خمَّنَ مِنْ حركاتِ يَدَيْها أنهّا كانَتْ تبرِّرُ لهُ ما رآهُ قبْلَ قليلٍ، ثمّ خطرَ ببالِهِ أنْ يرُدَّ عليْها بطريقَةٍ مخُتلفَةٍ، ففتَحَ هاتفَهُ، واتجّهَ صَوْبَ برنامجِ ترجمَةٍ، كاتبًا عبارةَ: «أنتِ لا تستحقّينَ هذا الألمَ، ولا هذا العمل... أنتِ أميرةُ إسطنبول». تقدّمَ إليْها خطوةً، ورفع هاتفَهُ إلى مستوى نظرها لتقرأَ ما كتب. بدتْ كورقةِ شجرةٍ شديدةِ الهشاشةِ، وهي تبتسمُ خجلاً، ثمّ أخرجتْ هاتفَها من جيْبِ سروالها الخلفيِّ، وكتبتْ له: «شكرًا لك». حينَ قرأَ الترّجمةَ، أعادَ عليْها ببطءٍ، ما كان قد حفِظَهُ سابقًا

منْ لغتِها التركّيّةِ: «تشكريلدوم». فضحِكتْ منْ نُطقِهِ المتعثِّرِ... ضحِكتْ كثيرًا، وهي تُغطّي فمَها بكفِّها، وتعتذرُ لهُ بصوتٍ ناعمٍ كالخطيئةِ البشريّة.

***

الاختلافُ في أدقِّ التّفاصيلِ، عادةٌ قديمةٌ تلازمُ البشَرَ، وإنْ كانوا ينتمُون إلى أسرةٍ واحدةٍ. فبيتُ سليمان الكبيرُ زيادةً عَنِ اللُّزومِ والمكوّنُ من ثمانِي غرفٍ وصالةٍ شاسعةٍ، كان محلَّ خلافٍ بين الزّوجينِ من جهةٍ، والسيّدة حمدة من جهةٍ ثانية. فقد كانت السّيّدة نبيلة تفضّل بيتًا صغيرًا، مُكوّنًا مِنْ طابقينِ يقيمُونَ فيه مع حماتِها بالطّبعِ. في حين أصرَّ سُليمان على العيشِ في عمارةٍ مأهولةٍ بسكّانٍ متنوّعينَ، خاصّةً بعْدَ أنْ أصبحتْ أمُّهُ مُسالمةً جدًّا، ولم تعُدْ قادرةً على إدْخالِ أصابِعِها إلاّ في عيونِ المقصِّ. أمّا السّيّدة حمدة الّتي لمْ تكنْ تصْطدِمُ إلاّ بالسرّيرِ وهي في طريقِها إلى الخزانةِ، فقدْ قالتْ إنَّ التّلوُّثَ يزيدُ في نسبةِ المواليدِ الإناثِ، وإنّ عليهم الانتقالَ إلى مكانٍ أقلّ ازدحامًا، لتَحْظى الأسرةُ بولدٍ رابع.

عملتِ السّيّدة نبيلة خمسًا وعشرينَ سنةً في التّعليمِ، قضَّتْ آخرَ عشرِ سنواتٍ مِنْها مُديرةَ مدْرسَةٍ. وقد عُرِفتْ أثناءها بإحسانها الدائم إلى صديقاتِها وجاراتِها، ولكنّها كانت تحمِل كُرهًا مبَطّنًا لا تفسيرَ لهُ لكلِّ واحدةٍ تبدُو عليْها علاماتُ السّعادةِ مع زوجها. فكانتْ تتحاملُ على كلّ من تحمل في عنُقِها علامةَ ليلةٍ حميمةٍ، أو

تعمدُ إلى إظهار هديّةٍ قدّمها إليها زوجُها، فضلاً عنْ أنهّا غيرّتْ نصابَ حصصِ المعلّماتِ اللاّتي أظهَرْنَ بوضُوحٍ أنَّ رِجالهَنّ يغارُونَ عليهنّ، وغيّرت المهامَّ المنوطةَ بعهدتهنّ، مضيفةً إليهنّ واجباتٍ تفوقُ ما تُكلَّفُ بهِ زميلاتهنّ في العمَل. ولمْ تبرِّرِ السّيّدة نبيلة لنفسِها هذا التّصرّفَ، إلاّ برغبتِها في الإنصافِ، ولا شيءَ سِواهُ، فمِنَ العدْلِ أنْ تشْقَى الّتي تحَظى بحياةٍ زوجيّةٍ سعيدةٍ، مقابل بعضِ الرّاحةِ لكلِّ منْ تعاني في زواجِها. والحقّ أنهّا كانتْ تفعلُ هذا القليلَ ممّا كانت ترغب في فعله بذوقٍ وحنكةٍ، كأنهّا تملأُ خزّانَ وقُودِ سيّارةٍ مُستأجرةٍ، قبْلَ إعادتِها إلى مكتبِ التّأجيرِ.

في أحَدِ مجالس التّعارفِ الخاصّةِ بنساءِ الحيِّ، التقتِ السّيّدة نبيلة الجارةَ سمر، ذاتَ القصّة المتدلّيةِ فوقَ جبينِها وعلى أطرافِ وجْهِها المسْتَدِير. طلبت أرقام هواتفِ كلِّ السّيّداتِ الحاضراتِ، واسْتَثنتْ سمر، لأنهّا رأتْ زوجَها يُوصلها حاملاً عنها سلّة البسكويت الّذي أعدّته حتّى بابِ المجلسِ، ثمّ يقرعُ الجرسَ، ويناوِلُها السّلّةَ قبل أنْ تفْتَحَ لها مُضِيفتُها. فقد بدا فاضل، وهو ينظرُ إلى أعلى البيتِ ونوافذِهِ، ثمّ يضعُ إصبعَهُ على جرسِ البابِ، كسائحٍ ظريفٍ. ولئنْ تأفّفَتْ جارتهُا سمر مِنْ حماقةِ زوجِها، فإنّ السّيّدةَ نبيلة لمْ ترَ في فاضل إلاّ ذلكَ الزّوجَ الّذي يغمرُ زوجتَهُ بلُطفِهِ. وحينَ عادَ إلى سيّارتهِ، كانتِ السّيّدة نبيلة قدْ ترجّلتْ منَ السّيّارةِ، تاركةً خلفَها سليمانَ الّذي سَلكَ طريقَ العودةِ، دونَ أنْ يتأكّدَ حتّى منْ صِحّةِ موقعِ البيتِ الّذي ستدخلُه زوجتُه. ولا يشكُّ حصيفٌ في أنّ هذا

اللُّطفَ الزّوجيَّ الّذي قدّمَهُ فاضل على مرأى مِنْ بصرِها، أعماها عنْ محبّةِ سمر أو تقبُّلِها كصديقةٍ أو جارةٍ، فظلّتْ تغلقُ شُرفتَها وتتجاهلُ وجودَها تمامًا كلّما صادَفتْها واقفةً قُرْبَ شبّاكِها، أو وهي جالسةٌ في مطبخِها، ولم تتحدَّثْ في أسبابِ ذلكَ حتّى إلى نفسِها.

في تلكَ الشّقّةِ بغرفها الزّائدة عن الحاجة، وعلى نحوٍ خارق لعاداتِ سُليمان، سقطَ رأسُه في كتابِ منال ساعةً وثلاثين دقيقةً. كان بصره ينزل من سطرٍ إلى آخر ببطءٍ واحتراسٍ شديديْن كمن ينزل سُلّمًا مُظلمًا فيتحسّس الدّرجاتِ بقدمه قبل أن يطأها. بينما غمر سليمانَ شعورٌ غريبٌ كان يصعد إلى السّطح درجةً درجةً. وأخيرًا عرف ابن حمدةَ معنى السّعادة، أو بالأحرى، جرّبها. فهو أعجز ما يكون عن احتوائها، ولو عاش مائة حياةٍ لما استطاع التّعبير عنها. كان كلّما قَلَبَ صفحةً، أحسّ بنفسه يقترب أكثر من سمر... إلى أن تكشّفَت له عاطفةٌ يجهلها تمامًا. قرأَ دون توقّفٍ، لا يستغرق في إراحة بصره إلاّ ما تستغرقه ابتسامةٌ طفيفةٌ تظهر في عينيْه أكثر ممّا تُرى على شفتيْه، أو ما تستغرقه رشفةُ شايٍ، لم يقاطعه سوى ملْءِ كوبه كلّما تناصف كأنّه يخشى على تلك العاطفة أن تبرد إذا بردَ الشّاي. لم يسمح لأيّ شيءٍ بأن يشتّت تركيزه في القراءة، غير أنّ نبيلة تغلّبت عليه في هذا أيضًا، فقد تذكّر آخر مرّةٍ ضاجعها فيها، تلك المضاجعة التي خرج بعدها عجوزًا. كان ذلكَ قبْلَ ثماني سنواتٍ. يومها، أظهرتْ لهُ زوجته بوضُوحٍ تامٍّ ضَجَرها مِنْهُ، فطرأت عليه أسئلةٌ سرعان ما تلاشت، مخلّفةً في أعماقه ألمًا لا يزول.... لكنَّ كلَّ ذلكَ بدأ يتغيرٌ الآن...

***

سبقَ اتّصالَ سمر ظهورُها خَلْفَ نافِذةِ مَطبخِها... كانتْ تتناولُ عشاءَها حينَما انتقلَ مِنْ غُرفتِهِ إلى حيْثُ يُمكنُه أنْ يراها كما يسْمَعُها. فابتسمَ لها قبْلَ أن يلفتَ انتباهه طيفٌ يتجوّلُ في شقّةِ حمَويْها في الأعلى. فتراجعَ إلى الخلفِ، وهو يخبرُها عَنْ قلقِهِ منْ أنْ تُفتضحَ علاقتُهما. فأسرعتْ بوضع أطباقها في حوضِ المَطبَخِ، واقتربتْ منَ النّافذةِ وهي تبتلعُ آخرَ لقمةٍ، ثمّ همستْ من هاتفِها:

- لا تقْلق... فجمِيعُنا مشْغُولونَ بالتّجاهُلِ، وحتّى لو لمحاكَ، فسينسِبونَ الأمْرَ إلى الأوهام. إنّ علاقتهم بي هي كما تقولُ السّتّ: «لا يوم وصالك هنّاني، ولا هجر منك بكّاني».

بدا سُليمان غير مستوعبٍ لما قالت، وهو يسترجعُ في ذاكرتِه شعورها الدّائم بالأمانِ منذُ عرفَها. فقدْ دأبا على التّحادُثِ كأنهّما يسيرانِ يدًا بيدٍ بينَ شرُفتِهِ ونافذَتِها، تحت مظلّةٍ واحِدَةٍ. ولمْ يكنْ سُليمان ليتمنّى أكثرَ منْ ذلكَ، فهو شديدُ التّقشّفِ بخُصُوصِ «وماذا بعد؟!». غير أنّ سيرةَ الحمَويْنِ هي ما أرخى عليها الصّمْت هذهِ المرّةَ، فمضىَ وقتٌ أشبهُ بِدَوِيِّ خليّةِ نحْلٍ في رأسِهِ، حتّى قرّر جلْبَ بيتِ الكبريتِ ليرِيُهَا إيّاه... وكانَ قدْ شيّدَ مُعظمَهُ، وبدأَ في ارتجالِ نوافذَ وشرفاتٍ خارجيّة. شرع يشرحُ لها ما سيُدخله من إضافاتٍ على ذلك المجسّم، فكشفت حركاته عن تشنّجه. كان غاضبًا من صمْتها، فهو ينذر بأنهّا ستنسحب إلى خارج المطبخِ، لكنّها ابتسمتْ

وهي تقولُ بحماسةٍ مفاجئةٍ:

- ذكّرني بيتُكَ هذا ببيْتِ الدُّميةِ «باربي» الذي أهْدَتْنِي إيّاهُ إحْدَى زميلاتِ أمِّي في الفِرقةِ. تساءلتُ حينها عن سرّ الابتسامة الدّائمة على شفاه «باربي» وصديقها، رغم أنهّما لا يتحرّكان. منذ دخلا بيتي وأنا أحلمُ بأن يصغر حجمي حتّى أبلغَ مقاسًا يَسْمَحُ لي بعُبورِ بوّابةِ منزِلِهما الكرتونيِّ، لعليّ أعثر على سرّ السعادة، وأنقُلهُ إلى بيتِنا.

أزاحَ سُليمانُ بيتَ الكبريتِ قليلاً مِنْ أمامِهِ، وشعُرَ بارْتياحٍ تامٍّ، أمّا هي فقد ثبّتت نظرها على بيت الكبريتِ دون أن تتوقّف عن الكلام:

- لكننّي أخجلُ مِنْ إخبارِكَ بأنّ العكسَ هو ما حدث! فقد نقلتُ إليْهما كآبتَنا، أنا وأمّي وفرقتها بعد أن طمستُ ابتسامة «باربي» بقلمِ شفاهٍ، ورسمتُ لزوجِها شاربًا ولحيةً حَجَبَا شفتيْه. غير أنّ المُحيِّرَ في الأمرِ أنّ عيونهما ظلّتْ تبتسم رغم ملامح الحزنِ الّتي فرضتُها على وجهيْهِما.

تنهّدتْ وهي تنظرُ إلى الزّقاقِ في الأسْفلِ، ثمّ عاودَتِ النّظرَ في اتجّاهِ بيتِ الكبريتِ:

- كان الأمرُ برمّتِهِ مُعقّدًا حينها يا سُليمان، حتّى إنيّ طويتُ مرحلة اللّعب وقفزتُ إلى مرحلة الإنجابِ، وإن كانَ منْ زوجٍ أحمقَ... يظلّ هذا أسْهلَ بكثِير من تلك الحيرة.

في تلك اللّحظة، تناهى إلى سمعهما غناءُ طفلٍ لا يكاد ينطق الحروف على نحوٍ سليم. التفتا إلى مصدرِ الصّوت، وابتسما رغمَ أنهّما لم يريا أحدًا. ولمّا نظرَ كلٌّ منهما إلى الآخر ثانيةً، كانت الابتسامة لا تزال كما هي على شفاههما.

- أحبُّكِ يا سمر.

سليمان نفسُه تفاجأ عندما سمع ما باح به للتّوّ، بل إنّه تفاجأ أكثر من سمر، فهي على الأقلّ عرفت كيف تتفادى الرّدَّ عليْهِ، وعادَتْ بهِ إلى أوّلِ ما دار بينهما من حديثٍ في تلكَ السّهْرةِ، مشِيرةً بسبّابتِها نحوَ الشّقّةِ في الأعْلى:

- كنتُ إلى وقْتٍ قريبٍ، أتناولُ معظمَ وجباتي في بيتِ حمُويّ... لديهما أيضًا دميةُ «باربي» توارثتها أخوات فاضل.

التفّ لسانُ سليمان حول عنقه كما يلتفُّ الحبلُ السرّيُّ حول أعناقِ الأجنّةِ في بطونِ أمّهاتهم، مُهدّدًا حياتهَم بالانتهاء قبلَ أنْ تبْدَأ، وأحسّ بأنّ الكلمَة الّتي تجاهَلتْها سمر تخنقه. أمّا هي، فلم تأبهْ لحالتِهِ، وواصَلتْ حَديثَها عنْ هذا النّوعِ مِنَ الدُّمى:

- هُناكَ (أشارتْ إلى شقّةِ حمويْها) يجُلسونهَا على الرّفِّ، وخَلْفَها نافِذةٌ مُغلقةٌ باستمرارٍ، وهي ترتَدِي فستانًا أبيضَ اللّونِ، وتبتسِمُ كما تفعلُ أمّي بعْدَ كلِّ أغنيةٍ، رغم كلِّ حزنها وتعبها.

وفرَدَتْ على وجهِها ابتسامةً كبيرةً ومصطنعةً جدًّا، لكنّهُ لمْ يُبادِلْها إيّاها.

* * *

ستفكّرون طويلاً في ما دفعني نحو ذلك الثّلاثينيِّ ذي العينينِ المغتبطتينِ، الّذي قضىّ السّاعةَ الماضِيةَ على الطّريق في سفرٍ طويلٍ، محُاولاً ابتكارَ بعضِ المغامراتِ الصّغيرةِ ليُسليِّ نفسَهُ، فيتجاوزُ إحدى السّيّاراتِ تارةً، ويتركُها تتجاوزُهُ تارةً أخرى. وبخيالِهِ الشّعريِّ، كان يصنعُ مُعادِلاً للبَحْر... ويصرخُ: أنا الجزْرُ، ثمّ يدوسُ المكابح قليلاً ليتراجعَ، وفي أعقابِ ذلكَ يصيحُ: أنا المدُّ، ثمّ يعاود الإسراع. ولئنْ حدثَ وقُتِلَ شبابٌ كثيرون، نتيجةَ هذا النّوع منَ الألعابِ، فإنّ ذلكَ الشّابَّ، ويا للمفارقةِ، لمْ يُقتلْ إلاّ حينَ كفَّ عنِ اللّعب. كان قد توقّفَ قليلاً على جانبِ الطّريقِ، سامحًا لأحدِ الجِمالِ بالعبور. وفي الأثناءِ، تفقَّدَ ثيابَهُ المعلّقةَ في الخلفِ، فانتبهَ إلى أنَّ معظم الطّبقة البلاستيكيّة الشّفّافة التي تغلّف الثّيابَ، قد انسلَّت إلى الأسفل، فخرجَ منَ سيّارتِهِ. ثمّ فتح الباب الخلفيّ من جهة الطّريق وانحنى ليعيد ذلك الغلاف إلى مكانه ويثبّته. وعندما أتمّ مهمّته على أكمل وجهٍ، انسحب إلى الخلف بخطوةٍ ونصفٍ. خطوةٍ ونصف إلى الوراء لاحتضانِ شاحنةٍ مسرعةٍ كانت تطوي الطريقَ في اللّحظةِ نفسِها، وذلك كلّ ما كنتُ أحتاج إليه لأتمّ مهمّتي أنا أيضًا. شبرٌ أو أقلّ، كان كافيًا لينجو. ظلّت الأغنية الصّاخبةُ تصْدَحُ في سيّارته، وبابا سيّارتِهِ من الجهةِ اليُسرْى مفتُوحينِ... في تلكَ اللّحظةِ، هبّتْ رياحٌ فضوليّةٌ حرّكتْ أوراقَ ديوانٍ على مقعدِ السّيّارةِ الخلفيِّ، موقّعٍ باسمِ «منال زهير». تصفّحَت الرّيح الورقَ بغضبٍ، فكانت

تقلب بعضه ثمّ تعود به إلى صفحة الإهداء. كان الثّلاثينيّ قد صوّرَ صفحةً من الدّيوانِ نشرها على صفحته الافتراضيّة مشيرًا إلى الكاتبةِ، فشكرتْ لطفَهُ، وتمنّتْ لهُ قراءةً ممتعةً، وأضافتْ أنّهُ أبهجَ يومَها بهذِهِ الإشارةِ، وقد حدثَ ذلكَ بالفعلِ، إذْ أمضتْ صباحَها في تنظيفِ حمّامِ حمْوها سليمان، ووظّبتْ شقّتَهُ، قبلَ أنْ تسألَ نفسَها بعْدَ ظهيرةِ ذلكَ اليوم: لمَ تفعلُ ذلك؟ ولمَ ليستْ في مقرِّ عملٍ بدوامٍ رسْميٍّ، كحالِ أسماء زوجةِ قصي مثلاً!؟ وهل هي مجرّدُ عالةٍ على زوجِها، حينَ تكتفِي بتأليفِ الكتُب؟ فلم تجد إجابةً عن كلّ أسئلتها أبلغَ من هيئتها. كانت في ميدعةٍ ملطّخةٍ ببَعْضِ الكلور الّذي أفسدَ اللّونَ الأصليّ وجعلَهُ باهتًا. لكنّ رسالة ذلكَ القارئِ الثّلاثينيِّ، قد محت تلك الإجابة ومن ورائها كلّ أسئلة منال.

وقتُ الوفاةِ: (11:27)

***

مازال قصيَ يحاول إقناع نفسه بأنّه يستحقّ زوجته أسماء. كان يتحيّنُ لحظاتِ جلوسِهما أمامَ شاشةِ التّلفازِ، منتظرًا اسْترسالهَا في الكلامِ، ليخبّئَ أصابعَهُ في شَعْرِها الأسْودِ المجعّدِ. وكان يميل مع رأسِها كلّما مالَ، وحينَ تصِفُ لهُ شيئًا مّا، أيّ شيءٍ تافهٍ، فإنّه ينظر في عينيها مباشرةً كأنّه يقول لها إنّ عينيك أبلغ من كلّ وصفٍ. أمّا تلكَ الأشياء الّتي لا تعجبُهُ فيها، فكان يجد لها مبرّراتٍ، حتّى عدم اهْتِمامِها بأيِّ أمْرٍ يخصُّهُ. فعل كلّ ذلك كيْ يحُبَّها أكثر. ولمْ تكنْ تلكَ

السّمراءُ القصِيرةُ، ذاتُ العينينِ السّوداوينِ الصّغيرتينِ، مِنَ النّساءِ اللاّتي يسهلُ تجنّبهنَّ. يكفي أن تضحكَ، فيُصْبحَ مَنْ أمامَها أسيرَ تَيْنكَ الوجنتينِ المصقولتيْن على نحوٍ فريد. باختصارٍ، لم تكن بصمةُ أسماء في أناملها، بل في ضحكتها.

وكانتْ تلكَ العلاقةُ الّتي وضعتِ السّيّدة نبيلة ابنَها فيها، غيرَ متكافئةٍ منذُ البدايةِ، فظلّتْ أسماء تأخذُ منْ روحِهِ قطعًا صغيرةً، حتّى فقدَ الكثيرَ منها وهو يبحثُ عن رضَاها فحسب. وهي لا تفعلُ ذلك باستبدادٍ أو تشفٍّ... لا، على الإطلاقِ، إنّها امرأةٌ فقدتِ الاهتمامَ برجُلٍ يكرّرُ أيّامَهُ، رجلٍ اطمأنّ للرّوتين إلى الأبد، فكانت تردُّ على معظمِ كلامِهِ بابتِسَامةِ زبُونٍ ينفِّذُ توجيهات المصوِّرِ قبْلَ أنْ يلتقِطَ لهُ صُورة. وعلى العكسِ، كانَ قُصَي راضيًا تمامًا عمّا وصلَ إليْهِ، إنّه يملكُ جوابًا جاهزًا وقديمًا لكلِّ سُؤالٍ، مهما بدَا جديدًا، وهو على يقينٍ من قدرته على إصْلاح أيِّ خللٍ يحدُث في العالمِ، بلمْحِ البصَرِ، يكفي أن تتاح لهُ الفُرصَةُ فحسب. وما عقّد الأمر في ذهن أسماء، أنّهُ شَخْصٌ لا يفكّرُ في الغدِ، ولا يُخطّطُ لأيِّ شيءٍ خارجَ اللّحظةِ الّتي يعيشُها. وحينَ كانَ يتسنّى لأسماء مراقبته في أيّامِ الإجازاتِ، سرعانَ ما تغرقُ في المللِ مِن الرّتابةِ. فهو ينامُ كثيرًا، ويصحُو بعدَ غيابِ الشّمسِ، ثمّ يُعِدُّ قهْوتَهُ، ويجلسُ أمامَ شاشةِ التّلفازِ يتحيّنُ برنامجًا أو فيلمًا ليتابعَهُ، فيما يُمطرُ خدّيْها بالقُبلِ. ولا يأتي بأكثر من هذا الطّقسِ الّذي يتكرّرُ منذُ تزوّجَا، لذلكَ فقدتِ الاهتمامَ

بهِ كليًّا، دونَ أنْ تخبِرَهُ بصريح العبارة، أو حتّى تهِينَهُ في أثناءِ نشوب شجارٍ بينَهما. صارَ كلّ ما يهمّها هو أن تكون مختلفةً عنه. قدْ تبدُو إنسانةً ناضجةً، ولكنّ ذلك غيرُ كافٍ لتحمُّلِ حُبٍّ خالٍ مِنَ المفاجآت... حبٍّ مُكرّرٍ ورتيبٍ كحبِّ قصَي الّذي تبرقُ عينَاهُ، وتلمَعان، وهو يهمِسُ إليها بعبارةٍ متوهّجةٍ مثل «أحبّكِ» بطبقةِ صَوتِهِ الباردة. يقول تلك الكلمة الميتة وهو يلمُّ شعْرَها، ويمسّدُ على كتِفِها بعدَ يومٍ عملٍ طويلٍ، ويحدِّقُ مبتسمًا ليرى أثرَ ذلكَ على وجْهِها، فترُدُّ بشَرحٍ مُفصَّلٍ عنْ حادثٍ تعرّض لهُ رجلٌ وصلَ إلى المستشفى بعْدَ أنْ تمزّقَ بنكرياسُهُ، أو بحديثٍ مستفيضٍ عنْ غموضِ مثانةِ أحدِ المرضى... ولمْ يكنِ الأمرُ ليُزعجَهُ لوْ أنّها تُوليهِ سمعَها فحسب، حينَ يُدلي بمداخلاتِهِ حولَ البنكرياسِ وعملِ المثانةِ أيضًا. لكنّها على العكسِ من ذلك، كانت تُظهرُ له تململُها منِ ادّعائِهِ المعرفةَ بكلِّ شيءٍ، وتقاطعُهُ ساخِرةً: «على حدِّ علمي أنتَ لم تدرس الطّبّ!». وبالطّبعِ، لمْ تكنْ أسماءُ تسترجِعُ كلَّ ما يحدثُ يوميًّا خلفَ طاولةِ المحاسبةِ، في قسمِ الاستقبالِ، بمستشفى يبعدُ نصفَ ساعةٍ عنْ شقتِّها. في بعضِ الأحيانِ لا تكاد تشاركهُ جملةً أو موقفًا، وحالما يتفاعلُ معَها بحماسٍ، يغزو الضّجرُ وجهها، إلى درجةٍ تزرعُ الشّكَّ في نفْسِهِ ويتوجّهُ مباشرةً إلى الاسْتحمامِ، دونَ أنْ يدْركَ أنّ ما يُثقلُ روحَها، شخْصٌ لا يتوقّفُ عنِ التّكرار.

- نزورُ والدي آخرَ الأسْبُوع... ما رأيُكِ؟

كانتْ مُنهمِكةً في ترطيبِ كعْبِ قدمِها وهيَ تردُّ:

- بالفِعْل... اشْتقتُ إلى عَمّي كثيرًا.

عدَّلَ منْ جِلستِهِ وهو يقولُ بحماسٍ:

- نزورُ والدي إذَن؟

هي في الحقيقةِ لا تتعمّدُ الإساءةَ إليْهِ، ولكنّها تملُّ من تحقّقِ توقُّعِها الدّائمِ للجملةِ الّتي سيقُولها بعدَ قليلٍ، لذلك ردّتْ بنوعٍ مِنَ الضّيقِ:

- ألمْ تفهَمْ حقًّا المقصَدَ مِنْ كلامي؟ هل منَ الضرّوريِّ أنْ أردَّ عليكَ بـ«نعم، نزورُ عمّي»؟ ألا تكفي جملةُ: «اشتقتُ إليهِ» لتُعلنَ مُوافقَتِي على اقتراحِك؟

اصطكَّت أسنانه بكأس الماءِ الّذي كانَ يشربُ منهُ، وهو مُسترخٍ على مقعَدِهِ، فأصْدرَ رنينًا حادًّا، يشي بما يجُولُ في نفْسِه.

***

لمْ يعُدِ اللّيْلُ عند سُليمان سِوى سمر... يُناجِيها همْسًا في هاتفِهِ، ويراها رأي العَينِ، وهي تحادثُهُ مِنَ النّافِذةِ المقابلةِ. لقد أصبح صيّادًا بارعًا في قنص ابتساماتِها بمزاحه، فيبالغُ إثر ذلكَ في الظّرافةِ، ويُلقي المزيد مِنَ النّكاتِ الّتي تتدرّجُ مِنَ المحتشِمة حتّى البذيئة، فتتحوّلُ الابتساماتُ الرّقيقةُ إلى نوباتِ ضَحكٍ جنُونيٍّ. وتحاولُ بدَوْرِها إضحاكَهُ، فترسلُ إليهِ صُورها في فترةٍ مّا مِنْ مُراهقتِها، حينَ كانتْ شديدةَ البدانةِ، فيحبُّ أكثرَ ما صارتْ عَليْه. كانتْ

شدِيدةَ الصِّدقِ فيما يخصُّ الصُّورَ الّتي تُرسِلُها، فلم تحاول إخفاءَ عيبٍ أو نتوءٍ بحيلةٍ مِنْ تلكَ الحيلِ الكثِيرةِ المتداولةِ في الأجهزة الحديثة. أمّا في حديثها إليه، فكانت كمَنْ تقرأُ لنفسِها رِسَالةً، ترفَعُ صَوتهَا في سَطرٍ، بينما تقرأُ السّطرَ الموالي بعَينيْها فحسب. وكانَ هذا الأمرُ يجعلُ سُليمانَ أشْبهَ بِفيلٍ يتحرّكُ في حُجْرةٍ صَغيرةٍ، فيبعثرُ الأشْياءَ مِنْ حولهِ، ويتلفّتُ، هاشًّا حشراتٍ غيرَ مرئيّةٍ تتطايرُ منْ حولهِ، ويُسقِطُ بعضَ الأواني، وهو يكرّرُ عليْها متوتّرًا: «لا تفكّري قبْلَ أنْ تتكلّمِي... لا تنتقِي لي ما يقالُ وما لا يقال!». لكنَّ سمر، بالطّبع، لن تستجيبَ لرغبته إلاّ بالضّحك. ولنْ تخْبرَهُ مثلاً عمّا حصلَ، عندما كانتْ تتبضّعُ في المتجرِ قبلَ يومَينِ، حينَ طلبتْ من أحدِ المتسوّقينَ أن يساعدَها، ويضعَ في عربة التّبضّع كيسَ مسْحوقِ التّنظيف الّذي يزنُ خمسةَ كيلوجراماتٍ، بينما مرّرت كفّها على بطنِها كأنهّا حامِل. تبسّمَ الرّجلُ بلطفٍ وقالَ: «طبعًا طبعًا... تحتَ أمْركِ». فقدْ كانَ لطفًا منهُ أنْ يُساعِدَها، لولا أنهّا لمْ تكنْ حامِلاً، وأنهّا غادرتِ المتجرَ، بعدَ ساعةٍ مِنَ التّجوُّلِ استعانَتْ في أثنائِها بالمتبضّعينَ لوضْعِ كلِّ الأشياءِ ذاتِ الحجمِ العائليِّ في عربتها الّتي تركتْها خلفَها. في الواقعِ، لمْ يقتصرِ الأمرُ على ذلكَ، فحتّى حينَ كانتْ تدخلُ الصّيدليّةَ مُستفسرةً عنْ دَواءٍ مُعينٍ، تتعمّدُ السّؤالَ عنْ آثارِهِ الجانبيّةِ المضرّةِ بالحوامِل. كما لمْ تسْلَمْ نوافِذُ تقْديمِ الوجباتِ مِنْ طلبِها المختُومِ بـ«لا تبخل بالخبزِ... فأنا حامِل».

في إحدَى تلكَ اللّيالي الّتي كانا يُثرثِرانِ فيها حتّى الصّباحِ،

وبينما هي تعدُّ كعْكَها المدوّرَ الصّغيرَ الّذي ستوزّعُهُ على الجاراتِ في اليومِ التّالي، قال لها فجأةً، ودون أيِّ مُقدّماتٍ:

- كنت في عمر الثّالثةَ عشرْةَ، أتحسّسُ طريقي هربًا منَ السرّيرِ الّذي يجمعُني بنبيلة... تخيّلي!

ولأنّها لمْ تكنِ المرّةَ الأولى الّتي يخْبرُها فيها بأنّهُ تزوّجَ طفْلاً، أكملَ دونَ أنْ ينتظِرَ دهْشَتَها:

- أظلُّ واقفًا بالقرب منْ نافذةٍ في بيتِ أمّي الشّعبيِّ، أحدّقُ إلى المرمَى الّذي أَصلحتُ شباكه صُحبةَ صديقيَّ، أيّامًا قليلةً قبْلَ زواجِي... بينما تنامُ عَروسي خلفي، مُتذمّرةً مِنْ لطخةٍ على خدِّها دفَعتْها إلى الزّواجِ مِنْ طفلٍ. غيرَ أنّها، في بعضِ الأيّامِ تنْسَاها وتنْسَى أنّني طفلٌ، فتدسُّ يدَها في ثيابي، وعندها أصرخُ حتّى أوقظَ أمّي في الغرفةِ المجاوِرة.

ابتسمَ، وهو يضيفُ برضىً:

- كلُّ هذا أصبحَ خلفنا أنا ونبيلة، تخلّصْنا منهُ، ولمْ نناقِشْهُ منذُ وُلد باسم... كما لمْ نعُدْ إلى الحديثِ فيهِ معَ الأبناءِ، وكأنّنا فريقُ كُرةِ قدمٍ صعدَ إلى الدّرجةِ الممتازةِ، ولا يودُّ أنْ يتذكّرَ أنّهُ كان يومًا مّا في الدّرجةِ الثّانية.

كانَ اللّيلُ قدِ انتصفَ، عندما نظرَ سُليمان إلى السّماءِ، وأضافَ:

- لم نعدْ، أنا ونبيلة، إلى هُناكَ مُطلقًا.

ثمّ انحنى ليلتقِطَ مِنْ بينِ فخِذيهِ سمّاعةَ هاتفِهِ الّتي سَقطتْ عنْ أذْنِهِ اليُسْرى، وعندما كان يُعيدها إلى وضعها الطبيعيّ همست سمر من الطّرف الآخر، لكنّهُ لمْ يُدرِكْ سوى بقايا كلماتِها:

- ... لذلك نتذكّرُ ما نحتاجُ إلى تذكُّرِهِ فحسب.

عرفَ أنّه فوّتَ ما قبْلَ «لذلك»... منْ كلامِها، فاكتفَى بالنّظرِ إلى وجْهِها، وحينَ وجدَها تبتسمُ، ردَّ عليْها بابتِسامةٍ مُضاعَفَة. عقدتْ سمر ذِراعيْها بقوّةٍ تحتَ صدْرِها كأنهّا تشعُرُ بالبردِ، وقد كانت في الحقيقة تكبحُ الكلامَ لا غير، لأنّ خياراتها في جلساتِ الفضْفَضةِ واسْتِدْعاءِ الذّكرياتِ، أقلّ منْ خياراتِ سليمان، إذ كان لديْهِ ما يجعلُها تشعُر بالخزي، في حينِ لمْ يكنْ ينتابهُ مثل هذا الشُّعور. ولأنهّا لا ترى في تكتّمها على أسْرارِها إلاّ ضرْبًا من اللّباقةِ، ابتسمتْ لهُ:

- ليسَ مِنَ الصّوابِ أنْ يكشِفَ لسانُكَ على ما لا يُرى بالعينِ منْ حياتكِ يا...

بلغتْ كلمةُ «حبيبي» طرفَ لسانهَا، ولا شكّ في أنّه اقتنصَها، فنظرُه كان مُرَكَّزًا على شفَتيْها، وأذناه مستنفرتان لتلقّف ما سيطلّ منْ فمِها، لولا أنّ سمر قد خنقت تلك الكلمة، قبلَ أنْ تنزلق...

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

ولنْ تعدِلوا...

كان ناقمًا وهو يغادرُ بيتَ سليمان في تلكَ اللّيلة. كرّرَ الاتّصالَ بسمر أكثرَ مِنْ مرّةٍ، مُلقيًا نظراتٍ خاطفةً إلى نافذتِها المقابلة عساه أن يَرى نورَ المصباح الذي يؤكّد وجودَها في البيت. عاود الاتّصال وهو على الدَّرَجَ صاعدًا إليها. ولم يكفّ عن مهاتفتها حتّى وهو يقرع جَرسَ بابِها، لكنْ لا حياةَ لمن تنادي. لمْ تفاجئه بفتحِ البابِ مخيّبةً توقّعاته، كما كانتْ تفعَلُ سابقًا. أدركَ آدم أنّهُ منحَ نفسَهُ نزوةً عابرةً، سرعان ما تحوّلتْ إلى حُبٍّ... حبِّ التملّك طبعًا. فقبْلَ عامٍ، كانتْ حياتُه تسير نحو الشّحوب جرّاءَ الرّوتين اليوميّ، حتّى دخلت الصّيدليّةَ، ظُهْرَ يوم ممطرٍ، سَيّدَةٌ في أوّلِ الأربعين، لمْ تمسَّ السّنواتُ مِنْ فِتْنتِها إلّا قليلًا. بادَرتْهُ بسُؤالٍ عَنْ دَواءٍ مُعيّنٍ، أَيُؤثّرُ على جنينِها أمْ لا؟ وحِينَ سَألَها آدم عمّا إذا كانتْ تستخدِمُ أيَّ نوعٍ مِنَ المثبّتاتِ، وصفتْ لهُ نوعًا قديمًا جدًّا، اسْتخدَمتْهُ في حَملَيْها السّابقينِ، حتّى إنّهُ لمْ يعُدْ موجودًا بالأسْواق. فاحتفظَ بلطافتِهِ، وهو يسألُها عمّا إذا كانتْ بالفعْلِ تستخدمُ هذا المثبّتَ في الوقتِ الحاليّ، وعمّا إذا كان الذي وصفَهُ لها طبيبًا مباشرًا لعمله، أم مُتقاعِدًا؟! في تلكَ اللّحظةِ، لعِبَ آدم دورَ المحقِّقِ الماكرِ، ليرفِّهَ عنْ نفسِهِ، بينما مارستْ سمر

بطولتَها المعتادةَ في تقمُّصِ دوْرِ الضّعفِ، تحقيقًا للمتعةِ، لا أكثرَ. وهُنا تقاطَعَا. كان آدم يسعى إلى إطالة تلك اللّعبة أكثرَ وقتٍ ممكنٍ، فأخبرَها بأنّهُ سيوفِّرُ الدّواءَ الّذي تسألُ عنهُ في الغد. ومثلما توقّع هو أنّها ستستمرّ في لعبتِها، أيقنت هي أنَّ حِيلتَها انْطَلتْ عَلَيْهِ. فخرجت مستمتعةً بفتح بابِ تسليةٍ جديد. تأجّلَ توفير الدّواء من يومٍ إلى آخر. وبعد انقضاء أسْبوعٍ كامِلٍ، قدّرت سمر أنّ سرّ اللّعبة سيُفتضَح إن هي واصلتِ العودة إلى آدم بتعلّة الدّواء، فأصبحتْ تُقدّم أحاديثَ جانبيّةً وتُؤخّر سؤالَها عن حاجتها، متجنّبةً منزلقاتِ الحديثِ عن حَمْلِها المزيّف. وبعدَ شَهرينِ فقطْ، كان آدم على بُعْدِ خطواتٍ مِنْ غُرفةِ نومِها. يومَها، تخلّتْ سمر عنْ كذبةِ الحَمْلِ، وعنِ الخوفِ الّذي أنقذَها سنينَ طويلةً. تلك السُّويْعاتُ التي جمعَتْهُما في غرفةٍ واحدة جعلت كلَّ ما عاشتْهُ مِنْ قَبْلُ مجرّدَ خيالٍ. لكنّها تراجعتْ عنْ هذه الحقيقة ما إن غادَرَ آدم شقّتَها، فهي تعرف أنّ تعاستَها لا يُمكن أن يتحمّلها أحد.

بعْدَ انتقالِ آدم إلى الحيِّ، بدأت الجاراتُ المثرثِراتُ بوسامة الصّيدليِّ الجديدِ يُثِرْنَ غيرةَ سمر، فطلبتْ مِنْهُ أنْ يَحْلقَ شعره كلّيًّا، في محاولةٍ يائسةٍ لجعله أقلَّ وسامةً في عيونهنّ. لكنّ ما شغَل ذهنَها حقًّا هو أن تكون الأجملَ في عينَيه. ومن أين لها ذلك دون أن تسترجع شبابَها ونضارتها؟ كيف تخفي آثار ولادتها القيصريّة؟ أمّا السّؤال الّذي لن يحتمل أيّ إجابةٍ فهو: كيف لجسدِها ألّا يترهّل وداخله روحٌ مستنزَفة؟ أصبحت سمر تتجنّب الظهور عاريةً أمام

آدم، فما إن تنزع ثيابها حتّى تلتصق به كي لا تترك له فرصة التّدقيق في جسدها، وتغلّف حقيقةَ ما تفكّر فيه بعناقٍ طويل. لاحظ تغيّرَ عاداتها في الفراش، حتّى إنّه باغتَها مرّةً بالسّؤال:

- لماذا تصرّين على التدثّر باللّحاف رغم أنّ الجوّ حارّ؟

فأجابت دون تفكيرٍ، كأنّها لم تكن مشتّتة الذّهن في تلك اللّحظة:

- أنا أستمتع بك أكثر تحت الغطاء... أحبّ عَرَقَكَ، ألا يعنيكَ ذلك؟

لم يعد يقنعها حضورُها بين يديه، رغم أنّها كانت تقف وقتًا طويلًا أمامَ المرآةِ، مُرتجِلةً وضْعِيّاتٍ تبدُو فيها أجْمَلَ وأصْغرَ مِنْ سِنِّها! لقد عاودَها الخوفُ، وصارت تشقّ عليها مقابلة آدم، والنّظر إليه وهو غافٍ حذوها، في كامل شبابه وعنفوانه اللّذيْن يذكّرانها بأنّها مشرفةٌ على سنّ اليأس. ونسيتْ فجأةً أنّها لطالما بدتْ لكلِّ من يراها أصغرَ سنًّا ممّا هي عليه. فلمْ تعُدْ ترى نفسَها إلّا كلبةً هرمةً يُداعِبُها سَيّدُها العَطُوف.

لم يمرّ على انتقالِ آدم إلى الحيِّ أكثرُ من شهرين حتّى انقطعتْ علاقته بسمر، أو بالأحرى، هي مَن أنهتْها بعد إقناع نفْسِها بأنّهُ شَخْصٌ ثقيلُ الظِّلِّ، كلّما أرادَ إضْحاكَها كرّرَ النّكاتِ نفسَها، مُتجاهِلًا، عَنْ قصْدٍ أو عن غير قصْدٍ أنّهُ حكاها سابقًا. وسمر، مثل كلّ النساء، لا تقبل برجلٍ عاجزٍ عنْ إضْحَاكِها. كان مستلقيًا

حذوَها، ورأسه بين بطنها وصدرها، متسلّيًا بلعبةٍ على أحدِ المواقع في هاتفه: *أجبْ عن الأسئلة لتعرف شخصيّتك: (A) انفعاليٌّ في حلِّ المشكلاتِ، (B) هادئٌ جدًّا في حلِّ المشكلاتِ، (C) لا تكترثُ عادةً لحلِّ المشكلاتِ وتتركُها لتُحَلَّ من تلقاء نفسها*. نظرتْ سمر إلى يدِهِ وهو يستعدّ للإجابة، فقرّرتْ، بينها وبين نفسها، إنهاءَ علاقتهما فوْرًا، إنْ هو اختارَ الإجابةَ (C)، أمّا إذا ذهب إلى أحدِ الخيارَيْنِ الأوّليْنِ، فستُعيد التّفكير في الأمر. مدّ آدم إصبعه، وضَغَط على (C).

***

ظلَّ باسم بعيدًا كلَّ البُعد عمّا يحدث حوله، فدينيز هي كلّ ما يعنيه الآن. كان يشعر بالغربة كلّما عاد إلى وَطنِه، فيعجّل بالرّجوع إليها. وكمَنْ يلعَبُ تلك اللّعبة الّتي تطلب منك أن تصل النّقاط بعضَها ببعضٍ لتحصُلَ على الشّكلِ النّهائيِّ، تنقّل آدم بينَ البَلدَيْنِ، ولكنْ دون الحصُول على أيِّ شَكلٍ مَفهُوم. فأقربُ نقطةٍ وصَلَ إليْها كانتْ تلكَ الخطوةَ الّتي تعثّرَ أثناءَها عَمْدًا، ليَبدوَ كأنّه سيسقط أمامها، لكنّها لمْ تستقبلْهُ بينَ أحضانِها، كما يحدُثُ في الأفلامِ، بل فزعتْ منْهُ، وأفلتَ منها صوْتٌ كأنّه يصدر عن آلةِ صَعْقِ الحشراتِ، أفْقدَهُ مُتْعةَ السُّقُوطِ... وأيّ كائنٍ أبشعُ مِنَ الإنسانِ حتّى يبتكرَ للمَوْتِ أصْواتًا؟!

في تلكَ المرّةِ، وتزامُنًا معَ سُوءِ الأحْوالِ الجوِّيَّةِ، أظْهَرَ عدمَ

قدرته على التّقدُّمِ في طريق العشْقِ الغَريب الموصد بحاجِزِ اللّغَة. ولم يُرجع عجزَه إلى تردُّدِه وخوفِه مِنْ ردِّ فِعْلِها. حتّى برامِجُ التّرجمةِ الفوريّةِ لم تنجح في مُساعدتِهِ، لقد جعلته مثل ببّغاء يكرّر العبارة نفسَها كلَّ مرّةٍ، وفي المقابل لم يكن لدى «دينيز» وقْتٌ لتسْتخْدِمَ تلكَ البرامج. فعلى عكسِ يومِهِ الّذي يقضّيهِ كسائح مُترفٍ، كانت هي مشغولةً بعملها وبأشياءَ أخرى لا يعلمها. ظَلّ يتابعُ تحرّكاتِها شاخِصَ العينينِ، راجيًا لها قليلًا منَ الرّاحةِ، لعلّهُ يَحْظى في أثنائها بنظرةٍ مِنْها، فتكشف لغةُ الجسَدِ ما عجزَ اللّسانُ عن الإفصاح عنه. لكنَّ كلَّ تسديداتِهِ كانتْ تخطئ مرماها، فكلّما تلحظُهُ تبتسِمُ له سَريعًا، ثمّ تنسَى وجودَهُ تمامًا في زحمةِ عملِها.

سقطَ عليلًا في غرفةِ الفندقِ رقم: «513» جَرّاء الحبِّ وبردِ إسْطنبولَ الجديدَيْن على جسَدِه. لقد قرّر أن تكون هذِهِ السّفرةُ مَصِيريّةً، وألّا يعودَ منْها قبلَ أنْ يبوح لدينيز بما يكنّهُ لها، ويحاول تكثيفه في أقلّ ما يمكن من كلمات. لكنْ، ليست اللّغة هي الحاجز هذه المرّة، بل الحمّى.

لمْ يكنْ لديَّ وقتٌ لأنتظرَ باسم حتّى يتعافى، ولمْ تظهَرْ عَليهِ عَلامَاتُ قِصَرِ الأجَلِ، فتركتُهُ مريضًا ووحيدًا هُناك، وذهبت أتابع واقِعًا بَائسًا وغيرَ متَوقّعٍ سَيسْتقبِلُ سمر بعْدَ عودتِها مِنْ سفَرِها. فبعْدَ فشَلِ كلِّ مُحاولاتِ آدم في التّواصُل مَعَها، قرّرَ القيام بخطوةٍ مجنونة. هذه المرّة، سيطرق بابَها في وضح النّهار. كان يدرك تمامًا أنّ ما سيفعله خَطِرٌ عليه وعليها، لكنّه صعد إلى شقّتها، محاولًا تجنّب

الأعين المبثوثة في الشارع أو المطلّة من النّوافذ والشّرفات. لم يكن حبًّا ما دفعه إلى تلك المخاطرة بقدر ما كان عنادًا وشعورًا بالنّقص، فكيف لعجوزٍ مثلها أن تتمنّع عن شابٍّ وسيمٍ مثله. كان يعوّل في خطّته تلك على عامل المفاجأة، فسمر لن تتوقّعَ منه هذا الجنون، وستفتح الباب وهي تظنّ أنّ إحدى الجارات تدقّ الجرس.

لا شكَّ في أنَّ الصُّورَ والمواقفَ الّتي يُسْقِطُها الإنسانُ عمْدًا منْ ذاكرتهِ تخرجُ تلقائيًّا مِنْ حياتِهِ. لكنّها، إذا حضرَ منْ يوقظُها، تعود في صُورةٍ يشمئزُّ مِنْها صاحبُها، كأنّهُ لمْ يتعلّقْ بها يومًا. تأكّدَ لي هذا حينَ نظرتْ سمر منَ العينِ السِّحريّةِ، ورأتْ وجهَ آدم الوسيم، فشعُرتْ بقرفٍ شديدٍ، حتّى إنّ كتفَيْها أصيبتَا برجفةٍ صغيرةٍ، وهي تعودُ إلى الخلف. لقد هوّلتِ العينُ السّحريّةُ الأمْرَ، ومثلما أظهرت قُبحَ تقاسيم وجهه، ذكّرتْها برائحته المقرفة، وهذا عكس ما كانت تصرّح به... ما الّذي يفعله هذا المجنونُ؟ الأحمق... في وضَحِ النّهار! رجّ سمر خليطٌ من الدّهشةِ والقلقِ والصّمتِ حين سمعت آدم يقول:

- تخلّيتِ عنّي من أجلِ جارَكِ العجوز الخرف؟!

لم تُعجزِ الصّدمةُ سمر عن فهم ما وراء تلك الكلمات، فهو يهدّدها فعلًا، غير أنّها دفعتها إلى الالتصاق بالأرض مُسْنِدةً ظهرها إلى الباب. هل تمنّت حقًّا أن تنشقّ الأرض وتبتلعها في تلك اللّحظة؟ شرد ذهنها في فكرةٍ بعيدةٍ جدًّا، غير أنّ آدم كان كلّما نقرَ

على الباب بأظفاره نقرًا خفيفًا، يذكّرها بأنّه مازال هناك، قريبًا منها. صحيحٌ أنّه قال ما قاله بدافع الغضب، لكنّه غضبُ مَن يرى نفسه الأفضل، لا غَضب العاشقِ المهجُور. كان مستعدًّا لفعل أيّ شيءٍ مقابلَ أن تفتح له الباب، حتّى يُخمد غضبه ويتمسّح على عتبتها راجيًا بصوتٍ ناعمٍ، كأنّهُ يهمسُ في أذْنِها:

- سمر افتَحِي البابَ أرجُوك... مرّةً واحِدةً فقطْ، أرجوك!

أنا أكثر الكائنات صمتًا، فعملي يستوجب الكتمان والسرّيّة التّامّة، لذلك أعرف جيّدًا أنّ البشرَ إذا لم يتحدّثوا عنْ شيءٍ مّا، فلا يعْني ذلك بالضرورة أنّهم قد نسُوه. فكّرَتْ سمر في العنكبوت التي تنسجُ خيوطَها بينَ فخذَيْها، حيث تنمو الظّلمة وتتيبّس الأعشْابُ، بينما كانَ آدم خلفَ ذلكَ البابِ، نارًا مُتأجّجةً جاهزةً لإشْعالِها وإعادة النّور. وفي الحقيقةِ، لم يكن الباب هو الفاصل بين آدم وسمر، بل يقينها التّامّ منْ أنّ سليمانَ قدَرُها، وهي قدَرُه. أمّا آدم فهو خارج حسابات القدر، رغم أنّه الواصل إلى مكانٍ لمْ يبلغه سليمان، ولم يُطالِبْ بهِ بعدُ، وإن كانَ يرجوه مع كُلِّ نظرةٍ مِنْ نظراتِهِ إليها. كان عليها إذَن أن تُبقِيَ البابَ مغلقًا. لكنَّ البشرَ يميلون في العادة إلى فعل ما لا يجب فعله!

أدرك آدم أنّ هذا اللّقاءَ هو الأخير، لذلك قرّرَ أن يُتقن دورَه على أكمل وجهٍ، ولا يفوّتَ كبيرةً ولا صغيرةً، حتّى يُخلّد تلك اللّحظات في ذهن سمر فلا تنساها مطلقًا. أرادَ أنْ يُثبِتَ لها أنّهُ

ليس مجرّد شابٍّ وسيم، وقدْ حالفَهُ الحظُّ كثيرًا في تلكَ اللّيلةِ. أمّا هيَ فشعُرتْ بهُدوءٍ غريبٍ، وكأنَّ قرارها الخاطئ بفتح الباب قد تحوّلَ إلى سائلٍ لَزِج باردٍ يتسرّبُ تحتَ جِلدِها، وسَيُطيلُ الإقامةَ في جوفِها. إنّهُ خطأ لهُ صوتُ فرقعةِ السّوطِ في الهواءِ. خطأٌ في حقّ سليمان ولا أحدَ سِواهُ، ولنْ تُكفِّرَ عنْهُ إلّا عودةُ فاضل إلى بيتِهِ، عقابًا لها، لتتطهّرَ بالنّدمِ بقيّةَ حياتِها.

***

رغم معرفتي الجيّدة بالجميع، لا أحكم على شخصٍ قبل أنْ أطّلِعَ على قصّتِهِ كامِلةً... تتالى خُفُوتُ أضْواءِ العِمارةِ حتّى أظلمَتْ كلّها، ولم يبقَ إلّا ضَوءُ مطبخِ سمر الّتي سرعانَ ما غرقَتْ في الصّمتِ، بعينيْن غائرتيْن، والغمُّ يعصرُ معدتَها. كانت كلّ العلامات البادية عليها تُشير إلى أنّ علّةً قديمةً عاوَدَتْها. جرّبَ سليمان أنْ يُشتّتَ حُزنَها بنظرةٍ إلى السّماءِ، أتبعَها بفركِ ساعِديْهِ وهو يقولُ:

- ليستْ ليلةً دافئةً على ما يبْدُو.

يا لها مِنْ مسؤُوليّةٍ! ففي تلكَ اللّيلةِ، كان عليهِ أنْ يُخرجَها ممّا هي فيهِ، وهذا ما لمْ يعتدْهُ في حياتِهِ كلِّها، فقدْ أَلِفَ أنْ يكونَ الباكي في حضْنِ السيّدة حمدة، ثمّ السّيّدة نبيلة، ولطالَما كانَ هُو المطلوب... ومَا على الآخرينَ إلّا أن يعتنُوا بهِ، ويُظهِرُوا حُبَّهم له. حتّى لسانُهُ لمْ يُطلقْ سِوى قرقرةٍ مَسْمُوعةٍ، وهو يحدِّقُ في السّنتيمتراتِ الّتي تفصِلُهُ عنِ الحياةِ، عنِ المرأةِ الّتي جفّفَها الزّمَن. خشِيَ أنْ يقولَ شيْئًا

فيُلحقَ بها الأذَى دونَ قصْدٍ، فاكتفى بإشاراتٍ غامضةٍ لا يفهمُها غيري، كأن يربّتَ بكفِّهِ اليمنى على حيِّزٍ مِنْ حافّةِ شُرفتِهِ ليشير إليها بالجلوس. انتبهتْ إلى حركةِ يدِهِ، بينما كانتْ تتّكِئُ على زاويةِ نافِذتِها، مُرتديةً ثوبًا منزليًّا أصْفرَ اللّونِ بكُمٍّ طَويل. ولمْ تُخطئْ عينُ سليمان اليقِظةُ لمعانَ كلِّ دمْعةٍ عبرتْ خدَّها حتّى استقرَّتْ في حُفْرةِ أسْفلَ عُنُقِها. كان يقتفِي أثرَ تساقُطِها ومساراتِها، حتّى إذا ما التقتْ دمعتانِ، أوحتْ إليهِ أذناه الخفّاشيّتانِ بأنّ لِتَماسِّهما رنينًا خاصًّا، يُشْبهُ صوت العملاتِ المعدنيّة حين تسقط على الرّخام. عِنْدئذٍ، ضمّ الهاتف إلى أذْنِهِ بقوّةٍ، كأنّه يريدُ أنْ يقصِّرَ المسافةَ بينَهما، وقالَ بصَوتٍ حاسِمٍ لا يخْلُو مِنَ التّوسُّلِ:

– ... ما بكِ يا حبيبتي؟ باللهِ عليكِ أجيبيني...

رفعتْ رأسَها نحوَه... كانَ وجهُها هذهِ المرّةَ يستمدُّ بهاءه مِنْ دمُوعِها المتلألئَةِ، إذْ بدا مُحمرًّا ولامِعًا، وزاد في استدارته الانتفاخُ الطّفيف الذي أصابه. لمْ ترَ مِنْ قبلُ أحدًا يحدّقُ فيها كمَا يفعل سليمان الّذي ابتعدَ عنِ الشّرفةِ ثوانيَ حينَ لمْ يجدْ جوابًا. عاد بعْدَها مُتمهِّلًا في مِشيتِهِ، حامِلًا بيتَهُ المصنُوعَ مِنْ أعوادِ الكبريت. كانَ بيتًا أنيقًا على نحوٍ لافِتٍ، وبتصْمِيمٍ يليقُ بصَانعٍ ماهرٍ بلغَ الواحدةَ والخمسينَ مِنْ عمره. إنّهُ عمَلٌ دَقيقٌ وبالغُ الاحْتراف: منزلٌ بأربعةِ طوابقَ، في كلِّ طابقٍ ستُّ غرفٍ، تتفاوتُ مساحاتها. وقد رافقَتْ مشْهدَ الزّهْوِ، في تلكَ اللّحظةِ، رصانةٌ صوتيّةٌ مبالغٌ فيها، حينَ سَألَها بصَوْتٍ مُستعارٍ تمامًا:

- ماذا تفضّلُ الجميلةُ سمر أنْ نقيم لها على سَطْحِ هذِهِ البنايَة؟ هل تريد مطبخًا صَغِيرًا تُعِدُّ فيهِ أشْهى الكعكاتِ... لتعطيَها كلَّها إلى الجيران... دون أن تأكلَ منها شيئًا... لسببٍ غامضٍ لا يعرفه أحدٌ، حتّى حبيبها؟

ابتسمتْ، فتهلّلَ وجْهُ سليمان فرَحًا بإنجازِهِ، وبدأتِ الأفكارُ تتدفّقُ إلى مقدِّمةِ رأسِه. ثمّ أشارَ نحوَ أصغرِ الغرفِ في بيتِ الكبريتِ وقالَ:

- هذِهِ غرفةُ المدخِّنين. فكما ترينَ... كلُّ غُرفِ البيْتِ مصمَّمَةٌ وَفْق عاداتك.

كان واثقًا مِنْ أنّها تُدَخّنُ، رغم أنّها لمْ تُشعِل من قبلُ سِيجارةً أمامَه. تبادَلا النّظراتِ الماكرةَ المحِبَّةَ بصَمْتٍ، ثمّ قالتْ وهيَ تمسحُ دمُوعَها، وترفعُ شعْرَها عاليًا، لتضُمَّهُ على شكل قبضةِ كفٍّ أعْلى رأسِها:

- حسنًا... يبدُو أنَّ هذا البيْتَ يستحقُّ الزِّيارةَ يا جار.

كان كلامُها كما عهِدَهُ، صريحًا ومُبهمًا، حلوًا وساخرًا، لذلك قرّرَ مُجاراة أسلوبِها حينَ قالَ:

- سأفوّتُ الكونَ كلّهُ إن لزمَ الأمرُ، ولنْ أفوِّتَ اللّحظةَ الّتي تزورينَ فيها هذا البيتَ يا جارة.

أخذتْ تراقصِهُ عنْ بعدٍ، وصاحبتْ حركاتِها موسيقى كانتْ ترافقُ إعلانًا لعطرٍ نسائيٍّ يُبَثُّ في التلفاز. فمدَّ هو أيضًا يدَهُ خارجَ

شرفتِهِ، وتظاهرَ بأنّهُ يرفعُ كفَّها برقّةٍ. عندئذٍ، اسْتَدارتْ سمر، ويدُها مَرفُوعةٌ كأنَّ سليمان يمسكُها فعلًا... وظلّا يرقُصانِ في تناغمٍ يشبهُ العناقَ. من الذّوق أن يقع التغاضي عن الأخطاء في رقصة عاشِقينِ، حتّى إن كانت حركاتُهما بدائيّةً.

في زمَنٍ يُسَمّيهِ قاطنُو أكشاكِ السّمَاءِ باللّحْظةِ الفاصِلةِ بينَ الحياةِ والموتِ، قد تصيبُكَ الدّهْشَةُ حينَ تعرفُ أنَّ لحظةً كهذِهِ لا تُهزَمُ، فلا الحياةُ قادرةٌ على تشتِيتِها، ولا حضُوري المهيبُ يبدِّدُ سطوتَها، وعلى البشرِ أن يدركوا أنّ إطالة مثل هذه اللّحظات في صالحهم، فعلى امتداد تاريخ الحبّ الطّويل لم أنزع عاشقيْن من عناقٍ راقصٍ كهذا، إلّا في مرّاتٍ نادرةٍ جدًّا، صرتُ أشعر كلّما تذكّرتُها بمعنى النّدم عند البشر.

***

في إسطنبولَ، لم تتجاوزِ الحرارةُ الدّرجةَ والدّرجتيْن. لمْ يعد هذا البردُ غريبًا على باسم، لكنّهُ يتدحرجُ، منذُ أنْ غادرَ بلدَهُ، إلى قاعٍ بالوعةٍ، وها هو يشرف على الارتطام به. ليس اليُتم وحدَه ما يسحقُ قَلبه، بل روحه المُتعَلّقَة بحُبٍّ غَريبٍ وغامِض، روحه الّتي أرهقتها الوحْدَةُ وجعلته مُجْهدًا طوال الوقت. لا، ليس صحيحًا أنّكم تحبّون الوحدةَ، أنتم لا تطيقونها، أمّا تلك التي تميلون إليها أحيانًا أو دائمًا، فهي العزلة.

كانَ باسم في تلكَ اللّيْلةِ فَريسَةَ حُمّى أكثرَ شراسةً ممّا اخْتبَرَهُ جسَدُهُ مِنْ قبْل. لذلكَ طلبَ أن يصله فطورهُ إلى الغُرفةِ، لكنّهُ لمْ يقْوَ

على الوقُوفِ كيْ يفتحَ البابَ لعامِلِ خِدْمةِ المطعَمِ في الفُندقِ. ظلّ العامل يطَرُق وينتظر الإذن، ثمّ يطرق وينتظر... خُيّلَ لباسم أنّهُ سمع الطَّرْق ونهض وفتحَ البابَ، وأكلَ، ثمّ تناول مخفّضًا للحَرارةِ، بينما كانَ، في الحقِيقَةِ، قد اسْتسلَمَ لغَفْوةٍ. وحينَ أفاقَ لم يسمع طَرْقًا على البابِ.

أثْنَاءَ غَفْوتِهِ، عادَ باسم إلى مَكانٍ يعرفُ أرضِيّتَهُ، لكنَّ سَقْفَهُ تغيّرَ: لا شكّ أنّهُ بيتُهم في حيّ «بَدّار». كان طفْلًا يجلسُ إلى جوارِ والدِهِ، يمدُّهُ بأعوادِ الكبريتِ، ليُكمِلا معًا بناءَ بيتٍ كبيرٍ لهُ بابٌ، وقدْ ملأ الغراءُ اللّزجُ ما بيْنَ أصَابعِهما من فراغاتٍ، بينما كان صَوتُ جدّتِهِ حمدة لا يكاد يُسْمَعُ، وهي توبِّخُ والدَهُ، وتكرِّرُ هامِسَةً: «أصبحَ ولَدُكَ في طولكِ، ومازلتَ تلعبُ كالأطفال!! بنتُ أصولٍ هذه المرأةُ الصّابرةُ عليكَ، مذْ كنتَ تتبوّل على نفسِك!!». رأى باسم الجدّةَ تضرب على فخذِها، وتهزُّهُ بحركةٍ لاإراديّة، وهي تئنُّ بصوتٍ مرتعشٍ يتصاعدُ شيئًا فشيئًا، كمنْ يُحاولُ إيقَاظَ نائِم. أمّا والدُهُ فكان شاردَ الذّهنِ، مُتجاهِلًا صَوتَها، وهو يلصِقُ النّوافِذَ الكبريتيّةَ بمُنتهى الخِفّةِ، ومِنْ ثمَّ ينقُلُها بإصْبعيْهِ، ويُثبّتُها على حائِطِ البيْتِ بالغراء. في البداية، أظهر سليمان قُوّةَ تركيزٍ هائِلةً ردّت عنه صوتَ أمّه. لكنْ، ومع تَكرار العجوز كلماتِها بالإيقاع نفسه، بدأتْ يداهُ ترتعشان، أكثر فأكثر، حتّى إنّه لم يعُدْ يعرفُ أينَ يُلصِقُ عُودَ الثِّقابِ التّالي. عندئذٍ، ردَّ على والدَتِهِ بهدوءِ المنتقِمِينَ: «لِمَ تهتمِّينَ بأمْرِ باسم إلى هذا الحدّ؟ أخبرتُكِ مِرارًا بأنّهُ ليْسَ حفيدَك!».

أمّا أنا فلمْ أتفاجأْ، ولطالما عرفتُ أنّ التّحدّي ليس ابتكارًا، إنّما غريزةٌ فيكم، بل هو لعبتُكم المفضّلةُ حتّى داخِلَ العائِلةِ الواحِدَة.

على الرّغمِ منْ بردِ إسطنبولَ، استيقظَ باسم مِنْ حُلْمِهِ يتصبّبُ عرقًا، ومصابًا بدُوارٍ جذَبهُ مجدّدًا نحوَ الوسادَة. لمْ يُثِر ذلك الحلم فيه أيّ استغرابٍ، فهو ليس سِوى نسخةٍ منْ واقِعٍ لطالما تكرَّرَ. سليمان لم يتعمّد كيَّ قلبِ والدتِهِ فحسب، بل كان يفعلها في الواقع كلّما سنحت له الفرصة، ولاسيّما في حضُورِ ابنه البكرِ، لعلّه يظنّ أنَّ ابنَهُ لنْ يفهَمَ، وأنّهُ إنْ فهِمَ سيَنْسى مع مُرورِ الوقتِ، لأنّهُ مجرّدُ طفْلٍ، أو ربّما لأنّهُ لا يقصِدُ ما يقولُ، إنّه مجرّد استفزازٍ، ليرى أثرَ ذلكَ في أمِّهِ، إذْ سُرعانَ ما يندفع رذاذٌ من فمِها، وتزدادُ شتائمُها، وهي تسْخرُ مِنْ كلامِ ولدِها مغيّرةً طبقةَ صَوتِها: «ليسَ مِنْ صلبِكَ يا فتى وهو نسخةٌ من والدِك؟ أنتَ لا تعرفُ وجْهَ أبيكَ، وإلّا كنتَ خجلتَ مِنْ كلامِك». ومعَ أنّ ردَّها يؤكّدُ يقينَها مِنْ سلامَةِ امتدادِ النّسلِ، ومِنْ نقاءِ السُّلالةِ، فإنَّ هذه الجملةَ لطالما أبكتْها في نهايةِ الجولةِ، وقادَتْها إلى التّململ في مكانِها، وهيَ تُكرِّرُ بإيقاع النّادباتِ: «زوّجتُهُ ليكبُرَ، وكبُرَ ليبقى مجرّدَ طفْل... يا ربّي عوْنَك». وكمْ كانَ منظرُ جدّتِهِ ذاك يُحزنُهُ، لكنّه حالما ينقلُ بصرَهُ مِنْ وجهِها إلى وجهِ والدِه، لا يرى سِوى سَعادةٍ غامِرةٍ تدفعُهُ إلى التّوسُّعِ في بيتِهِ الكبريتيِّ، فيشْرعُ في تقديم مقترحاتٍ لإدخال بعض الإضافات على البيت، مُتجاهِلًا العجوزَ المتهالكةَ بقُربِه.

وبسببِ مناكفات سليمان، فإنّ حكايات الجدّةِ الّتي كانتْ

تقصُّها عليهم قبْلَ النومِ، أصْبَحتْ عند باسم كابوسًا لا يمكنه الخروج منه إلّا إذا ادّعى النّوم. فحمدة لم تعد تروي لهم القصص من أجل المتعة، بل لتُمعنَ النّظر في حفيدها البكر، متفحّصةً كلّ قسمات وجهه وملامحه وشكل رأسه... أجل، لقد كانت تبحث عمّا يكشف زورَ ما يقوله ابنها سليمان ويؤكّد أنّ باسم حفيدها فعلًا، وحامل سلالة أجداده. أليس كابوسًا أن يحدّق فيك أحدُهم طَوال الوقت، مفتّشًا عن شيءٍ مّا لا تعرفه؟ أنا أيضًا أحدّق في الجميع طَوال الوقت.

***

بعباءةٍ رماديّةٍ، ووجْهٍ أبيضَ شاحِبٍ، وقفَتْ أمامَ بابِهِ دونَ مَوعِدٍ مسبق، حتّى إنّها لم تتأكّدْ منِ استيقاظِهِ. كانت تحْمِل طبقَ أرزٍّ ملوّنِ الحبّاتِ بيْنَ أصْفر وأبيَض وبُرتُقاليٍّ، مزيّنًا باللّوزِ والزّبيبِ، واللّحْمُ مكدّسٌ في وسطِه. عدّلت موضِعَ شَريحةِ ليمُونٍ، ريثما يفْتَحُ سليمان البابَ. وبينما هيَ تنتظرُ، ساوَرَها إحساسٌ بأنّها تقفُ أمامَ بابِه، لأنّها لمْ تعُدْ قادِرةً على تجنُّبِ ما تخشَاه. إنّها واقعَةٌ في حُبِّ هذا الرّجُلِ، حُبًّا غيرَ مَشْروطٍ بزواجٍ أو بسُمعَة. وكم كان التّواصُلُ بالعَينيْنِ مختلفًا، وهما يتواجهانِ مباشرةً، عنِ التّواصُلِ عبْرَ النّوافِذِ والشّرفات. لقدْ ظنّتْ سمر أنّها ستظلّ حبيسة أوهامها، ورغم ذلك ها هو الوهم يقِفُ أمَامَها، ضَخْمًا وطويلًا، فلا يكاد رأسُها يبلغ أسْفلَ قفَصِهِ الصَّدْريِّ، بدَتْ طِفْلةً وهي حذوه، بلْ أصْغرَ حَتّى ممّا تمنّتْ لنفسِها، يومَ كانتْ تحيكُ رجُلَها مِنْ وَحْيِ أحْلامِها. كانت

مشاعرُها تتأرجح بين الوهم والحقيقة، بين الخيال والواقع، بين الغموض والوضوح، كأنّها في حلم. أمّا سليمان فقَدْ كان إحْسَاسه مُحدّدًا وعمِيقًا، رغم أنّه لمْ يجرّبه مِنْ قَبْلُ. لمْ يكنْ طفْلًا يومًا... هذا ما انتابه لحظتَها. إنّه رجُلٌ منذ القِدَمِ، رجلٌ فحَسْب. وخِلالَ سَبعةِ أشْهُرٍ، عَبرتْ سَمر إلى كلِّ أسْرارِ حياتِهِ، وها هيَ تخوضُ في تفاصِيلِ شقّتِه. كان سليمان قد أعدّ على عجلٍ سُفْرةَ الطّعامِ في مَطبخِهِ، قبالةَ نافِذَتِها الّتي تَركتْها مَفتُوحَةً، وذلك نزولًا عند رغبتها.

جَلسَتْ أمامَهُ تُراقبُهُ وهو يتذَوّقُ طعَامَها، بيْنَما كانت تفكّرُ: «ما الذي دفعني إلى هذا الجنون؟ هل هذه المرأة الجالسة أمام رجلٍ تزوره في شقّته دون أن يدعُوَها هي حقًّا أنا؟ أمْ إنّي هاربةٌ منّي ومن أمّي ومن ماضيّ؟ ألا أفعلُ ما أفعله انتقامًا من نبيلة الّتي كانت تنشر عنّي الإشاعات؟».

وبينما كان سليمان يتملّاها، تجمّعَ في عَينيْه كلُّ ما يُثنيهِ عَنِ الالتِفاتِ إلى نافِذةِ الشّقّةِ المقابلة، حتّى الهاتِفُ الأرضيّ المعَلّقُ على جِدارِ مَطبخِها وهو يُصدر رنينًا يصِلُ إلى مَطبَخِه. ابتسَمَ لسمر ماسحًا فمَهُ بمنديلٍ مَطوِيٍّ على نحوٍ أنيقٍ حرصتْ على وضْعِهِ أمامَهُ بعْدَ أنْ طوتْهُ بنفْسِها، ثمّ قال لها وقد غاصت عيناه:

- سأُخْرجُ لكِ بُذورًا فشِلْنا أنا وأمُّ أبنائي في جعلها تنمو. ازرعِيها لي... فأنا متأكّدٌ تمامًا مِنْ أنَّ أيَّ شَيءٍ تلمسُهُ يداكِ لنْ يكفَّ عنِ النُّموّ.

ثمّ ابتسَمَ، وهو يضَعُ يدَهُ على الجهَةِ اليُسْرى مِنْ صَدْرِهِ:

- كمَا نَما هُنا حُبٌّ لمْ أُجرّبْهُ مِنْ قبل.

كان يودُّ إخْبارِها عنْ تلكَ الأغنية الّتي يُدندِنُها في صدْرِهِ، كيْ تساعِدَهُ في إيجادها على جهازِ الكمبيوتر. لكنّها قامتْ مُباشرةً تبحثُ عنِ البذورِ الّتي يحتفظُ بِها، مُتجنّبَةً مجاراته في ذلك البوح الّذِي مرّرهُ بنعُومَةِ مُغلّفٍ ورقِيٍّ، قادرٍ على العبور حتّى مِنْ تحْتِ الباب. ومِنْ مَكانِها في مَطبخِ سليمان، لاحتْ لها نافذةُ شقّتِها محاطةً بوردٍ بنفسَجيٍّ نضِرٍ، يُطلُّ على الشّمْسِ مِنَ الجهتَين، أمّا في المنتصَف فقدْ وضعت ورودًا بيضاءَ وصفراء... فأعْجَبَها تنسِيقُ وُرودِ نافِذتِها مِنْ شرفةِ سليمان، أكثرَ ممّا تبدُو عليهِ مِنْ مَطبخِها. فجأةً، تحوّلت طاوِلةُ المطبخِ إلى عُلبةِ ثقابٍ، كلّما احتكّتْ أو تلامَستْ يداهُما، اشْتعَلا، كخَطّينِ مُضِيئينِ. كانا يتجنّبان الحريق بماء الكلام، فتحدّثا في كلّ شيءٍ غير مهمٍّ، كي يدفعا فحسبُ ما يفكّران فيه بعيدًا، نحو الصّمت. وهكذا، يمكن للحياة أن تتكثّف.

انهمَكتْ سمر تُطعِمُ التّرابَ سمادًا، فانحنى فوقَها يلمُّ شَعْرَها بكفّيهِ ويرفعُهُ عاليًا لئلّا يتعفّر، وظلَّ ممسِكًا بهِ كشالٍ بينَ كفّيهِ، حتّى أنهت ما طلبه منها. كانت طيلةَ استغراقها في الزراعة ترفعُ رأسَها مِنْ حينٍ إلى آخر، وتبتسمُ للرّجلِ الّذي تحوّلتْ يداه إلى شريطة شَعْر. وحالما دسّت الحبُوبَ في أحشاء التّربةِ، أقامت جذعَها مُتّسخةَ الكفّينِ، وقالتْ في غنَجٍ:

- يلزمُ الوردَ ما هو أكثرُ مِنَ الغرسِ يا جار.

قالتْها دُونَ أنْ تتفَادى عَينيْهِ اللّتينِ ترقُبانِها بشَوقِ مَنْ يعرفُ أنَّ وقتَهُ قدْ حان، ليزرعَ ويسقيَ، هو أيضًا، أشياء كثيرةً... أشياءَ أكثر جمالًا، مِنْ ورودٍ مُلوّنةٍ في شُرفَة.

***

أمام صَوانٍ تحْوي أعضاء بشَريّةً، تقيّأَ آدم قبْلَ ثماني سَنوات. لكنْ لا هذا ولا ارتقاؤه إلى السّنة الثّانية بأعدادٍ متواضعةٍ هو ما جعله يتخلّى عن دراسةِ الطِّبّ، بل السّؤال الذي طرحه عليه والدُهُ بمنطقِ المصرفيِّ العقلانيِّ: «فكّرْ قليلًا يا بنيَّ... أيُّكما الأفضَلُ لدراسةِ الطِّبِّ، أنتَ أم أختُكَ، وما هو الأنسبُ لقُدراتِنَا الماليّةِ؟». كانَ سُؤالُ والدِهِ واقعيًّا حدَّ الصّدْمةِ، لذلك تنازل عَن دراسة الطِّبِّ، تاركًا المجالَ لأختِهِ الّتي تُماثِلُهُ حُسنًا وتفوقه عِلْمًا، ليلتحق بكلّيّة الصّيدلة الّتي تخرّج فيها بشقّ الأنفس. رغم ذلك، ما زال يرى نفسه جديرًا بكلّيّة الطّب، ولم يسامح أباه على حرمانه من أن يكون طبيبًا، ولا أخته التي أخذت مكانه وإن كان يعترف في لحظات صفاءٍ بأنّها أحقّ منه. لذلك قرّر آدم ألّا يكرّر الخطأ نفسه، لن يترك مكانه في قلب سمر لسليمان، فذلك العجوز ليس أجدر منه إطلاقًا.

***

ليست هذهِ المرّةَ الأولى الّتي يُثبّتُ فيها عاملٌ، بغباءٍ غير طبيعيٍّ، عينًا سِحريّةً في بابٍ، ولكنْ بالمقْلوب. شاع الخبر بين هواة التلصّص، فصاروا يمرُّون أمامَ الشّقةِ رقم (3)، في الطّابق الثّاني

مِنْ عمارةِ سليمان، لمشاهدة ما يحدث في الدّاخل. خطأٌ تأخّر تداركه، لأنّهنّ كنَّ ثلاثَ عاطلاتٍ عنِ العملِ، قلَّما يخرُجنَ مِنَ البيتِ، وأُمًّا لمْ يسبقْ لها أنْ فعلتْ شيئًا على عجلٍ، بل كانت تقول دومًا: «لنْ أذهبَ إلى الجيرانِ قبْلَ أنْ يأتُوا إليّ أوّلًا». وحينَ ماتتِ السّيّدة نبيلة، صعدتْ برفقةِ أكبرِ بناتِها إلى الطّابق الرّابعِ، وعزّتا الحاضِراتِ سريعًا، ثمّ تبادلتا أرقامَ الهواتفِ معَهنّ. لمْ تُسْمَعْ رنّة جرسٍ بابهنَّ إلّا بعْدَ سبعةِ أشْهرٍ منِ انتقالهنَّ إلى حيٍّ «بَدّار». في ذلكَ اليومِ، هرعتِ البناتُ الثّلاثُ نحوَ البابِ، كأصابعَ في يدٍ واحدةٍ، تتبعُهنّ الأمُّ على عجلٍ فيهِ الكثيرُ مِنَ التّهوُّرِ، بسببِ ركبةٍ معطوبةٍ، يكون لها عادةً دورُ البطولةِ في عمرِ الشّيخوخةِ. كانت أولى الواصلات إلى الباب مُتحمِّسةً لمعرفةِ الزّائرِ، بينما تجمّعتِ الأخريات خلفها متكتّماتٍ على وُجودِهنّ. ولسوء الحظّ، كان الواقف في الخارج طفلًا صغيرًا، أقصرَ مِنْ أنْ يكتشِفَ العينَ السّحريّةَ المقلوبةَ في البابِ. وبكفّينِ مُلتصقتَينِ على هيئةِ مَنْ يطلبُ الغفرانَ، أو يعبّرُ عنِ الامتنانِ، انحنتْ البنت تسألُهُ عَنْ حاجتِهِ، فرجاها أنْ تعيد إليه كُرته الّتي استقرّتْ في شرفتهم.

إلى حدودِ تلك اللّحظةِ لم يقع إصلاح ذلك الخلل، أي إلى اليوم الّذي زارت فيه سمر سليمان في شقّته. على الأرضِ، نادرًا ما يحدثُ شيءٌ في أوانِهِ. على كلّ حالٍ، لم تكن تلك البنتُ الّتي فتحت الباب للطّفل محتاجةً إلى العين السّحريّة، فلقد رأتْ سمر بالعينِ المجرّدةِ،

وهي تنزلُ الدَّرَجَ رفقة سليمان، صاحبِ العمارةِ... فقالت لذلك الطّفل المستجدي:

- إن أخبرتني عن اسم تلك المرأة الّتي نزلت للتّوّ مع صاحب العمارة، فسأعيد إليك الكرة.

- إنّها الخالة سمر، تسكن في الطّابق الرّابع من العمارة المقابلة.

انتقل الخبر الخبيث من فم إلى فم، ومِنْ بيتٍ إلى بيتٍ، ومنَ الأزقّةِ الدّاخليّةِ وُصُولًا إلى الشّارعِ العامّ. في تلك الأثناءِ انتقلتُ أنا أيضًا، لتنفيذِ مَهمّةٍ مُستعجلة.

***

بكلِّ تسامحٍ، تقُولُ الجثّةُ المنقُولةُ مِنَ الحياةِ، وهي محمُولةٌ على كتفِ قاتِلِها: «يا لهذا الجسدِ الحيِّ الّذي يتكبّدُ عناءَ حمْلي... مَنْ يكونُ؟ أيحبُّني إلى هذا الحدِّ؟!». هكذا تصبح الأجساد، وهي تسلك طريقَها إلى عمق الأرضِ... أجسادًا خاليةً مِنْ كلِّ الضّغائنِ، وبلا ذاكرةٍ.

بدأتْ تظهرُ على باسم علاماتُ الشُّحوبِ والوهنِ. مضت اثنتانِ وأربعونَ ساعةً دون أن يفارق السّرير، حتّى لقضاء حاجته في الحمّام. بدا غارقًا في سُباتٍ عميقٍ، ولمْ يكنْ يقْوَى إلّا على الأحلامِ والهَلوسَاتِ. ذكّرته الحمّى بأمّه التي سطّرت له قدَرَه، واختارتْ بدلًا منه كلَّ شيءٍ، حتّى أثاث بيتِهِ. كانَ يبذُلُ قُصارى جهْدِهِ كيْ لا تلمَحَ انزعاجَهُ مِنْ ذوقِها. وحفرت الحمّى أعمق، حتّى طفا ذلك السّؤال الّذي لم يتوقّعه مطلقًا من أمّه صبيحةَ زواجِه:

- باسم... هل فعلتَ ما يفعلُهُ الرّجال؟

- كانت خجلةً، وأنا كذلك... لمْ يحدُثْ أيُّ شيءٍ يا أمّي...

هكذا أجابَها، بصراحة الأطفال. فطلبتْ منهُ على الفور أنْ يوصِلَها إلى أقربِ صيدليّةٍ، واشترتْ لهُ مُرطّبًا ينفعُ في حالتِهِ معَ منال، وشَرحتْ لهُ طريقةَ اسْتِخدامِهِ بحماسةٍ، دُونَ أنْ تتجنّبَ النّظرَ إلى عينيْهِ، وكأنّها تقولُ لهُ: «حتى الأمّ ليست كاملةً»، وبالفعلِ، فقدت نبيلة، منذُ تلكَ اللّحظةِ، قداستها.

لكنّ أمّه لم تتخلَّ عنه وهو في تلك الحال، فقد جاءت لتعتنيَ به. كان يراها جالسةً على حافّة السّرير لتضع على جبينه كمّادةً باردةً، وتمسحَ على رأسه بحنوٍّ جعله يصدّق ما ترسمه الحمّى أمام عينيه. شيءٌ مّا في داخله، مدّ يده من بعيدٍ وانتشله ممّا هو فيه. حينها اتّصل باسم بالإسعاف.

خرج باسم من الفندق محمولًا على نقّالة. كان يرى العالم مشوّشًا. وببطءٍ شديدٍ أغمض عَينيْهِ، فلمْ يعُدْ يرى أمامَهُ إلّا أبوابًا مُتجاورةً مِنَ الجِهتَين. أمّا الأصوات، فقد تداخلت جميعُها، وتكثّفت في صوتٍ واحدٍ لم يبق منه غير صدًى أخذ يتلاشى هو أيضًا حتّى غاب نهائيًّا.

***

لطالما أضحكتني بعضُ العناوين الّتي تُكتب بالخطّ العريض على أولى صفحات الجرائد وتتَناقلها المواقع الاجتماعيّة بزهوٍ

وبهجةٍ، كأن أقرأ: «وتنتصر الحياةُ»، «الموتُ يفرُّ مغلوبًا أمامَ إرادةِ الحياةِ»، «حبّ البقاء، يصنع المعجزات»... مثل هذه العبارات السّاذجة، تردّدونها كلّما نجا أحدُهم بأعجوبةٍ من حادِثٍ قاتِلٍ. لكنْ، بما أنّكم لا تستطيعون الحياة دون استعاراتٍ، فأنتم تعتبرونه ناجيًا من الموت. والمضحك أكثر في الأمر أنّكم تدركون استحالة الإفلات منّي، بل تعترفون بذلك. فلماذا إذَن لا تسمّون النّجاة منّي «رحمةً» أو «عفوًا مؤقّتًا»؟ طبعًا، لا يجدر بنا أن نقول «شفقةً»، فهذا ليس من مصلحتنا جميعًا. كلّ ما في الأمر أنّ ذاك الذي نجا بمعجزةٍ إنّما أنا مَن أجّلتُ نهايتَه، وأنا نهايتُه. فكيف تدّعون أنّ قصص حياتكم مختلفةٌ، والحال أنّ النّهاية واحدة؟

على كلّ حال، أنا لستُ هنا لتصفية الحسابات، فلا ترتعبوا.

***

بعْدَ السّاعةِ السّابعةِ صباحًا بدقيقتيْن، أغلقتْ هاتفَها، ثمّ نظرتْ إلى الشّرفةِ المقابلةِ، ملوّحةً بابتسامة الوداع، قبْلَ التّوجُّهِ إلى النّومِ مُباشَرةً. فردّ سليمان على الابتسامة بمثلها مضيفًا تلويحةً سريعةً بيده. استلقت سمر على سريرها، فبدت كأنّها إبرةٌ في بوصلة. كانت تتأرجحُ بين جهتيْن: جهة سليمان، حيث يوجد الزمان المتبقّي لها من حياتها، وجهة فاضل، حيث يكمن الماضي الّذي تعجز عن التخلّص منه إلّا بالطّلاق. لكنّ سمر ليست في سنٍّ تسمح لها بأن تكون عاطفيّةً إلى هذا الحدّ، فالطّلاق يعنِي أنْ تخسَرَ

جائزةَ صَبْرِها... شقّتَها الّتي تأوي إليها، وكانتْ ثمنًا لصَمْتِها حينَ قيّدُوها إلى جوارِ جثّة. ثمّ ماذا لو كانَ حظُّها أقلَّ مِنْ حظِّ السيّدة نبيلة، وماتَ سليمان قبْلها، إلى أينَ ستذهبُ مِنْ بعْدِه؟ وكيفَ سيكونُ مَوقِفُ أبنائِهِ مِنْها؟ حينَها ستكونُ قدْ خسرتْ كُلَّ شيء.

على امتداد ساعاتٍ متقدّمةٍ مِنَ النّهار، عجزت رغبةُ سمر في النّوم عن التغلّب على هواجسها، ثمّ وصل المددُ إلى جيش الهواجس قادمًا من الذّاكرة، فجاء صوت أمّها وهي تُردّد أغنيةً جديدةً كيْ تحفَظها. فجأةً، توقّفت الأمّ عن الغناء، ليشردَ ذهنُها مدّةً تُمكّنُ سمر مِنْ رؤيةِ وجهِ والدتها على حقيقتِهِ، عاريًا مِنْ أثرِ الأغاني، ومتخفّفًا من الصُّراخ على أعضاء الفرقة. وجهٌ صامتٌ، بهالتينِ سَوداويْنِ تحتَ العَينيْن، وبشَرَةٍ مُتعبةٍ اتّسعت مسامّها على نحوٍ غيرِ طبيعيّ. سقطتْ شَعْرةٌ مِنْ جفنِ الأمّ واستقرّتْ على خدِّها... فالتقطتْها سمر مِنْ فوقِ تلك البشَرَةِ اللّزجةِ. ابتسمتْ لها والدتُها وقالتْ: «أتمنّى أن تَحظيْ برجُلٍ تكونينَ وإيّاهُ كغُرزتينِ في نسِيجٍ، رجُلٍ يعشقُكِ حتّى موتِه». لمْ تفهمْ سمر حينها أنّ كلّ شخْصٍ تسقطُ مِنْ رمشِهِ شَعْرةٌ يحقُّ له أنْ يتمَنّى أمْنِيةً. ثمّ تذكّرتْ الحكمة الّتي صدرت عن أمّها وهي تحضنها في تلكَ اللّحظةِ: «العين مغرفة الكلام». وفهمت قصدها أخيرًا: وحدَها العينُ، دون باقي أعضاء الجسد، يحقّ لها أنْ تتمنّى.

بعْدَ تلك الأمنية بمُدّةٍ قصِيرةٍ، تزوّجت السّيّدة عواطف، مرّةً ثالثةً، مِنْ رجُلٍ لمْ تشعُرْ معه بأنّها تُضْربُ، فلطالما كانتْ قادِرةً على

ردِّ صَفعاتِهِ إليه. أمّا حينَ توقّفَ النّاسُ عَنْ طلبِها لإحياءِ أعْراسِهم، فقد صَارتْ أكثرَ اسْتِسلامًا، وتوقّفَتْ عَنْ ردِّ الضّرباتِ إلى الزّوجِ، واكتفَتْ بتلقّيها. لمْ تَستطِعْ سمر تقديرَ حَجْمِ ما ماتَ في أمِّها، بعْدَ أنْ ماتَ صَوتُها. كان للسّيّدة عواطف ملفٌّ بغلافٍ ذهبيٍّ سميكٍ كُتب عليه: «فرقةُ عواطف». وهي تضيف إليه أوراقًا وتُبعِدُ أخرى، حسب الأغاني الرائِجةِ والمطلوبَةِ في كلِّ مَوْسِمِ أعْراسٍ. وفي نهايَةِ المطافِ، تَحوّلَ ذلكَ الملَفُّ إلى علبة أرشيف. لم تتوقّع سمر أنّ أمّها ستعتاد النّومَ ليلًا والاستيقاظ نهارًا، عكس ما كانت عليه. فعلًا، تطلّب الأمر سنواتٍ، وتحديدًا عندما اطمَأنّتْ السيّدة عواطف عَلى مُسْتقبَلِ ابْنَتِها الوحِيدَةِ، في تلكَ الشّقّةِ الآمِنَة، بجوار فاضل.

لم تبتسم سمر لذاكرتِها إلّا حين تسرّبت منها ضَحكة سليمان وعَيناه تغُوصانِ إلى الدّاخل، فانقلبت على جنبها مردّدةً حكمة أمّها: «العين مغرفة الكلام»، ثمّ مدّت يدها إلى هاتفها المحمول.

كان فاضل يُقطّر في عينه اليسرى مضادًّا للالتهاب البكتيريّ، حين رنّ هاتفه.

***

- لِمَ أنا هنا؟ لقد طلبتِ مِنّي الحضُور... ماذا هُناك؟

كان مُستعجِلًا في شُربِ قهوتِهِ، كأنّهُ لا يعرفُ طبيعةَ سمر الّتي تستغرِقُ كلَّ وقتِها قَبْلَ أنْ تُجيبَ على أيِّ سُؤالٍ، مَهْما بَدا تافِهًا. وبالفعلِ، كانت إجابتها تتردّدُ على رأسِ لسانِها مُنْذُ الصّباحِ، قبْلَ

أن تُقولَها بصَوتٍ مسمُوعٍ، مرّةً واحِدةً فقطْ، دونَ أنْ تنظُرَ إلى عينيْهِ: «ارجعْ إلى بيتِك». كانت تدسّ يَديْها بينَ فخذَيْها، مثل طِفلةٍ تستعدّ لعصا المعلّمة، ودون أن ترفع عينيها عن الأرض أضافت:

- أظنُّ أنَّ الوقْتَ الآنَ مُناسِبٌ لعودَتِك.

أعادَ كوبَ قهوتِهِ إلى مكانِهِ، وأقامَ ظهرَهُ، فسبق كلماتِه عدمُ الرّضا البادي عليه:

- قلتِ لي مرّةً: لن أبقى زوجتَكَ إلّا إذا لمْ تعِشْ معنا في الشّقّة نفسها... ما الّذي تغيّرَ يا سمر؟ هل هُو الطّلاق؟

حينما تلقّى كلامَها، لمْ تختلِفْ ملامحُ وجهِهِ عَنْ تلكَ المرّاتِ الّتي كانَ يبدُو فيها مَصْدُومًا وغير راضٍ عن أداء فريقه المفضّل، ولم تتغيّر حتّى عندما ردّتْ مُصحّحةً:

- لا ليس طلاقًا... أستطيعُ تجاوزَ ما لا أعرفُهُ عنكَ طَوالَ الفترةِ الماضِيةِ، فأنا بالفعلِ لا أعرفُ عنكَ شيئًا... على الأقلِّ منذُ عامٍ مضَى.

- هذا لأنّكِ لا تسألين عنّي! لقدِ التهبتْ زائدتي الدّوديّةُ، صحيحٌ أنّي لمْ أجرِ عمليّةً، لكنّي تألّمتُ... كثيرًا!

سرعانَ ما تشتّتَ ذهنُهُ كعادتِهِ قبْلَ أنْ تُجيبهُ بصوت علا دفعةً واحدةً:

- ما نفعُ السّؤالِ عنكَ بالله عليْك؟

ثمّ انقطعَ الصّوتُ بالطريقة نفسها، دفعةً واحدةً، وبقيتِ

الأنفاسُ وحدَها مسمُوعةً بوضوح. كانتْ محبطةً، كمنْ يحملُ سؤالًا يعرفُ أنّ جوابَهُ لنْ يأتيَ قبلَ مليونيْ عام. أرادت أن تغيب قليلًا، فأطبقت جفنيها، وجمعتْ نفَسًا مِنْ مكانٍ مّا في صدْرِها، ثمّ قالتْ وهي تفتحُ عينَيْها، دون أن تكلّفَ نفسَها النّظرَ إليهِ:

- كلّما استرجعتُ شريطَ سفراتِنا معًا، وكلَّ الأماكنِ الّتي أخذْتَنِي إليْها، وتلكَ الحفلات...

ابتسمَا معًا، كأنّهما يشاهِدانِ تلكَ الذّكرياتِ الطّريفَةَ على شاشةٍ في القاع، فكلاهما كان مثبّتًا بصره على الأرض. وبانفعالٍ ساذجٍ، وحماسٍ طفوليٍّ، علّق وهو يهزُّ رأسَهُ ضاحِكًا:

- وتلكَ المعزوفةُ الّتي أبكتْكِ... أتتذكّرينَها؟

واصل وأصابعُهُ تتراقصُ في الهواءِ كأنّهُ يعزفُ:

- وتلكَ الآلاتُ الكثيرةُ الّتي تبدُو لدقّةِ حركتِها وكأنّها...

لمْ يجدْ جملةً مناسبةً يصفُ بها ذلكَ المشهدَ الّذي ارتسم في ذاكرتِهِ جليًّا، فاكتفَى بضحكاتٍ متقطّعةٍ، كان يهزّ رأسَهُ وهو يلكمُ بقَبضَتِهِ ذِراعَ الأريكةِ، متحمِّسًا لكلماتٍ لم تصِل إلى لسانِهِ، لأنّها مجرّدُ صُورةٍ في خيالِه. أنقذته سمر بابتسامةٍ فاترةٍ، مُتفهِّمةً مأزقَ التّعبيرِ عِندَهُ، وحبَّهُ الفطريَّ للموسِيقى، رغم جهله التّام بكلّ ما يتعلّق بها، حتّى إنّه لا يفرّق بين آلاتها. ولكي تُوقف ضحكتَه البلهاء تلك، وحركاته الرّعناء، رفعت بصرَها إليه وحدّقت في عينيْه مباشرةً. ففَهِمَ فاضل

القصدَ من نظرتها وصمتَ. كانت الفرصة مواتيةً، في نظرها على الأقلّ، لتسأله:

- هل فكّرت يومًا في سبب حزني منذ أن تزوّجتك؟

نظرَ إلى سقفِ بيتِهِ، وعيناهُ تركُضانِ في الأبيضِ الشّاسِع. ثمّ عضَّ على شفتِهِ حتّى كادَ يقطعها، وهو يقولُ:

- لعلمك... سأكونُ في ورطةٍ إذا عَرفَتْ والدَتِي أنّي مررتُ مِنْ هنا، ولمْ أصعَدْ إليها.

تجاهَلَ دُونَ قصْدٍ الإجابةَ عن سُؤالِها، ولم يُعر اهتمامًا للدّموع الّتي تجمّعتْ في زاويةِ عَينيْها، فكتمتْ سؤالًا آخر ظلّ يتردّد داخلها: «لماذا لم تزَلْ طفلًا رغم كلِّ هذِهِ السّنين... لماذا لمْ تكبُر يا فاضِل؟».

***

لعلّ أكثر ما يُثيرني هو أنْ أراقبَ شخصًا يموتُ على غيرِ يديّ... كالموتِ حُبًّا، والموتِ غُربةً ووحدَةً، وكلاهما لا يمتّانِ إليَّ بصِلةٍ، فكلّ موتٍ ما عداي، يظلُّ مطالبًا بتقديم أسْبابِه.

بدأَ عالمُ باسم يتقلّصُ كثيرًا، وهو يحدِّقُ إلى بقْعةِ دَمٍ تتّسِعُ وتتفَتّحُ كوردَةٍ على غِطاءِ السّرير. كانَ ما يرتدِيه في المستشفى يعرّيهِ أكثرَ ممّا يسْتُره. لذلك جمّدتْهُ كلماتُ الطّبيبِ، وهو يتحدّثُ عنِ الجفافِ الّذي استهلكَ جسدَهُ، وتركهُ على تلكَ الحالِ مِنَ الهذَيان. ولئنْ بدا جسَدُهُ ضَخْمًا وهو ممدَّدٌ على السّريرِ، فإنَّ داخِلَهُ كانَ في غايةِ الهشاشَةِ، كأنّهُ بيتٌ مِنَ القشّ. فتّشَ حوله عنْ هاتفِهِ، ثمّ تذكّرَ

أنّهُ خرجَ مِنَ الفندقِ محمُولًا على نقّالة. في تلك اللّحظة دخلت إلى غُرفتِهِ شابّةٌ عَربيّةٌ، وُظِّفَتْ حَديثًا في قسْمِ النّظافَة. استأذنَتْهُ في السماح لها بالتّنظيفِ، فأشارَ إليْها موافقًا بتململ. كانتْ ترتَدِي ميدعةً بيضاء، وتدُسُّ شَعْرَها داخلَ قبّعةٍ بلاستيكيّة. غير أنّ أكثرَ ما لفتَ انتباهي وانتباه باسم، على حدّ سواء، هو ذلك التّعب البادي على وجهها وفي عينيها وفي حركتها... باختصارٍ، كانت ميّتةً... ميّتةً من التّعب. اقتربتْ بمكنستِها مِنَ الطّاولةِ المُجاورة له، لسحبِ قطعة قُطنٍ مُلوّثةٍ بالدّم من تحت سريرِهِ. وبحركةٍ من فخذها دحرجت ساعةَ يدِهِ الّتي كانتْ مدسُوسةً قُربَ رأسِه، فحاولت التقاطها قبل أن تقع على الأرض قائلةً:

- بسم الله.

قالتْها بصَوتٍ عَربيٍّ بالغِ الوضُوحِ أجبرَهُ على الالتفاتِ إليْها، جاحظَ العينيْنِ. غمره شعورٌ بالارتياح كثّفه في كلمةٍ كانت أشبه ما تكون بالتّنهيدة:

- وأخيرًا!

ابتسمتْ لهُ وهي تعيدُ السّاعةَ إلى مكانِها:

- معافى إن شاء الله.

ثمّ استدارت متوجّهةً إلى سلّة النفايات. نزعت عنها الكيس الممتلئ بالقمامة. وحملَتْهُ إلى البهو حيث تركت الصّندوقَ المخصّص لجمع أكياس النّفايات. وبنسق الخطوات نفسه، عادت إلى سلّة

القمامة في الغرفة، وغلّفَتْها من الدّاخل بكيسٍ جديد. وخِلالَ ذلك كلّه، لم يرفع عنها باسم بصره، وكأنّه كان ينتظرُ أن تنظرَ إليه ليقولَ لها شيئًا. وحين تلاقتِ النّظراتُ، كانت هي أوّل من ابتسم، بينَما تلألأتْ عيناه بالدّموع. لا لا، لم يكن يبكي هذه المرّة، بل هو ردّ فعلٍ طبيعيّ قامت به العين جرّاء السّوائلِ الكثيرةِ الّتي كانت تُضَخُّ في وريدِهِ عبْر الأنبوبِ المغذِّي. أسْنَدتْ المنظّفة مِكنسَتَها إلى البابِ في حركةٍ بطيئةٍ، ثمّ خلعتْ قفّازها المطّاطيَّ السّميكَ، واقتربتْ منْهُ. وبعينيْنِ بنّيتيْنِ واسِعتيْنِ، انحنتْ فوقَ وجهِهِ، كأنّما تقيسُ مقدارَ تعبِهِ وضعْفَ بصَرِه. ثمّ ربّتتْ عليهِ بحنوٍّ، ومسحتْ على شعْرِهِ بيدٍ نظيفةٍ جدًّا تفوحُ منها رائحةُ المعقّم. لاحظَ باسم أنّ أظفارَها مقلّمةٌ على نحوٍ صارمٍ، كما كانتْ تفعلُ أمُّهُ، فهي تبردُ الظّفرَ حتّى يعلوهُ اللّحمُ مِنْ كلِّ الأطراف.

- ارجع إلى بلدِك!

هذه الكلمات، ونبرة صوتها، بالإضافة إلى طريقة تقليم أظفارها، جعلت باسم يتوهّم لحظةً أنَّ السّيّدةَ نبيلة هي مَنْ تأمُرُهُ، وأنَّ ذلكَ الصّوتَ العربيَّ قد خرج مِنْ لحمِهِ ودمِه. فأمسَكَ كفَّها بكلِّ ما تبقّى في جسدِهِ مِنْ قوّةٍ، وضمّها إلى صدرِهِ، ثمّ أغمضَ عَينيْه.

عَبَر باسم سراديبَ وأنفاقًا حتّى بلغ غُرفته بين إخْوتِه. فتراءتْ لهُ الأسِرّةُ الثّلاثةُ الّتي تفصِلُها خزائنُ على هَيْئةِ مُكعّباتٍ، ثمّ تناهَى إلى سمعِهِ صَوتُ أمّه الهادئُ والمقنعُ كعادتِهِ، وهو يشرح له سببَ

اخْتِيارِها منال كي تكون زوجته: «البنتُ ستساعِدُكَ في حلِّ مشكلةِ الكلام لديكَ، وستشْكرُني على ذلكَ قريبًا جدًّا». لمْ يكنْ قدْ سمعَ منْ قبلُ أنَّ لديهِ مشكلةً كهذِهِ... لمْ يخبرهُ بذلك أيّ واحدٍ ممّنْ درّسوه، ولا زملاءُ الدّراسةِ أو العمل، ولا إخوتُهُ، ولا حتّى والدُهُ الّذي يُعتَبرُ رجُلًا دقيقَ الملاحَظة. وحينَ ردّ عليْها كلامَها مُستغربًا: «مشكلةُ الكلام؟»، أصبحت ملامحها أشدّ قسوةً وهي تقولُ له بصوتٍ أكثر حزمًا: «أنْ تتلقّى صَفعةً مؤلمةً مِنْ يدِ أمِّكَ، أفضل من أن تصفعك أيُّ يدٍ أخْرى... وهذا أمرٌ لا يُخجِلُ بالمناسبةِ، فوالدُك كانَ لا يحسنُ الكلامَ ولا التّعبيرَ عمّا بداخلِهِ، لكنّي ساعدتُهُ في تخطّي مُشْكلتِه. ستكونُ منال خيرَ مُعينٍ لكَ... صَدِّقْني». ثمّ واصلَتْ عَرْضَ مزايَا منال، غير أنّ ذهن باسم كان متوقّفًا عند «لا يُحسِنُ التّعبيرَ عمّا بداخله» ويده تمسك بحلقه. لكنّ الممرّضة سحبَتْ تلك اليدَ ببُطءٍ مُتْقَنٍ وبلُطْفٍ فطريّ. فقد كانت حريصةً على ألّا تفزعه قبل أنْ تفصلَ عن عِرْقِه إبرةَ المغذّي.

أُطِلُّ عليكم...

على بُعْدِ بنايتيْنِ مِنَ العمارةِ السّابعةِ والثّلاثينَ في حيّ «بَدّار»، أعلنتْ نداءاتٌ مشوّشةٌ مبثوثةٌ في مكبّرات الصّوتِ عنِ اقتراب نهايةِ مزادِ السّيّاراتِ المستعملة: «عشرة آلافٍ... مَنْ يزيدُ؟ عشرةُ آلافٍ وثلاثُمائة... عشرةُ آلافٍ وستّمائة... نقولُ مبروك؟».

- تصالحتما إذن! كان بإمكانكِ أنْ ترضَيْ عنهُ قبلَ عامٍ، حينَما سافرَ أنس! أعْنِي... كنتِ وحيدةً عامًا كاملًا، وراضِيةً بذلك، ثمّ جئتُ أنا... لأملأ حياتَكِ، كما تقُولينَ دائمًا!

كانَ سليمان غاضبًا حتّى إنّه أَبعَدَ سمّاعة الهاتفِ عنْ أُذْنِهِ، وصرخ في اتّجاهِ نافذتها مباشرةً:

- أطفئِي تلك الأغنيةَ التّافهة خلفَكِ!

توجّهتْ سمر إلى زاويةِ المطبخِ، وفعلتْ ما أمَرها، ثمّ عادتْ تقفُ أمامَهُ، ويداها تلُفّانِ صَدْرِها بطرفيْ المعطف القطنيّ، في اتّجاهينِ مُتعاكسينِ، ليضِيقَ أكثرَ على الجانبيْن، بينما كانت سمّاعةُ هاتفِها تتدلّى مِنْ أذنيْها وهي تقولُ بعينيْنِ دامِعَتينِ:

- لا تصْرخْ في وجهي هكذا يا سليمان!

للوهلةِ الأولى، أرادَ أنْ يقفزَ إلى نافذتِها ويضُمَّها... إذْ كيفَ يمكنُ أنْ تكونَ قدْ قضَّتْ اثنينِ وأربعينَ عامًا منْ عمرها، وما تزال طفلةً على هذا النّحو؟

- سمر... أنا أحِبّك... لا تحمِلي إليَّ خبرًا كهذا مرّةً أخرى!

كانَ يُحرّكُ أصَابعَهُ كأنّما يمرّر حبَّاتِ المسْبَحةِ بينها. سحَب نفسًا عميقًا حبَسَه في صدره ثلاثَ ثوانٍ، ثُمّ أطلقه... وأخيرًا استرجع نفَسَهُ، وعادَ إلى السّمّاعةِ الموصُولةِ بهاتفِهِ وهو يقولُ:

- أحبّكِ بمعنى أنّي أحياكِ، فيومِي هو أنتِ، وعقاربُ ساعتي يحرّكها مزاجُك. سمر... أنا لا أخرجُ مِنَ الشّقّةِ مُذ عرفتُكِ إلّا نادرًا جدًّا... ألمْ تلاحظِي ذلك؟

ظلّت سمر صامتةً فأعادَ سُؤالَهُ:

- ألمْ تلاحظِي ذلك؟

كان صوْتهُ، في المرّةِ الثّانيةِ، مسمُوعًا منْ مسافةِ طابقينِ. ورغم ذلك بدتْ سمر كما لو أنّها لم تسمعه. هل كان قادرًا على استيعابِها لو أنّها تكلّمت وأجابته؟ هل سيَفْهَمُها إن أخبرته بأنّها تعاقبُ نفسَها بالعودة إلى فاضل، أم سيسأل تائهًا بين السخرية والاستغراب: وعلامَ تعاقبين نفسك؟ فتغرق سمر في صمتٍ أشدّ عمقًا وظلمةً، بينما يقف سليمان، على الضفّة الأخرى، عاجزًا عن مدّ يده وانتشالها. هذا ما حاولتْ سمر أن تتفاداه بصمتها، فلم تكن ترغبُ في أن تراه عاجزًا. وها قد نجحتْ في إقناع نفسها بذلك، بل وعملتْ على

تصديقه حتّى نسيتْ السّببَ الحقيقيّ لعدمِ الردّ عليه. كانت ستخسر مكانتها في قلبه لو أخبرته بأنّها تعاقب نفسها على ما حدث بينها وبين آدم. والحقيقةُ، أنّها كانت ستخسر حياتها.

***

لا حقيقة سواي...

***

لم يدمْ غياب باسم طويلًا هذه المرّة، ولكنّه ترك في سليمان أثرًا أعمق ممّا تركتهُ فيه سفراتُه السّابقة. كانَ كلُّ شيءٍ في بيته جاهزًا لعودته: طفلاه النّائمان في غرفتهما، السّريرُ المرتّبُ بإتقانٍ في غرفة نومه، الضّوء الخافتُ في المصباح، رائحةُ العشاء الملكيّ في المطبخ، الشّوقُ في قلب منال، منال... الّتي واجهتِ المرآةَ، ثلاثين مرّةً، في أقلّ من ساعةٍ، لكنّها ستظلّ، للمرّة الألف، ترى نفسها غير مثيرةٍ، حتّى وهي ترفلُ في تلك الملابس النّاعمة والشفّافة، بلونها البنفسجيّ الّذي يحبّه باسم. أما زال يغريه هذا اللّون؟ تجهّم وجهُها عوض أن تبتسم حين تبادر إلى ذهنها هذا السّؤال. ولا يُعدُّ ردُّ فعلها هذا أمرًا طارئًا، بل يمكن القول إنّه طقس منال الوحيد، قبل كلّ لقاءٍ حميم مع زوجها، وخِلالَ ذاك اللّقاء، وبعده. لا يذهبنّ في ظنّكم أنّها امرأةٌ نكديّةٌ، أو أنّها تشكو خللًا في هرموناتها، إنّما ثقل تلك اللّقاءات السّريريّة هو ما يسحق روحها وجسدها، ويجلو ذلك على وجهها. فمنذ أشهر زواجهما الأولى، كانت تعاني من رؤية زوجها يغمض

عينيْه، حتّى قَبْلَ أن يلمسَها، فيجبرها على البقاء متيقّظةً، عوض أن تذوب مثل قطعة ثلجٍ، أو تهتاج مثل عاصفةٍ، أو تضطرم كنارٍ لا تخلّف الرّماد. كان عليها، في أَشدّ اللّحظاتِ الحَمِيمَةِ من حياتها، أن تفتّش عنِ النّساءِ اللّاتي يطُفْنَ عرايا في مُخيّلة زوجها. وأكثر ما كان يؤذيها في الأمر، أنهنّ يعشن هناك بأمانٍ، بينما يلعب جسدُها دور الكومبرس، ليقوم بأداء أكثر المشاهِدِ خطورةً. وبعد إنجاب طفليْن، لجأت منال إلى طبيبٍ نفسيٍّ مختصٍّ، تاركةً خلف ظهرها نصيحةً مجّانيّةً اعترضَتْها صُدفةً في أحَدِ الكتب: «قد يلتقي اثنان لا يسلكان الطّريق نفسَهُ، يحدث ذلك مرّةً واحدةً، وعلى امتدادِ فترةٍ وجيزةٍ، لا تتعدّى ما تستغرقه نظرةٌ أو تلويحةٌ أو حتّى تحيّةٌ».

حينَ أدارَ باسم مفتاحَهُ في قفلِ البابِ، أعادت منال دَفْتَرَها إلى الدُّرْج. أمّا أنا، فقد خرجت في مَهمّةٍ مستعجلة.

***

أوقفَ سليمان سيّارتَهُ في طريقٍ مُظلمٍ. وبقي ينتظرُ خُروجَ الفتاةِ الّتي تسبّبَ في موتِها، لتُجيبَه عنِ السّؤالِ الّذي تركتْهُ مُعلّقًا. فمنذُ أن أغلقتْ سمر نافِذَتَها في وجْهِهِ، وهو يبحثُ عن تلك الفتاة. يظلُّ يجوبُ الطّرقاتِ بسيّارتِهِ، ملقيًا، بين الفينة والأخرى، نظرةً إلى أسفل المقعد الخلفيّ، عند موضعِ الأقدامِ تحديدًا. وحين ييأسُ مِن ظهورِها، ينطلقُ مُباشَرةً إلى الطّريقِ الخطأِ الّذي سلكه يوم هرّبها من ذلك الخطرِ الّذي لا يعرفه. هناك، يركنُ السيّارة في المكان نفسِهِ، تاركًا ضوءها

ممتدًّا إلى حيث التقيتُ بتلك الفتاةِ، في ذلك اليوم، لأنقذَ روحَها. أجل، فأنا من أنقذها وليس هو. بعد طول انتظارٍ تحمّلَهُ بالتّفكير في سمر أكثر ممّا جابهه بالصّبر، رأى شيئًا مّا عند أقصى ضوءِ السّيّارة، وعندما أمعن النّظر فيهِ، تبيّن له أنّه أكثر من شيء. مجموعةُ ظلالٍ... ظلالٍ بشريّةٍ... أطفال؟ أجل، فعلًا، إنّهم أطفالٌ... فتح سليمان نافذة السيّارة ليُطلّ برأسه ويتأكّد ممّا تراه عيناه، وبمجرّد أن أنزل الزّجاجَ بضعة سنتميتراتٍ، حتّى تدفّقتِ الأصواتُ الكثيرةُ مكثّفةً في صوتٍ واحدٍ يصرخ ساخرًا: «سليمانْ، سليمانْ... يحرسْ منْ بيت العِرسانْ». فأغلق نافذةَ السيّارة كالمَلْدوغ، ثمّ شغّل المحرّك، وفاجأ العجلاتِ بانطلاقةٍ لم تتعوّد عليها، حتّى إنّها دارت في الفراغ تكاد لا تلمس الأرض، ولم تخلّف وراءها سوى بقايا دخانٍ ملتبسٍ بالغبار، ورَجْعِ هديرِ المحرّك يقطعه صوتٌ أعظمُ، دفعةً واحدةً، وعلى نحوٍ خاطفٍ، كأنّه سمكةٌ كبيرةٌ تبتلع سمكةً أصغر منها بكثير.

***

لم أكن هناك حين خُيِّل لسليمان أنّه سمع أصواتَ أترابه وهم يسخرون منه. كنت في شقّةٍ أكلتِ النّارُ نِصْفَها، بينما خبّأتِ الأمُّ أطفالَها الثّلاثةَ في حوضِ الاسْتِحْمام، بعد أن أغلقتْ بابَ الحمّام بالمفتاح. «بالمفتاحِ؟!». كدتُ أضحك حقًّا، لولا صراخُ الأطفال المذعورين. اهدؤوا أيّها الصّغار الطّيّبون، لستُ هنا من أجلكم. خبّأت الأمّ أطفالَها الثّلاثةَ تحتَ بطّانيّةٍ مَبلولةٍ بالماءِ، ولفّتْ يدَيْها حولهم كحَبليْ نجاةٍ.... عبرنا وحيدَينِ، أنا وهي، سَقْفَ الغُرفةِ،

متّجهيْنِ إلى قبّةِ السّماءِ. في الطّريق، لوّحت الأمّ إلى الشّبابيكِ الزّجاجيّةِ المضاءةِ، والأسْطُحِ الصّابرة، وإلى بحرٍ لمْ ترهُ يومًا مِنَ الأعْلى، وسُفنٍ أصْغَر مِنْ أنْ تُصَدِّقَ نجاتَها مِنْ ذلك الأزرق الممتدّ في كلِّ اتّجاهٍ مِنْ حولِها. وشيئًا فشيئًا، بهتتِ الأرضُ تحتَها، حتّى صَارتْ بلا لوْن. «تُنقذِينَ الآخرينَ وتتخلّيْن عني؟»، كان ذلك آخرَ ما سمِعَتْه قادِمًا من الأرضِ، محمُولًا بعمودِ دخانٍ أسْود...

***

لم ييأسْ سليمان، لكنّه لم يقم بأيّ خطوةٍ مجنونةٍ أو حتّى جريئة. كلّ ما فعله أنّه عاد إلى الشّرفة وحاول أن يتفادى ضرْبَ نافذة سمر بشيءٍ يُصدر صوتًا يجلب انتباه الجيران. كانت فكرةُ قِطَعِ العجينِ الصّغيرةِ مُرْتجَلةً ولا معنى لها: «ربّما أستعينُ بالأرزِّ في المرّةِ القادِمة»، قال في نفسِهِ ملتفتًا إلى الحوضِ ليتأكّد من أنّ البراعمَ بدأت تبزغُ فعلًا، فرأى كفّ سمر.

رنّ الجرسُ، فخَطا سليمان خطوتيْن بطيئتيْن، ثمّ أسرع نحو الباب. كانت زيارةً خاطفةً من ابنه باسم، أخبره فيها بقرب قدوم السّائق، وراح يشرح له مهامّ هذا الوافد الجديد، معلّلًا ضرورة استقدامه، مرّةً بالإشارةِ إلى شيءٍ ممّا ليس في مكانه الطّبيعيّ، وأخرى بتمرير كفّه على الأريكة ثُمّ رفعها مُظهرًا كَمَّ الغبار الذي أكَل البيت. ولم يجد حجّةً أقوى من جسد سليمان نفسه الذي كان ينحل يومًا بعد يومٍ:

- أبي... انظُرْ إلى نفسك، إنّك تذوي دون أن تدري. من المؤكّد أنّك لم تَعُدْ تتغذّى كما ينبغي. ألا يكفي أنّك رفضتَ أن يُتابع ذلك الصيدليّ وضعكَ الصحّي... أنتَ سيّدُ نفسِك، وستظلّ كذلك... إن أزعجك السّائق اصرفه... ولن يقدم على إزعاجك، فهو مستقدمٌ من أجل السّهر على راحتك... حتّى مسألة قيادة السيّارة، أنتَ حُرٌّ فيها... إن شئتَ قدتَ بنفسك، وإن كنتَ مرهقًا فليقد هو إلى حيث تشاء... أبي، ماذا لو تعكّرت صحّتك فجأةً لا قدّر الله... وأنت وحيدٌ بين أربعة جدران... الوحدة قاتلةٌ يا أبي... لا، لا، أبدًا، لا أقصد أنّه سيقيم معك ليلًا نهارًا... ولهذا السّبب أنا هنا... أريد مفتاح غرفة السّطح، كي أجهّزها للسّائق، فقد يصل خلال هذا الأسبوع...

- ما الأمْرُ يا بنيّ؟

لم يعد ثمّة أيُّ مجالٍ للشّكّ في أنّ خَطْبًا مّا قد أصاب باسم... باسم الصَّمُوت صار يُثرثر! لذلك قاطعه سليمان، وألحّ في السّؤال بدِقّةٍ أكبر:

- ممّ تعاني يا بنيّ؟

انفجر باسم أمام والدهِ بدموع لم يذرف مثلها يومًا في حياته، حتّى عندما كان طفلًا. بينما كانت تلك المرّة الأولى الّتي بدا فيها سليمان أبًا. فلم يحاول نَهْيَ ابنِه عن البكاء، لم يربّت على كتفه مواسيًا، ولم يقل ما

يُقال عادةً في مثل هذه المواقف. ظلّ سليمان صامتًا، دون أن يُطيلَ النّظر إلى باسم، منتظرًا أن يسترجع ابنه توازنه الدّاخليّ، بلا مساعدةٍ من أحدٍ، حتّى يكون توازنًا حقيقيًّا. وقبل أن يهمّ باسم بالاعتذار عمّا حدث للتّوّ، بادره سليمان وعيناه تلمعان بابتسامةٍ قديمةٍ:

- لقد أعدتنا إلى أكثر من عشرين سنةً، إلى زمنٍ كانت فيه جدّتك حيّةً.

ثمّ انفجر ضاحكًا بطريقةٍ لم يعهدها من قَبْلُ. فبدا الاستغراب على باسم. ورغم ذلك، لم يتأخّر في الضّحك هو الآخر.

حين استعادا أنفاسَهما الهاربة مع الضّحكات، قال سليمان وكأنّ الكلام قبل تلك اللّحظة كان بلا معنًى:

- والآن... أخبرني يا ولدي، فأنا محتاجٌ إلى أن أسمعك.

- أنا في نفقٍ يا والدي... في نفقٍ مظلمٍ، لا يُضيئُه المال ولا الوظيفة ولا الزّوجة ولا حتّى الأبناء.

بالغ سليمان في المزاح هذه المرّة، فبدا وكأنّه يسخر من مشاعر ابنه:

- لو كنتُ زوّجْتُكَ وأنت طفلٌ، لفهمتَ مزايا العتمةِ يا بُنيّ.

لكنّ باسم عاودَ الضّحكَ، بمفرده هذه المرّة. فهو يدرك ما عاناه والده، ولذلك فهم ما قَصَدَهُ.

حينَ تأكّدَ سليمان أنّ ابنه قد استعاد نفسه، اتّجه إلى المطبخِ ليُعدَّ فنجانيْ قهوةٍ، دون أن ينسى إلقاء نظرةٍ على نافذةِ سمر المغلقَة. كانتِ

المساحةُ أصغرَ في المطبخِ، وهو ما أتاحَ لهُ الاقتراب منْ ولدِهِ أكثر. أمّا الحديث الّذي دار بينهما أثناءَ شرب القهوة، فلا أحد يعلم عنه شيئًا، فهما لا يتشابهان إلّا في قدرتهما العجيبة على الكتمان.

غادر باسم، ونظراتُ أبيه تتبعه إلى الباب الذي صرّ صريرًا خفيفًا. حينها همهم سليمان قائلًا:

- أيًّا كان ما يمرُّ بهِ هذا الفتى، فهو أفضلُ حالًا منّي، يكفي أنّ أمّه نبيلة، وأنا أمّي حمدة.

استرجعَ سليمان خِذلانَهُ الأوّلَ. فهو في الحقيقة، لا يفارق ذهنه لحظةً، غير أنّه في بعض الأحيان لا يطفو على السّطح. وحتّى وهو في ذروة السّعادة يوم زارته سمر، تذكّر أمّه، وتحديدًا عندما كانت ضيفته تعالج التّراب بالسّماد. حينها تساءل دون أن يظهر على ملامح وجهه أيّ تغييرٍ: «هل يمكن لأمٍّ أن تعاقب ابنها بحرمانه من الأكل؟» حمدة فعلت ذلك. منعت عنه الطّعام حتّى يكفّ عن الهرب من غرفة نومه ويعودَ إلى زوجته ويفعلَ ما يفعلُهُ الرّجال. حرمته من شرط الحياة الأوّل من أجل أن يستمرّ نسلُ أجداده.

***

عملتْ سمر كلّ ما في وسعها لتكفّر عن أخطائها في حقّ فاضل. فلم تكن تضيفُ الثّومَ إلى الطّعام، وكانت تكتفِي بلبِّ الطّماطمِ عوضًا عَنْ أصْباغِها، حتّى لا تؤذيَ معدته، وتستعيضُ عنِ الملحِ باللّيمونِ الّذِي يحبُّه. تناولَا الغداءَ معًا... ورغم إحساسِها العميقِ بالوحْدَةِ على تلكَ الطّاولةِ، كانت تشعر بالرّاحة.

- ليسَ لديّ فكرةٌ عمّا أقولهُ لهما.

كان ممسِكًا بهاتفِهِ بينَ كفّيهِ، يأكلُ لقمتينِ، ثمَّ يعاودُ الكتابةَ:

- يريدانِ الانضمامَ إلى الرّفاقِ في منتجعِي، ولا أحدَ يريدُهما... بماذا عسايَ أعتذر؟

ضحِكَ ضِحكةً مكتومةً، وهو يسألُ سمر.

- أحدُهما يأكلُ واقفًا على قدميهِ كحمار.

انفجرَ ضاحكًا هذه المرّةَ، ولمْ يبدُ عليهِ أنّهُ سيستعيدُ هُدوءَهُ قريبًا، بينما ظلّتْ سمر تنظرُ إليهِ، وفمُها عاجزٌ عنْ مجاراتِهِ حتّى بابتسامةٍ، بل كانت تسأل نفسها وهي تستشعِرُ وجودِي في الغرفةِ: «إنْ لمْ تكنْ رفقةُ هذا الرّجلِ وعشرتُهُ هي الموت! فما هو الموتُ إذن؟».

سرح ذهنُها متنقّلًا من المصعد حيث تسمح لأحدِهم بأنْ يلتصق بها من الخلف، إلى عيادة طبيب الأسنان الّذي كان يتعمّد مداعبة لسانها بإصبعه، وفي طريق عودته، عاجَ على محلّ الفساتين حيث يقوم البائع بتمْريرِ أصابعِهِ أكثرَ مِنْ مرّةٍ فوق خصرها وصدرها، مقترحًا عليها فستانًا تلوَ الآخر، وصولًا إلى سريرها، أين تتمدّد منتظرةً آدم. كانت تنام بعد مغادرته مباشرةً لتحلم بالرّجل الّذي تمنّته في صباها. لكنْ، منذ ظهور سليمان من الشّرفة، أصبحت تنزل عن سريرها بعد أن تمحوَ عنها كلّ أثرٍ للمتعة، وتتوجّه صوب نافذة مطبخها. وحين تتفطّن إلى أنّ الجار يُطيل النّظر إلى صدرها تلفّ معطفها المنزليّ بإحكام. أمّا إذا طلب منها عبر الهاتف أن ترفع

شعرها عن عنقها، فإنّها تتجاهل طلبه بتغيير الموضوع. مرّةً، أطلقت عبر الهاتف تنهيدةً عاليةً كلّها غنج، فرجاها أن تعيدها. ولكنّها قطعت الاتّصال.

***

- مرحبًا يا جار.

تظاهرَ سليمان بأنّهُ لمْ يسْمَعْهُ، رغم اسْتِحالةِ ذلك. فالتفَتَ فاضل إلى الجهَةِ اليُسْرى، حيْثُ تقِفُ سمر مُلتصِقةً بحوضِ غسْلِ الأطباقِ:

- هذا الجارُ أطرش؟

كانتْ سمر مُتخَشِّبةَ الظّهْرِ، تفركُ طبقًا وتعضُّ على شفَةٍ ابيضّت بمجرّد أن نطقَ فاضل بأغربِ كلماتٍ يُمكِنُ أنْ يُفتَتَحَ بِها حِوارٌ: «ورْدُكُمْ يُشْبهُ وردَنا! هل تُلزمُنا البلدِيّةُ بهذا التّنْسِيق؟»، ثمَّ مدَّ عُنُقَهُ إلى اليسارِ مُستكشِفًا، ليتأكّدَ مِنْ ألوان الورود في البناياتِ المجاوِرَة. وعندما تمتمتْ بشيءٍ مّا خلفه، ردَّ عليْها فاضل بكلِّ حمقٍ:

- أيُصبِحُ الأرملُ أخرسَ بعْدَ وفاةِ زوجَتِه؟

وضعت سمر كفّها على جبينها كأنّها تقيس حرارتها حينَ ابتعَدَ فاضل عَنِ النّافذةِ، مُتّجهًا نحْوَ الثّلّاجةِ، تاركًا سليمان خلفَهُ في حالةِ ذهولٍ، وهو يردِّدُ هامِسًا: «منْ هذا الرّجُلُ الّذي كلّما حاولَ الكلامَ نبَح؟!». وحينَ انْحنَى زوجُها باحثًا عنْ علبة الفاكهة، ركضَتْ سمر سريعًا خارج المطبخ. كانت تعرف أنّ سليمان سيراها، وإن فاقت

سرعةَ الضّوء، لكنّها تجنّبت أن يشهد فاضل ردّة فعل سليمان حين يراها. خفق قلبُها بشدَّةٍ، وهي تتّكئ على الجدارِ الفاصل بين غرفة النّوم والمطبخِ. وبمجرّد أن استعادتْ أنفاسها وفتحتْ عَينيْها، سمعتْ فاضل وهو يقولُ ببلاهةٍ عمّقها شيءٌ ممّا كان يمضغه في فمه:

- آسفٌ يا جار... كنتُ أمازحُكَ فقط.

سمعَتْ سليمان وهو يردُّ بكلامٍ مجاملٍ لا يحبّهُ، فيفضَحُهُ صوتُهُ الّذي تعرفُ دلالة كلّ نبراته جيّدًا. ثمّ بادرهُ فاضل بكلام لا سياق له ولا معْنى:

- أنا أسافر كثيرًا، ولم أتعلّقْ بجوِّ العائلةِ والجيران. لذلكَ لا أعرفُ أحدًا هُنا، ربّما هذا أفضل... صحيح؟ ما رأيكَ؟

ثواني الصّمتِ الّتي سبقتْ ردّ سليمان: «الحقيقةُ... أنا غيرُ متأكّد!»، جعلت سمر تحدس أنَّ الغضَبَ قد وصَلَ إلى قبضَتِه. لكنْ، بعْدَ مُضيِّ عدّةِ دقائقَ، تشَوّشَ إحساسُ سمر بردِّ فعلِ حبيبها، وبدأتْ تشكّكُ في معرفتها به، خصوصًا حينَ انتقلَ الحوارُ إلى مباراةٍ ستُعرضُ في المسَاء. عندئذٍ، اتّجهتْ مُسرِعةً نحوَ غُرفتِها، وأزالتْ مِنْ هاتفِها الحظر عنْ رقمِ سليمان لترسل إليه: «ماذا تحاولُ أنْ تفعلَ الآن؟ ما المغزى مِنْ هذا التودّد يا سليمان؟» لكنَّ ردّهُ الذي لم يصل إليها إلّا من الغد، لمْ يزدْها إلّا قلقًا وغضَبًا: «ماذا حسب رأيك؟ جارٌ يتعرّفُ إلى جارِهِ، ما شأنُكِ أنتِ؟». غيرَ أنّ كلَّ هذا لا يُعَدُّ شيئًا، أمامَ المشاعرِ الّتي اعترتْها بعدَ يومٍ، وهيَ ترى فاضل يلبَسُ ثيابَهُ، ويستعِدُّ للخروجِ قائلًا:

- سيسدّدُ الجارُ رهانَ هزيمةِ البارحةِ، لذلك عزمَنِي كيْ نتعارفَ أكثر.

وقبْلَ أنْ يصلَ إلى الشّارعِ، كانتْ سمر تتّصلُ بسليمانَ، لتنفجرَ في وجهِهِ كلُغْمٍ، ما إنْ ردّ عليها. لمْ يحاولْ سليمان مقاطعتَها، وهذِهِ طبيعتُهُ معَها منذ عرفَها، فظلّتْ تصرُخُ أكثرَ مِنْ كونِها تتحدّثُ، حتّى وصلَ فاضل إليهِ، فالمقهى الّذي تواعدا على اللّقاء فيه، لا يبعد عنِ البيتِ سِوى مئتيْ متر. حينها، استأذنَها بكلِّ برودٍ قائلًا:

- وصل جاري... بالإذن الآن يا جارة.

طبعًا، ستقوم سمر، ككلّ النساء، بشيءٍ غريبٍ، لا يمكنُ فهمُه. حينَ أغلقَ هاتفَهُ، دونَ أنْ تمنحَهُ فرصةً واحدةً للدِّفاعِ عَنْ نفْسِهِ، ضَمّتْ هاتفَها إلى صدرها، وانْكمشت تبْكِي. لكنْ أظنّ أنّي أفهمها: يبدو أنّها رأت نفسها في أعيُنِ رجليْنِ، في اللّحظةِ ذاتها، وهذا، إحقاقًا للحقّ، أمر يدعو إلى البكاء! هل بإمكانكَ أن ترى نفسك تسقط في هاويتيْن معًا، ولا تبكي.

***

ما تعتبرونه سخرية القدر، إنّما هو عجزُكم عن الفهم، كحالِ باسم الّذي ازدادَ تقوّسُ ظهرِهِ منذُ عَودتِهِ مِنْ سفرتِهِ الأخِيرةِ، فقدْ وضَعَ كلَّ فُرصِ سعادتِهِ في سَلّةٍ واحِدةٍ، وهو يوشكُ أنْ يُضِيّعَها كلَّها دُفعةً واحِدَةً. جلسَ في صالةِ شقّتِهِ ظهيرةَ يومِ سبتٍ، متنقّلًا مِنْ قناةٍ تلفزيونيّةٍ إلى أخرى، في مُحاولةٍ بشَريّةٍ ضَعِيفةٍ لفهْمِ العالَمِ

مِنْ حولِهِ، وفجأةً، سمع خبرًا عن إسطنبول. وهكذا جعلتْ كلمةُ «إسطنبول» وهي تخرج من بين شفتيْ مقدّمة الأخبار، كلّ ما تُحدِثُهُ الأقْدامُ الصّغِيرةُ الرّاكضَةُ في أرجَاءِ المنزلِ، دويًّا يصمُّ أُذنيهِ، فصَرخَ في ابنيْه دونَ أنْ يلتفتَ إليهما. فهرعَ زيادُ باكيًا، يفتّشُ عنْ أمِّهِ. وسرعانَ ما أتتْ لتعيد الهدوء إلى البيت، ثمّ اقتربَتْ مِنْ باسم، وهي تبتسِمُ وتشمِّرُ كُمَّ قميصِها الأبيض. كانتْ على وشْكِ أنْ تسألَ عمّا يوتّرُهُ هكذا، عندما لمحتِ الخبرَ العاجلَ على شاشةِ التّلفازِ، فانتقلتْ نظراتها مِنَ الشّاشةِ إلى وجْهِ باسم، ثمّ إلى الأشهُرِ الماضيَةِ، وتحديدًا، إلى تلكَ اللّحظةِ الّتي دخلَ فيها البيتَ عائدًا مِنْ تركيا، كأنّهُ مُصابٌ بالسُّلّ. وفي أثناءِ إعادةِ ترتيبِ ألعابِ أطفالِها المتناثرةِ في كلِّ مكانٍ، رتّبَ لها عقلُ المرأةِ المستجدّاتِ، وبدأَ يربطُ بينها. إثر ذلكَ، جلستْ في الجهَةِ الّتي تمكّنُها مِنْ مُراقَبةِ عَينيْ باسم... وتفرّسَتْ في حركةِ جَفْنيهِ، وهو يتابعُ الخبرَ العاجلَ، غيرَ مُدْركٍ قُربَها الشّديدَ مِنْه. كان يمسِكُ بجهازِ التّحكُّم، وهو يكادُ يقفزُ إلى الشّاشةِ، مُحاولًا معرفة المكان الذي حدثَ فيه ذلكَ الانفِجار بدقّة. حينَ انتهى الخبرُ العاجلُ، التفتَ إليها، كأنّهُ أدركَ وجودَها للتّوّ. وعلّقَ بجملٍ مُتقطّعةٍ عنِ الإرهابِ وقذارةِ السّياسيّينَ، ثمّ تنهّد كأنّهُ سئِمَ إخفاءَ ما يُتعبُهُ وحْدَهُ، والتفتَ إليْها وهو يعدِّلُ منْ جِلستِهِ، ويشبكُ أصابعَهُ، على هيئةٍ من سيُدلي باعترافٍ بعد قليلٍ، كيْ يُريحَ ضَمِيرَهُ. لكنّها قاطعتْ تنحنُحَهُ، وهي تسألُهُ:

- قبل كلّ شيءٍ... أتشرب شايًا؟

توجّهتْ إلى المطبخ على عجلٍ، ربّما خشيةَ أنْ يبوح لها بأمرٍ لن تحتمِل سماعَهُ، أو أن يُقدِمَ على تفسيرٍ يجعلُ حياتَهما جحيمًا لا يُطاق. فقد تحتملُ المرأة أن يخونَها جسدُ زوجها، أو أن يقول لغيرها ما يقول لها من كلامٍ معسولٍ، لكنّها لا تستطيع مطلقًا أنْ ترى امرأةً أخرى في قلبه، لذلك تُفضّل أن تبقى في عماها على أن يأتيها معترفًا. وما الّذي ينتظره من وراء هذا الاعتراف، الحصول على جائزةِ الطّلاقِ أم شهادة العفوِ مقابلَ صِدقِه وصراحته؟

حينَ عادتْ إلى الصّالة، وهي تحملُ طبق الشّايِ بيْنَ يدَيْها، كانتْ تبتسمُ بعينيْنِ حزينتيْنِ، قرّرتا الصّمتَ عمّا تعلَمانِهِ، فربّما كانتْ، فيما مضى، تشكُّ فحسْبُ، لكنّها أصبحتِ الآنَ على يقين. فضلًا عنْ أنّ الخسارةَ في حالتِها يمكنُ أنْ تتحوّلَ إلى ربحٍ، فقد تجد في هذا الأسَى الّذي يُدمّر حياتها، طريقًا إلى كتابةٍ أصدقَ وأقربَ مِنْ قلوبِ مُتابعيها.

خلال الأيّامِ التّاليةِ، ملأت كتابها الجديد ببوحٍ أحبّتهُ النّساءُ على وجْهِ الخصُوصِ، وقد جنتْ ثمارَهُ عبرَ مَواقِعِ التّواصُلِ، إذْ لاقَى حزنُها الصّادقُ اهتمامًا وافرًا منحَها قيمةً لمْ تشعُرْ بِها في أيِّ وقتٍ مضَى، ومنْ ثمّ أصبحتْ تتقبّلُ فكرةَ كونِها تجلسُ كحارسٍ على بابِ حديقةِ الحيوانات الّتي كانت في صدْرِ باسم، مصدّقةً تمامًا أنّها الحاميةُ الوحيدةُ لزواجِهما.

***

من هذا العلوّ، أرى البشر يسيرون كالعميان.

***

أصبح سليمان يرى جاره فاضل في كلّ مكانٍ، واقفًا على يمينِهِ في البقالةِ يتصفّحُ جريدةً دونَ أنْ يشْتريَها، أمامه في المخبز وهو يشرحُ لأحدهم مزايا خبْزِ النّخالةِ. أينما ولّى وجهه يوجد فاضل، حتّى قرب حاوية النّفايات، حيث تستبدّ أقوى مشاعر الغيرةِ بسليمان. ففي كيس الفضلات الأسود الّذي يلقيه فاضل، يرى العاشق كلّ ما يحدث في شقّة حبيبته. ذلك الكيس دليلٌ قاطعٌ على أنّ سليمان لم يتمكّن من نسيان سمر بعدُ، رغم أنّه صار مؤخَّرًا ينسى أبسطَ الأشياء وأشدَّها إلحاحًا، حتّى إنّ بقّال الحيّ قد أعدّ له دفترًا يسجّل فيه قيمة مقتنياته بعدما نسِيَ محفظة نقوده في البيت أكثرَ من مرّة. بل إنّ سليمان ما عاد يذكر أنّه لم يولدْ في حيِّ «بدّار». فعلًا، ليس من السّهل أن ينسى المرء مسقط رأسه. لا، لا... لم يتطوّر الأمر إلى درجة نسيان اسمه أو نسيان الأشخاص الّذين يعرفهم. لقد عرف صوت جاره الخارج من الصّيدليّة حين ناداه: «جاري... كيف حالك؟» فهذا الصّوت الودود رغم نبرته العالية دومًا، لا يصدر، طبعًا، إلّا عن فاضل. لكنّ سليمان تظاهر بأنّه لم يسمعه. فألحّ فاضل في النّداء، مسرعًا الخطى خلف جاره، حتّى لم تعد المسافة بينهما تسمح بذلك. التفت سليمان متظاهرًا بأنّه قد تفاجأ برؤية جاره. لكنْ سرعان ما لاحت على وجهه وفي عينيْه علاماتُ التّفاجؤِ الحقيقيّةُ. فحين مدّ فاضل يده، ظنّ سليمان أنّه سيصافحه، وقد حدث ذلك فعلًا، غير أنّ المصافحة تحوّلت إلى قبضٍ على يد سليمان وسحبٍ في اتّجاه المقهى، دون أن تنجح محاولات

التملّص. ثمّ فرضَ عليهِ الصّمتَ بحركةٍ مِنْ يدِهِ وهو يقولُ:

- لمَ العجلة؟ لا أحد ينتظركُ في المنزلِ.

في البدءِ، بدا الأمرُ لسليمان مقيتًا، ثمّ وجدَ نفسَهُ محاصرًا بصَديقٍ يُذكّره بمَرحِ الطّفولة -قبل الزّواج طبعًا- وبسذاجة الأطفال، ويُشاركه بياضًا عمّ أغلب الشَّعْرِ. كانَ مُقدَّرًا لتلكَ العلاقةِ أنْ تنمُوَ معَ الأيّامِ، رغم محاولاتِ سليمان التّسلّلَ هربًا عبر سراديبِها. وعكس ما كان منتظرًا، بدل أن يخفّ بُغْضُ سليمان لفاضل، زاده الفشل في تجنّب زوج سمر الودود، سببًا آخر لينقم عليه. وماذا ستصبح النّقمةُ لو يعرف سليمان أنّ سمر قد أسلمت حياتها كلّها إلى المطبخِ؟ في البداية، من أجل التّكفير عن ذنبها، ثمّ سرعان ما تحوّل الأمر إلى طلبيّاتٍ وزبائنَ تعدّ لهم أصنافًا من الحلويّات والكعك لا تجيدها غيرُها في المنطقة كلّها. انشغل ذهنها حتّى إنّ ذكرى سليمان لم تعد تجد منفذًا إليه، وامتلأ وقتها حتّى لم تعدْ تجدُ فرصةً لتأسَى على جسدِها. ماذا ستصبح النّقمةُ لو أنّ سليمان السّاهر في شرفته ناظرًا إلى نافذة سمر، يراها وهي تغطّ في نومٍ عميقٍ بمجرّد أن تضع رأسها على الوسادة؟

***

كانتِ الغُرفةُ مَقلوبَةً، ورأسُ سمر يتدَلّى مِنْ فوقِ السّريرِ، ملامسًا البلاط. مشْهد الغرقِ ذاك، كان نتيجة رغبتها في أن تجعل سلسلةً أهداها إيّاها سليمان تتأرجحُ بينَ عنُقِها وفمِها، كي تظلّ تُقبّلها.

في ذلكَ اليومِ، جمعَها غداءٌ بزوجها وحَمَوَيْها في شقّتِهما العلويّةِ المتطابقة في تصميمها مع شقّة سمر، معَ اختِلافٍ تامٍّ في الأثاثِ. من أعلى، بدت طاولة الغداء كأنّها مَقبرة. كانت أمّ فاضل توزّع نصيب الجالسين من كلّ طبقٍ، وبمجرّد أن تذوّقت الشُّربة التي أعدّتها سمر مساهمَةً منها في هذا الغداء العائليّ، قالت معلّقةً:

- امم... ليس مستغربًا أن تخلّف هذه الأصابع الحلوة كلّ هذه اللّذّة.

طبعًا، معلومٌ أنّ لكلّ ما تطبخه سمر مذاقًا مميّزًا جدًّا. هذه حقيقةٌ، غير أنّ مبالغة الأمّ جعلت كلماتها أقرب إلى كونها مجاملةً. رغم ذلك ابتسمت سمر من الأعماق، إذ أحسّت بشيءٍ من التّعويض عن جهدها الّذي لم يكافئه زوجُها يومًا وإن بكلمةٍ واحدةٍ أو بقُبلة. هذا سببٌ كافٍ ليجعل سمر تبتسم بصدقٍ، لكنّ المعنى الّذي استقرّ في ذهنها بعد أن سمعت كلمات حَماتها هو ما جعلها تبتسم فعلًا. لقد تذكّرت كلمات ذلك الغريب الّذي سمّاها سفينةً: «أصابعك تجعل من جسدي بحرًا من اللّذّة».

فجأةً، تنبّهَ فاضل مثل طفل تذكّرَ حدثًا جللًا وقعَ في مدرستِهِ، ولمْ يقُصَّهُ بعدُ على والدَيْهِ. فقالَ بصوتٍ ضاحكٍ، مُشيرًا إلى مطبخِ أمِّهِ:

- هناك، يسكنُ جارٌ... أرملُ ووحيدٌ، لذلك يحبُّني جدًّا.

لمْ يعطِهِ والدُهُ عُشْرَ الاهتمامِ الّذي كان يوليه طبقَ الأرزِّ، بينما

كزّتْ أمُّهُ أسنانَها، وكأنّ لحم سليمانَ بين أنيابها... انتبهتْ سمر إلى تكشيرة حماتِها فورَ سماعِها اسمَ سليمان. فتشاغلتْ بلُقَمٍ سريعة سدّتْ بها قلقَها الواضِحَ. استرسل فاضل في وصْفِ وِحْدَةِ صَديقِهِ الجديدِ، وحاجتِهِ الملحّةِ، الّتي لا يفصِحُ عنْها، إلى رفقةِ ابنِهما الوحيدِ، وهو يعمل الآن على مساعدة جاره في تخطّي وحدته... في تلكَ اللّحظةِ، نعقَ غرابٌ فوقَ طاولةِ الطّعامِ، سمعتْهُ سمر بكلِّ وضُوحٍ، ثمّ نهَضَ وتوجّهَ بصمتٍ نحو طرفِ السّجّادِ الممدودِ أطولَ منْ طاولةِ الطّعامِ، كيْ يعدِّلَ بأصابعِ قدمِهِ حذاءَ فاضل المقلوبَ، وهو يبدِي تأفُّفًا مِنْ حركةٍ لا تنفكُّ تتكرّرُ:

- أفي رأسِكَ زرُّ تشغيلٍ لإعادةِ الأخطاءِ نفسها يا فتى؟ ألا تملُّ تكرارَ هذا؟

***

لم تكنْ مُصادَفةً أنْ يلتقيَ سليمان بفاضل في الشّارع، ثمّ يتمَشّيا حتّى يصِلا إلى الصّيدليّة. فقدْ كانَ هذا اتّفاقَهما المسبقَ، على أنْ يُكمِلَا اللّقاءَ بعد ذلك في المقهَى لمشاهَدَةِ مُباراةٍ تهمُّ سليمان كثِيرًا. داخِلَ الصّيدليّةِ، وحدهُ آدمُ كانَ يعلمُ أنَّ سمر حاضرةٌ بينَ ثلاثتِهم... واصل فاضل حديثه المسترسل منذ تصافحا، كان يحاول إفهام سليمان الفروقات بين الشّاشات التلفزيونيّة، بينما ظلَّ سليمان يهزُّ رأسَهُ مُنجذبًا بعْضَ الشّيءِ إلى شروحاته، ملتقطًا بنظراته كلَّ أنواعِ المُسكّناتِ المعروضَةِ خلف نافذة المحاسَبةِ، بالإضافةِ إلى أقراصِ

عسلٍ للحلقِ، واضِعًا يدَهُ فوقَ جيبِهِ، ليتأكّدَ منْ أنّهُ لمْ ينسَ محفظَتَه. حينئذٍ، تداركَ فاضل، والتقطَ عُلبةَ فوّارٍ:

- كدتُ أنسى ما جئتُ منْ أجلِه...ستجِدُها زوجَتِي فرصةً لتنفجرَ غضبًا في وجهي.

التقطَ آدمُ لمعةً في عينيْ سليمانَ لحظةَ ذكرَ فاضل أمرًا يخصُّ سمر. كانَ قدْ بدأَ بتمريرِ المشترياتِ عبْرَ جهازِ المحاسبةِ، عِندَما التقطَ سليمان الفوّارَ، وأعادَهُ إلى مكانِهِ في رفٍّ خلفَهما، ثمّ اختارَ نوعًا أغلى ثمنًا، وهو يقولُ:

- هذا أفضلُ، ونتائجه أسرعُ.

أضافَ سليمان تلكَ العبوّةَ الأكثرَ جودةً إلى قائمةِ مشترياتِهِ، ثمّ دسّ هديّته في كيس فاضل الذي لم يعارض شيئًا ممّا فعله جاره، لا تغيير نوع العلبة، ولا تسديد ثمنها. فقدْ كانَ سيفعلُ الشّيءَ ذاتَهُ، على اعتبارِ أنَّ الأمرَ يخصُّ صَداقتَهما، ولا شأنَ لزوجَتِهِ بذلك. اكتفى برسْمِ ابتسامةٍ عريضَةٍ ومُحبّبةٍ على وجهِهِ، وهو يؤكّدُ بحزمٍ:

- سَتتركُ حِسابَ المقْهى عَليّ يا جار، ودونَ نقاشٍ أيضًا.

رفعَ آدمُ رأسَهُ عنِ الأرقامِ في شاشةِ جهازِ المحاسبةِ، والنّصرُ يغمُرُ عينيهِ، إذْ وجدَ هذا المدْخلَ كيْ يوجّهَ إليهما سُؤالًا خبيثًا:

- أنتما جاران؟

ابتسمَ لهُ فاضل وهو يجيبه بكفّينِ مُتقابلينِ:

- النّافذةُ قبالة الشّرفه.

ثمّ أضافَ بصوتٍ حذرٍ متردّدٍ، ناظرًا إلى سليمان كمَنْ يريدُ أنْ يتأكّدَ:

- بل نحنُ صديقان أيضًا.

كانَ وقعُ الكلمةِ حنونًا على سليمانَ، كأنّ سمر هي مَنْ قالتْها، فابتسمَ لصورتها التي مرّت في ذهنه ببطءٍ سمح لآدم بالتّفكيرِ في طرح سؤالٍ آخر أكثر خبثًا وهو يَعُدُّ باقي مستحقّات سليمان. ظلّت ابتسامته تتّسع وتتّسع، حتّى صغرتْ عَيناهُ، ثمّ رمى بقنبلته اليدويّة:

- آها... تذكّرتُ الموقعَ الآنَ، أنا متأكّدٌ منْ أنّني زرتُ بيتَ العمّ سليمان قبلَ أقلّ مِنْ عامٍ، وقدْ كانَ قَلِقًا جِدًّا بشأنِ نافِذَةِ جِيرانِهِ المطِلّةِ على مَطبخِهِ، تلك الّتي بقيت مغلقةً ثلاثةَ أيّام... هل تتذكّرُ يا عمّ سليمان؟

وقف سليمان وجارُهُ مفرودَيِ الظّهْرِ، أمامَ الآلة الحاسبة، وأشعّةُ شمسِ العصْرِ تعكسُ عبر زجاج الصيدليّة ظلّيْهما المقسومينِ ككرسيّينِ، نصفُ كلٍّ منْهُما يتسلّقُ الجدارَ، بينما يتمدّدُ النّصفُ الثّاني على الأرْض. وبعدَ أنْ سلّمَ آدمُ لسليمانَ كيسَ دوائهِ، أضافَ وهو يعقِدُ ذراعيْهِ تحتَ صدْرِهِ:

- العمّ سليمان لا يهتمُّ بأحدٍ في الحيّ، لذَلك استغربتُ هلعَهُ على جارِهِ في تلكَ الشّرفةِ... من المؤكّد أنّ ذلك الجار هُو أنت.

التفتَ إلى فاضل حرصًا على إيصال كلماته إليه، بينما يعرفُ

ثلاثتُهمْ أنّهُ لمْ يُقِمْ في حيِّ «بَدّار» منذُ أعْوام. فنظرَ فاضل إليهِ كما ينظرُ الإنسانُ إلى هاويةٍ سحيقة... حيثُ يوجد شيءٌ مّا يُرعِبُهُ في الأسْفلِ، ولكنّهُ لا يكُفُّ عَنِ التّحْديقِ إليه. عندئذٍ، أضاف آدم كمن يدفع شخصًا واقفًا على شفا جرْفٍ صخريٍّ:

- أمْ قُلتَ لي وقتَها، إنّكَ قَلِقٌ على جَارتِكَ وصَدِيقةِ زوْجَتِك يا عمُّ سليمان؟

عَمَّ الصّمتُ الصيدليّة، فلم يبق فيها سوى صوت الآلةِ الحاسبة، بين نقْرِ أصابع آدم على أزرارها وخروج الفاتورة منها، وهي تتلوّى كمن به مغص. لكنّها أنقذت سليمان الّذي مدّ يده لالتقاطها بعد أن عجز عن قول أيّ شيء. وبمجرّد أن غادر هو وفاضل الصيدليّة عجَنَ تلك الفاتورة بين أصابعه ثمّ ألقاها أرضًا. فعلًا، هنالك أشياء لا نختلف في فهمها، أنا الموت، وأنتم البشر. أجل، كان سليمان يتمنّى لو أنّ آدم في مكان فاتورة الحساب.

في الطّريقِ، حرّكَ سليمان لسانَهُ داخلَ فمِهِ أكثرَ مِنْ مرّةٍ، لكنْ، لا صوتَ هُناك يُسْعِفُ الكلِمَات. فمضَيَا صامِتيْنِ إلى البيتِ لا إلى المقهى، دونَ سابقِ اتّفاقٍ على إلغاءِ خُروجِهما معًا. كانَ أحدُهما يقرأُ مكوّناتِ الفيتامينِ بانتباهٍ مصطنعٍ، والثّاني ينظرُ إلى البناياتِ منْ حولِهِ متقطّعَ الأنفاس، كأنّهُ يراها لأوّلِ مرّةٍ. وفجأةً، قاربَ فاضل المسافةَ بينهُ وبينَ سليمانَ، حتّى اتّكأَ على كتفِهِ وهو يقولُ:

- في أوروبا، لا تتعبُ هكذا مهما مَشيْتَ... لأنّكَ تمشِي على

حَجَرٍ، الحجَرُ يدعمُ طاقةَ الجِسْم. أمّا هُنا، فتمْشِي غالبًا على هذا السُّمِّ الأسْوَد. أتعلمُ أنّ الإسفلتَ، في علمِ الطّاقةِ، مادّةٌ مؤذيةٌ جدّا يا جار؟

حينَ وصَلا إلى بيتَيْهما، لمْ يكنْ فاضِل قدْ أنْهى ما اسْترسَلَ فيهِ مِنْ كلامٍ عن الطّاقَة، ما بعث في سليمان شعورًا بأمانٍ دفعه إلى محو ما حدث في الصّيدليّةِ والعودة إلى ما قبله:

- كانَ علينَا التّوجُّهُ إلى المقهى... أليْسَ كذَلك؟ كيفَ سهوْنا هَكذا؟ لابدَّ أنَّ المباراةَ بدأتِ الآن!

نظرَ فاضل إلى أعلى... إلى نافذةِ شقّتِهِ وشرفَةِ سليمانَ. لم يكن يفصِلُهما إلّا زقاقٌ بعرضِ عَشْر أقدام. فدُهشَ لقربِ المسافةِ كما تبدو من أسفل. ارتبك صوتُهُ وهو يحاولُ تبريرَ ضَرورةِ عَودتِهِ إلى المنزلِ:

- هذ الدّواءُ يحتاجُ... إلى البرودَةِ... وإلّا فسُدَ... يجبُ أنْ... أصْعدَ وأحفَظهُ في الثّلاجةِ فورًا... فالمباراةُ لا تهمُّني في كلِّ الأحوال.

لمْ يستطِعْ سليمان القفزَ على تلميحات فاضل. كان يدرك أنّه قد أخفى تحْتَ لسانِهِ كلامًا آخر، أو بالأحرى، معانيَ أخرى لتلك الكلمات نفسها. فسارع بكتابة رِسَالة نصّيّة قبْلَ الصُّعُودِ إلى شقّتِهِ...

كانتْ يدا سمرَ غارِقَتيْنِ في إناءِ العَجِينِ، حينَ صدرت عن هاتفها رنّة قصيرة. التفَتتْ إلى الجهةِ اليُمنى، فرأت رسَالةً تتوسّط بوضُوحٍ تامٍّ شاشةَ هاتفَها المستقرّ فوقَ رخامِ خِزانةِ المطبخ. وبمجرّد أن رأت رقم سليمان على الشّاشة، هرعت لفتح رسالته يسبقها حدسٌ بوقوع

كارثةٍ لا يفصلها عنها سوى ضغطة زرّ: «الصّيدليُّ فضَحَ كلَّ شيءٍ يا سمر».

ضربت على صدرها بكفّها المغلّفة بالعجين. التفتت حولها. أرسلت نِظرةَ فزعٍ إلى شرفة سليمان. اصطدمتِ النِّظرة بنافذتها المغلقة. هرعت نحو النّافذة. وقبل أن تصل إليها انقلبت على عقبيْها وركضت إلى خارج المطبخ. اعترضها صوت المفتاح في قفل باب الشقّة. انعطفت مُسرعةً بهاتفها نحْوَ الحمّامِ. جلستْ على بلاطِ أرضيّتِهِ. صُورٌ صغيرةٌ متقاربةٌ تنتقِلُ بإيقاعٍ منتظمٍ لتُشكِّلَ الصُّورةَ الكامِلةَ في ذِهْنِ سليمان، هذا ما تخيّلته حينها. ثمّ انفجرت ببكاءٍ حارقٍ يُذكيه شعورٌ بالعار. وقبل أن تكفّ دموعُها، فتَحَتْ هاتفَها مُجدّدًا، ورفعَتِ الحظرَ عَنِ اسم سليمان، ثمّ بدأتْ بإرسالِ رسائِلَ صَوتيّةٍ، تَشْرحُ لهُ بصَوْتٍ باكٍ ومُرتَجفٍ أنّها أرادتْ أنْ تُخبَرهُ أكثَرَ مِنْ مرّةٍ عنْ هذا الأمْرِ، ولكنّها لمْ تجرُؤ. ظلّتْ تُلحِقُ كلَّ رسَالةٍ تفلتُ مِنْ تحتِ أصابِعِها المرتجفةِ، برسالةٍ غيرها توضِّحُ فيها ما تعثّرتْ في قولِهِ سابِقَتُها. ولمْ ترفَعْ يدَها عَنْ زرِّ التّسْجيلِ، إلّا حين قاطعَ فاضل، مِنْ خلفِ البابِ، اسْترسَالها في رِسَالةٍ صَوتيّةٍ مُدّتُها سبعُ دقائقَ، بصَوْتٍ مُتشَكِّكٍ:

- الفرنُ يعمل، هل فيه شيء مّا؟

فزجَرتْهُ بصَوتٍ صارخٍ، وهي تُبعِدُهُ عنِ البابِ:

- أغلقْهُ، وابتعِدْ مِنْ فضْلك!

حينَ عاودَتِ النّظرَ إلى شاشَةِ هاتِفِها، كانَ سليمان قدْ بدأَ يتَلقّى صَوتَها. ضَغَطتْ على زرِّ التّسْجيلِ مجدّدًا، وأضَافَتْ مُبرّراتٍ كثيرةً، تشْرحُ فيها طبيعة علاقتها بآدم، وكيفَ أنّها توقّفَتْ عَنْ مُلاقاتِهِ، مُنْذُ دخَلَ هو إلى حياتِها. وتفطّنت، وهيَ تُرسِلُ إليهِ مقْطعًا تِلوَ الآخر، إلى أنَّ إصْبعَها المغَطّى بالعَجينِ، التحمَ بذلكَ الزّرِّ كغرزةٍ في قماشٍ، أمّا بقيّةُ جسَدِها، فبدَتْ لها كقِطعَةِ عِلكةٍ صَغِيرةٍ، تجهَدُ لتُرمِّمَ ثُقْبَ سدٍّ يشرف على الانهيار. كان نشيجها يخفت بعد كلّ رسالة. لكنّه تحوّل إلى نحيب حين لاحَظتْ أنَّ سُليمان لمْ يعُدْ ظاهرًا في المحادثةِ. فسارعت برسالةٍ أخيرة بعد ثلاثَ عَشْرةَ رِسالةً صَوتيّة. كانت رِسالةً صَوتيّةً قصِيرةً لا تحمل غير كلمةٍ واحدة: «أحبّك».

ولطالما توسّل إليها سليمان كي تقول له هذه الكلمة.

***

ثمّةَ لحظةٌ تحمِلُ بصْمَتِي الشّخصِيّةَ، وهي، على أيِّ حالٍ، لحظةٌ لا يختصُّ بها البشَر، توشكُ فيها العينُ اليُسرى أنْ تُقتلع من مكانها، بينما تظلُّ اليُمنى تغلِي في محجرها، نُسمّيها لحظةَ الفزعِ، تليها لحظةٌ يتصرّفُ فيها المحتضرُ بانكسارٍ يضاهي انكسار الخاسرين اليائسين المخذولين معًا.... الحقِيقَة، لا أستطيعُ أن أنفي إعجابي بأولئك الذين يقاومونني، فهم يزيدون اللّعبة متعةً. لكن، فليعلموا أنّ نجاتهم منّي ليست استثناءً، بل هي ثقتي بنفسي التي لم يتمكّنوا إلى الآن من هزّها. ولن يفعلوا. وذلك، ببساطةٍ، لأنّني لا أبحث عن المجد، ولا أرى

نفسي نقيضًا للحياة. لذا لا يزعجني البتّة أن تسمّوا نجاتكم منّي انتصارًا، فبغضّ النظر عن كونه انتصارًا مؤقّتًا، أنا لا أملك ما أخسره، ولا يعنيني اكتمال القصص أو نهايتها قبل أوانها. المهمّ أنّ باسم قد نجا هذه المرّة، وما هي إلّا أجزاءٌ من الثّانية حالت بينه وبيني. كان خارجًا من بيته ساهمًا ومسرعًا في الآن نفسه. عليه اللّحاق بالطّائرة المتّجهة إلى إسطنبول. أسرع يا باسم أسرع... فالطّقس ممطرٌ والطّريق المغمور بالماء سيكون مزدحمًا. كانت كلّ الظروف مواتيةً ليسقط في قناة الصّرف الصحّي المفتوحة والفاصلة بينه وبين سيّارته. غير أنّه انتبه إليها في الخطوة الأخيرة الّتي كانت تفصل بيني وبينه. فبسبب بعض البلل الّذي تسلّل إلى قدمه من حذائه المجابه للماء، نظر باسم إلى أسفل، فرأى قدميه قبالةَ الموت.

لم يكفّ باسم عن التفكير إلى أن حطّت الطائرة في مطار إسطنبول: «ماذا لو متُّ؟ ماذا لو كانتْ نهايتي في ذلك المكانِ القذر؟». منذُ تلكَ الحادثةِ، آمن أنّ حياته مجرّدُ صُدفةٍ فحسْبُ، فانطلقَ، فوْرَ هبوطِ الطّائرةِ في مطارِ أتاتورك، ليعيشَ حياتَهُ كطفلٍ يجري على السّلالمِ، مُتجاهِلًا تحذيراتِ أمِّه. فقبْلَ تلكَ السّفرةِ، كانتْ أشدّ مخاوف باسم أنْ يكونَ شخصًا عاديًّا، لذلك كان من السّهل على الجميع التفطّن إلى ما طرأ عليه من تغييرات، بل ثمّة من رأى أنّه أصبح شخصًا آخر تمامًا. أصرّت زوجته على تجاهل الأمر، وكأنَّ شيئًا لمْ يتغيّر في زوجِها، ظنًّا منها أنّ هذِهِ القدرةَ على اللّامبالاة، هي ذكاؤُها الخاصُّ الّذي تتقنُهُ، فالحياةُ بخيرٍ ما دام وجودُهُ لا يسبّب لها المتاعِب... لقَدْ عاشَ

دائِمًا «بجانبِها وبعيدا عنْها» كما تقولُ إحدى الأغنياتِ الّتي تحبُّها. في سنواتِها معهُ، أنجبَتْ طِفْلينِ لا تفصل بينهما أكثر من سنتيْن، ظنًّا أنَّ الزّوجَ مُجرّدُ حيوانٍ برّيٍّ، ولا يمكنُ ترويضه إلّا بالأطفالِ.

***

- لماذا تأخّرت؟ ألهذا الحدّ تستمتع برفقة جارنا سليمان؟

كانت سمر تحاول استدراج فاضل عسى أن تقتنصَ أيّ معلومةٍ عن حبيبها تجعل قلبها يطمئنّ أو تفهمَ ما يحدث على الأقل. لذلك ألحّت في السؤال رغم أنّ تَعَمُّدَ فاضل عدم الردّ كان واضحًا.

- أعرف زوجي، لا بدّ أنّك اضطررت إلى أن تشرح له أمرًا عجز ذهنه عن استيعابه.

- ما رأيكِ أنْ نسافر؟

ثمّ أضافَ بتكلُّفٍ ظاهرٍ:

- مللتُ مِنَ البيتِ، والنّومِ، ورفقةِ الجيران.

لم يخطرْ ببالِ سمر لحظةً، أنَّ لكلامِ فاضل المشتّتِ أيَّ مغزًى، فالحمْقى أكثرُ براءَةً مِنْ أنْ يدُسُّوا السمّ في أحاديثِهم، لذلكَ لم تستغرب ردّه، بل أعلنت موافقتها بشيءٍ من الاقتناع، ثمّ غابت في المطبخ.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

سهْوُ العابِرين

- أهلًا، أهلًا بالجار... تفضّل.

كانت سمر عاريةً تمامًا. ورموشها مرتخية، ورغم ذلك يمكن أن نستنتج من البريق الخاطف في عينيْها أنّها لم تنزع ثيابها بمفردها. أطبق سليمان جفونه، ككلّ مهاجم جبان يخشى الالتحام بحرّاس المرمى، فيقفز محدّدًا ارتفاع الكرة وسرعتها ذهنيًّا، دون النّظر إليها. والغريب أنّ هنالك من ينجح في اقتناصها قبل حارس المرمى وتسديدها برأسه في الشّباك. فتح سليمان عينيْه... كانت ملابس سمر مبعثرةً: قميصُ نومٍ شفّافٌ على يسار السرير وكأنّ قدمًا لاهثةً كانت تمرّره في كلّ مرّةٍ إلى قدم أخرى ندّاها العرق، حمّالُ صدر مرميٌّ على طاولةٍ صغيرةٍ بعماءٍ أكّد لسليمان، على نحو قاطع، أنّ مَنْ خلق كلّ هذه الفوضى ليست يدا سمر، أو على الأقلّ، ليست يداها فقط. أغمض عينيْه ثانيةً...

- أهلًا بالجار... بمَ أخدِمُك؟

فتح سليمان عينيْه... اللّحافُ الذي كان يغطّي سمر، لم يحجب عنه جسدها، فقد رآه بكلّ تفاصيله، حتّى إنّه بدأ ينزّ عرقًا من بهاء

ذلك الجسد الذي ظلّ يتمنّى رؤيته شهورًا. غير أنّ أصابع آدم الرّخوة، مرّت على رقبة سمر وهي تفترش شعرها، مرخيةً جفونها، فلا هي مفتوحة ولا هي مغلقة. وسالت الأصابع مثل جدولٍ حديثِ عهدٍ يبحث عن مجرى، متّبعًا المنحدرات، منعطفًا كلّما واجه في طريقه مرتَفَعًا... وقبل أن يغيب الجدول في البحر أشاح سليمان بوجهه عن زجاج الصّيدليّة حيث كان يشاهد كلّ شيء.

- عمّ سليمان... هل أنتَ بخير؟

هذه المرّة رفع آدم صوته ظنًّا منه أنّ سليمان الواقف أمام الصّيدلية لم يسمع ترحيبه في المرّتيْن السّابقتيْن. في تلك اللّحظة بدا سليمان أكبر سنًّا، فقد تكثّفَتْ على جبينِهِ وتحتَ عَينيْه تجاعيد محتْ كلّ ما يربطه بطفولته، ما عدا تلك المخيّلة التي حوّلت زجاج الصيدليّة إلى شاشة تعرض عليها لقاءاتِ سمر وآدم الحميمةَ. مخيّلةٌ لا تفوتها أدقّ التفاصيل، لا يمكن أن تكون إلّا في رأس طفل.

اندفع سليمان إلى داخل الصّيدليّة، بعينيْن مُظلمتيْن ومتّسعتيْن أكثر ممّا يمكن، كأنّهما عينا كائن أسطوري ممسوخ. وفجأةً ضربَتْ كفُّ يده اليسرى بحركةٍ خاطفةٍ أوّلَ رفٍّ اعترضها. كانت حركةً سريعةً لم تسمح لآدم بفعل أيّ شيء، بل إنّها لم تُتح له فرصةً للتفكير في أيّ شيء سوى الرّكض عبر باب يقوده إلى غرفةٍ خلفيّة فيها حمّام صغير. وهنالك، اندسّ تحت حوضِ غسل اليدين، في مكانٍ لا يمكنُ لأحَدٍ أنْ يتكوّمَ تحتَهُ دُونَ الشُّعورِ بالإهانةِ. ظلّ هناك مغمَضَ

العينيْن، وكلّما سمع صوتَ ارتطامِ شيءٍ مّا بالأرض اهتزّ رأسه، أو ارتعدت كتفاه، أو ارتجّ كامل جسده، حسب وقع التكسير. وحين خمدت الأصوات، انكمش آدم مثل عُلبة بلاستيكيّة صهدتها النّار. كان سليمان لا يزال هناك، مرفوعَ الرّأس، وكأنّه يحدّق إلى كاميرا المراقبة المثبّتة في أحد أركان الصيدليّة، أعلى الباب. كان من اليسير أن أدرك أنّه لم يرها، فأنا أعرف جيّدًا تلك النظراتِ المترقّبةَ... نظرات من يبحث عن شيء مّا داخله. حين وجده سليمان، بَصَقَ على الأرض، ثمّ غادر لا يتحرّك منه شيء سوى قدميْه، تاركًا خلفه أرضًا مزروعةً بشظايا زجاجٍ وعلبِ أدويةٍ وموادٍّ تعقيمٍ... وإبر.

***

مساءَ ذلك اليوم جلس سليمان وأبناؤه إلى طاولة العشاء. لم يكن اجتماعًا استثنائيًّا، بل هو لقاء أسبوعيّ بمثابة العهد أو العرف، لا يَمْنَعُ أحَدَهَم عنه إلّا طارئٌ خارجٌ عن نطاق رغبتهم. كان هذا في السّابق بالنّسبة إلى باسم، قبل أن يتعلّق قلبُه بتلك الفتاة التي ظَلَّ يبحث عنها بين القنوات التّلفزيّة التركيّة، بينما كان أبوه وإخوته يقفزون من موضوع إلى آخر حتّى نسَوْا مِن أين ابتدؤوا الحديث... سأل قصي بسحنة متهلّلة تبشّر بالضّحك: «لكن، كيف وصلنا إلى هنا... ما دخلنا نحن بهذه المواضيع؟» وحينما عَلَت الضّحكات، تفطّن سليمان إلى أنّ هنالك ضحكةً ناقصةً، فأجالَ بصره بين أبنائه ثمّ قال:

- باسم... أين أنت؟

فضحك قصي وأمجد دون أبيهما هذه المرّة. واكتفى باسم بابتسامة مُحْرَجَةٍ وكأنّ أمره قد افتُضح، لذلك سارع بالخروج من تلك القناة التّركية على نحو اعتباطيّ، ضاغطًا على زرّ جهاز التحكّم بقوّة مفرطة، فوجد نفسه في حلبة ملاكمة.

- هاه... وأخيرًا وجدتها...

قال مدّعيًا أنّه كان منغمسًا في البحث عن القناة التي تبثّ مقابلة الملاكمة تلك. وفي محاولة للهروب من نظرات أبيه المازجة بين الحنوّ والسّخريّة، أضاف موجِّهًا بصره إلى أخويه بينما كان السؤال موجَّهًا إلى أبيه:

- بمَ يفكّرُ الملاكمُ حينَ يبتعدُ عنْ وسطِ الحلبةِ، ويستندُ إلى حبالها، داميَ الوجهِ منتفخَ العينينِ هكذا؟

غاب بذهنه قليلًا كأنّه يفكّرُ في شيءٍ يتمنّاهُ، ويؤثِرُ الموتَ مِنْ أجلِهِ، ثمّ عاد سريعًا ومعه الجواب:

- بكلِّ تأكيدٍ، في العودةِ مرّةً أخرى، إلى ذلك الجحيم في الوسط.

كانَ كأسُ الشّايِ في يدِ أمجدَ قدْ فرغَ، فتوجّهَ إلى المطبخِ دون أن يؤجّل تعليقه:

- ستتنافسُ أجملُ جميلاتِ أمريكا على لعقِ آخرِ بُقْعةِ دم مِنْ وجهِ هذا الملاكمِ بعْدَ هذِهِ المنازَلةِ يا عزيزي، فلا تلُمْهُ إذا

عادَ متحمِّسًا إلى الجحيمِ، مُتمنِّيًا الفوزَ، وإن كانَ آخرَ فوزٍ في حياتِه.

سمعَ قصي كلَّ ما دارَ بينَ أخويْهِ، لكنّهُ تشاغلَ بعلبة مناديلَ محميّةٍ بغلاف ملوّن كانت أمّه قد حاكته مِنَ الصّوف. كانَ يُقلّبُ العلبة بيْنَ يديْهِ، مُسْتغرقًا في المقارنةِ بينَ النّساءِ... فهذه امرأةٌ جلستْ وحاكتْ بمنتهى الدّقّةِ رداءً صُوفيًّا مُلوّنًا، من أجل علبة. وتلكَ زوجةٌ جاهلةٌ حتّى بما لديكَ مِنْ ثياب في الخزانة.

في الأثناء، كان سليمان يراقب أبناءه واحدًا واحدًا ومعًا في الوقت نفسه. بالمناسبة، هذه قدرة لا تُمنح لأيٍّ كان، ولكُمْ أن تسمّوها موهبةً، أو عبقريّةً إن شئتم. لقد كان يراهم حتّى وهُمْ وراء ظهره، متّجِهًا إلى المطبخِ، بخُطًى بطيئةٍ، حامِلًا أحدَ أحفادِهِ بيدٍ، وبالأخرى تَعَلَّقَ حفيده الثّاني:

- يبتعدُ الملاكمُ عنْ وسطِ الحلبةِ هربًا منَ الموتِ، وهلْ يمكنُ أنْ يكونَ الوجهُ الدّامي غيرَ مُقدّمةٍ للمَوت؟ كلُّ الأمورِ السّيّئةِ مِنْ حولِنا مُقدِّماتٌ للمَوت.

أخذ نفسًا عميقًا، في أثنائه رمى ببصره من شُرفةِ المطبخِ، وهو يرتِّبُ شعْرَ سليمان الصّغيرِ، ثمّ أضاف:

- تلك الرّحلةُ الّتي أخذتْ جدّتَكَ بعيدًا عنّا، هي أهونُ أشكالِ الموت.

كانَ على الأبِ وابنه البِكرِ الخوضُ في نقاشاتٍ لا تهُمُّهما، لا لشيءٍ إلّا لحمايةِ عُزلَةِ الألمِ في غُرفٍ مُظلمةٍ داخل رُوحَيْهما، في مكانٍ

سحيق لا تصلُ إليهِ الدُّمُوع. ربّما، لهذا السّبب اختار كلاهما غسل الأواني عند تقسيم الأدوار. وبعد تمسّك كلٍّ منهما بتلك المهمّة اتّفقا على أن يتشاركا فيها معًا، فاشترط عليهما أمجد وقصي أن يقوما أيضًا بإعداد الشّاي. أليس هذا هو العدل؟ لكنّ سليمان كان أكثر حنكةً في التّغطية على حضوره النّاقص، فيغيب في المطبخ رفقة حفيديْه متعمّدًا استفزازهما بألعابٍ تدفعُهما إلى القفز والصّراخ، كان ذلك دليلًا على أنّه هناك، في بيته، وبين أبنائه، بينما عيناهُ المعلّقتان بنافذَةِ الجارَة، تقولان عكس ذلك تمامًا.

«إذا رميتَ بعُلبةِ الكبريتِ عاليًا، وسَقطتْ عمُوديّةً، فأنتَ ملكٌ، ومنْ حقِّكَ أنْ تُصْدرَ حُكمًا يُنفّذُه البقيّة». هذه هي اللّعبة التي حملت الصغيريْن على الضّحك والقفز والصّراخ مع كلّ رمية، أمّا الأحكام التي كانا يقضيان بها، فهي أبسطُ بكثير من النّظر إلى نافذة.

***

مضتْ ثلاثةُ أشهرٍ حتّى الآنَ على آخرِ مرّةٍ رأى فيها النّافذةَ المقابلةَ لشُرفتِهِ مفتُوحَةً. شرفتُهُ أيضًا لم تَعُدْ تُفتَحُ إلّا كلَّ يومينِ أو ثلاثة كيْ يسقِيَ نباتاته، ثمّ يعُود ليحْتمِيَ بجدرانِ شقّتِهِ، مُحاولًا ألّا يلتفِتَ إلى الجهةِ المقابِلة. لكنّ عيناه غلبتاه يومًا، فاسترقتا نظرةً إلى نافذة سمر من زاوية العين اليسرى وهو يهمّ بالانسحاب من الشرفة، زاوية أضيق من سمّ الخياط، كانت كافيةً ليرى...

قد يفشل الماء في إحياء ورود ذبلت. لكنّ سليمان لم يفكّر في

ذلك، بل سارعَ إلى إحضَار خرطوم ماءٍ، لفّهُ بطريقَةٍ لولبيّةٍ حَوْلَ ممَسَحتيْ مَطبخٍ شبكهُما مستعينًا بلاصقٍ بلاستيكيٍّ عريضٍ، فحوّل الخرطوم إلى أفعى تتسَلّقُ ممَسحةً خشَبيّةً عِمْلاقةً. وهكذا تمكّن سليمان من سقاية وردَات سمر...

كلّ شيء في الحياة له استثناء، بما في ذلك العواطف والمشاعر، إذ يمكن إعطاؤها إجازةً قصيرةً، أو تأجيلها، ولكنْ إلى حين. فبمجرّد أن أنهى سليمان مهمّته عاد إلى غضبه من سمر ومن كلّ ما يخصّها، حتّى نافذتها بما فيها.

***

ألم أقل إنّكم حين تعجزون عن فهم القدر، تسمّونه صدفةً. لكُمْ ذلك، ولكنّ الصّدفةَ، في الحقيقة، إحدى ألعاب القدر. فُتحتِ النّافِذةُ إذن، حالما أنْهى سليمان المهمّةَ المستَحِيلةَ لإنْقاذِ وُرودِ سمر. كانت سمر في المطبخ حينها، فدفعها صَوتُ الماءِ المنهَمِرِ فَوْقَ الوردِ إلى فتْحِ نافِذَتِها، ظانّةً أنَّ ماسُورةً قدِ انفَجرتْ، فخشيت أن تفيض المياه مِنَ أعْلى إلى شَقّتِها. بدَتْ سمر، بعْدَ عَودتِها مِنَ السّفرِ، كمنْ يخرجُ منْ حلم، بينما بدا سليمان وكأنّهُ يطلُّ عليْها مِنْ كهف مظلم. اكتسبتْ بشرتُها سُمرةً أخّاذةً، فتراءت لهُ مثل قصرٍ تسكُنُهُ شمسٌ، فُتِحتْ أبوابُهُ فجأةً، ليُصْبحَ كلُّ ما فيهِ مُتلألئًا، فقط مِنْ أجلِ إغوائِه. أيّ ردّة فعل يمكن أن تكون لطفلٍ غاضبٍ حين يرى يدًا ممدودةً بما كان يبكي من أجله؟ غير أنّ الماء المتقاطر من شرفته ونافذتها جعل سليمان يستشعر الطوفان.

* * *

من أكبر الأخطاء الفادحة، أن تُسمّوا لعبة رامي السّكاكين في السّيرك «لعبة الموت». وإليكم بعضَ الفوارق، إذ لا يمكن حصرُها كلّها في كتبكم:

رامي السّكاكين	أنا
ما يفعله يُعتبر خَطرًا ومجازفةً	ما أفعله أمر بسيط وعاديّ جدًّا
يخلّف التصفيق	أخلّف البكاء
لا معنى له إن لم تشاهده الجماهير	حين أُرى، يكون كلّ شيء قد انتهى
يتدرّب طويلًا قبل أن يصعد إلى الرّكح	مذ كنتُ وأنا على الرّكح
يحوّل الخوف منّي إلى تشويق	كلاهما لا يعنيني، لا الخوف ولا التشويق.
التّحدّي الذي يواجهه هو أن يتجنّبني، ألّا يكون سببًا في وصولي إلى الفتاة التي تضع التفّاحة على رأسها.	ليس لديّ أيّ تحدٍّ أصلا
هو الفُرجة	أنا الحقيقة
غايته الإمتاع	غايتي التطهير

ظلّتْ بالوناتُ الهيليومِ الملوّنةُ ملتصقةً بالسّقفِ منذُ أربعِ

ساعاتٍ، مؤكّدَةً لمنال أنَّ زواجَها أجوفُ تمامًا، مهمَا ملأتْهُ بالأطْفال. كانَ هذا الاحتفالَ السّابعَ بعيدِ زواجِهما، لا لأنّ باسم يهتمُّ بهِ، ولكنْ لأنَّ نبيلة كانتْ بينَهم، تُذكّرُهم بأعْيادِ مِيلادِهم، وأعْيادِ مِيلادِ زوجَاتِهم، وذِكرى الزّواجِ. ومعَ باسم تحديدًا، كانت تحتاجُ إلى أنْ تُعطيه صورةً لهديّةٍ تراها مُناسبةً لمنال، وتعطيه عنوانَ المحلِّ الذي يبيعها. وفي أحيانٍ كثيرةٍ تحجزُها باسْمهِ. أمّا قُصي فلمْ تحتَجْ يومًا إلى تذكيرِهِ بشيءٍ، فلطالما كانَ جاهزًا في مِثْلِ هذِهِ المناسَبات. فيما مضَى، كانَ تدخُّلُ السيّدة نبيلة في تلكَ التّفاصيلِ ثقيلًا على باسم، لكنّهُ فَهِمَ، وهو يقفُ أمامَ منال المتأنّقةِ وقدْ نسِيَ المناسبَةَ تمامًا، جلالَ الخدمةِ الّتي كانتْ تقدّمُها لهُ أمّه. في ذلك الموقف المخزي، لم تعُدْ المأساة في شَعْره غيْرَ المُسَرَّح، أو في لسانه المعقود، ولا حتّى في تأخّره أربعَ ساعاتٍ عَنْ موعدِ عودتِهِ إلى البيتِ، فالهديّةُ قادرةٌ على مَحْوِ كُلِّ ذلك.

رمت منال أولى سكاكينها:

- أينَ كنتَ طَوالَ اليَوم؟

كانت على درجةٍ عاليةٍ من المهارة، فأصابت التفّاحة دون أن تلمس شعرةً من رأس باسم. وذلك بالضبط ما تُريده. هي تريده حيًّا، وسواء أصلح خطأه أم لم يصلحه، سيكون مادّةً غنيّة للكتابة.

جلَسَ باسم، عاجزًا عن مواصلة دوره، قُرْبَ قَدمَيْ أحدِ أبنائِهِ اللّذين ناما بزينتهما على الأريكة. كانت منال قد تعمّدت تَرْكَهما

على تلك الحال لتعميق شعور باسم بالذّنب. لكنّها لم تتوقّع أن يفوق ذلك طاقة تحمّله. فظاهره المكشوف بطبعه، وباطنه المتجلّي في عينيه المرشوقتين في الأرض، حفّزا في منال غريزة الأنثى، فأدركت أنّ زوجها ينهار، وأنّ في صدره حقيقةً تتعفّن يومًا بعد يوم، وهو يكاد يتقيّؤها، لولا أنّها مَدّتْ إليهِ هَدِيّتَها: جهازُ اختبارِ حملٍ بخطّينِ أحمرينِ، يؤكّدانِ استعدادَ طفلٍ ثالثٍ للقُدُوم. لقد أصابت التفّاحةَ بدقّةٍ مرّةً أخرى.

***

انزلق بعْض معْجُونِ الأسْنانِ إلى حلق آدم، وهو شارِدُ الذّهْنِ. كان يفكّرُ في الاتّصالِ بأمجدَ ابنِ سليمان، بعد أن أقنع صاحب الصيدليّة بأنّه سيسوّي الأمر دون الحاجة إلى الشّرطة. كانَ عليْهِ أنْ يتأكّدَ منْ تبعاتِ هذه المشكلة عليهِ وعلى وظيفتِهِ، قبلَ أنْ يُقدِمَ على خطوةٍ قدْ تكونُ آثارُها عَكسِيّةً. وبعْدَ أنْ أحْصَى الخسائرَ الّتي قدّرها بألفينِ، وأضافَ إليهما ألفًا ثالثةً من باب الاحتياط، ثمّ ارتجلَ ألفًا رابعةً عند اتّصاله بأمجد، مُقدّرًا على عجلٍ كلفةَ اليدِ العاملةِ، أبلغَهُ بالهجوم المجّانيّ والجنونيّ الذي قام به والده، متأرجحًا بين المبالغة والكذب. فاكتفى أمجد الذي كان جالسًا على حافّةِ سريرِهِ، بالتّحديقِ إلى جواربِهِ المعكوسَةِ أمامَهُ على المرآةِ، قبْلَ أنْ يردَّ على آدم:

- سأتولّى تعويضَ الخسارةِ، وسأشكرُكَ على طريقتي حينَ ألقاكَ، لأنّكَ لجأتَ إليّ قبْلَ الشّرطةِ، وقدّرتَ الجيرة.

التبس الأمرُ على أمجد، هل عليه أن يُصدَم أم يغضب؟ ثمّ سرعان ما استقرّ على سؤال منطقيّ وملحّ: «ما الذي يجعل أبي يبلغ حالًا هستيريّةً كتلك التي وصفها الصّيدلي؟» لمْ يستغرقْ منهُ الأمرُ دقيقةَ تفكيرٍ، حتّى يقرّرَ بعدَها ألّا يُفاتِحَ والدَهُ في الأمر. في الطّرف الآخر من المكالمة، كان آدم قد تبَنّى كلام أمجد عن الجيرة، ووجَدَه مُقنِعًا تمامًا، بلْ لا بُدّ أنّهُ اتّصَل بأمجد لهذا السّبب أساسًا، رغم أنّه قد تعوّد تلك العلاقات العابرة، فلطالما كان يُلقى به خارج السرير، وخارج البيت، وخارج القلب الذي لم يدخله أصلًا، دون أيّ تبرير أو تفسير، فيظلّ ساهمًا ليلًا نهارًا وهو يحاول معرفةَ الخطأ الذي اقترفه... «مجرّد عاهرات» ... هذه هي الحقيقة الوحيدة التي يتوصّل إليها دائمًا. وسمر ليست استثناءً، إنّما الاستثناء أنّه عرف السبب هذه المرّة: «سليمان يا آدم! إنّه سليمان!».

يكفي أن يمرّ هذا الاسم بذهنه، حتّى دون أن يجري على لسانه، كي تتجمّع كلّ دماء آدم في وجهه، وفي سؤال من فرط إلحاحه صار كائنًا من لحم ودم: «لماذا هو؟». وهذا السّؤالُ، بالطّبعِ، أسهلُ بكثير عِنْدَ البشرِ من: «لماذا أنا؟» وبمخاطرة أشدّ: «لماذا لستُ أنا».

***

الشّيطانُ والحبُّ وحدَهما قادرانِ على العبَثِ بالبشَرِ. أمّا الشّيطان فأمره هيّنٌ، إذْ تكفي النّيّةُ الصّادقة أو الموسِيقى لطرده. وأمّا الحبُّ، فلا شيءَ يمحُوهُ، بل إنّ كلّ ما يحدث وما لا يحدث يكون سببًا في إحيائه.

لمْ تدرك سمر أنّها أحبّت سليمان فعلًا، خارج قانون لعبتها، إلّا حِينَ احتاجَت إلى بعْضِ الوقْتِ كيْ تتذكّر أماكن الأشْياءِ مِنْ حولِها، طوال اللّيَالي الّتي تعُودُ فيها مِنَ النّافذة إلى المطبخ، ومن ثمّ إلى البهو الممتدّ إلى غرفة نومها.

لم تتوقّع إثارَةَ ريبَةِ فاضل إن مرَّ مِنْ أمامِ بابِ غرفتِها المفتوحِ، ووجدَها أمامَ المرآةِ بكامِلِ زينتِها، لذلكَ ارتدَتْ فُسْتانًا بلونِ المشمِشِ، يكشِفُ عن مفرق نهدينِ متحفّزيْن يتناثرُ تحتهما خرزٌ صَغِيرٌ مطرّزٌ بعنايةٍ، فاقتربتُ لأرى مهارة الخيّاط، حتّى كدتُ أتجاوز حدودي. حينها شعُرتْ سمر ببعضِ البردِ، فارتعدت.

***

- خشيتُ أنْ أنتظرَ إلى الأبدِ، كيْ أكتشِفَ أنَّ لكَ دمُوعًا مِثْلنا!

لم تكنْ لئيمةً وهي تنشر هذه التدوينة، بل كانت غيرَ مُباليةٍ فحسْبُ، حتّى إنّها سحبَتْ يدَها بحركةٍ بدت لا إراديّةً من كفّ باسم وهو يحاول مساعدتها في النهوض عن سرير الكشف الطبّي. سحبت يدها لتكتب ما كانت تشاهده للتوّ: دموع زوجها حين رأى البقعة البشريّة على شاشة رصد الجنين. رغم أنّها ليست المرّة الأولى التي يرى فيها نسله لطخةً بيضاء وسط السّواد، فإنّه بكى فعلًا.

***

إنّ البشر يُدهشونني حقًّا، فهم يبكون حين يغشاهم الحزن، ويبكون حين يصيبهم الفرح، وعلى سبيلِ المثالِ لا الحصرِ، حلَّ

بينَ يديَّ، قبْلَ قليلٍ، هذا الرّجُل. هو أحدُ الرّجال الستّة والستّين الّذينَ يعْمَلونَ في مَصْنَعِ الكيماويّاتِ تحْتَ إدارةِ باسم. وهو صاحِبُ زيادَةٍ في الوزنِ ورثَها عَنْ أمِّهِ، زيادةٍ تُتيحُ لهُ أنْ يدْفَعَ بِبَطنِهِ الطّاولةَ إلى الأمَامِ، كلّما هَمَّ بالجلُوسِ أو الوقُوف. كانتْ دُمُوعُهُ، عِنْدَما وصَلتُ، تتَساقَطُ مِنْ تحْتِ نظّارتِهِ فَرحًا، وهو يُدِيرُ كُرسِيَّهُ نحوَ جِدارِ المكتَبِ، كيْ لا يلحظَ زمَلاؤُهُ هذا، فهُمْ مِنَ النّوعِ الّذي ينقَضُّ كالنُّسُورِ معًا في وقتٍ واحدٍ، وعلى جِهةٍ واحِدَة. ولطالما تَشابَهُ زُمَلاءُ العمَلِ على مَرِّ الأزْمَانِ، إذْ يتَشاركونَ كلَّ شَيءٍ بلا دَعْوةٍ، وبما أنَّ الفرحَ يحتاجُ إلى دَعْوةٍ، قرّرَ ألّا يُشارِكَهُم تلكَ اللّحْظةَ الّتي دامَ انتظارُها إحدى عشرةَ سنةً، حينَ أخبرتْهُ زوجتُهُ العائدةُ برفقةِ والدتِها مِنَ المستشفى للتّوِّ أنّها حامل. ظلّا يبكيانِ مِنَ الجهتينِ على خطِّ الهاتفِ نفسِهِ، فهو ذو طبعٍ هادئٍ معظمَ الوقتِ، سواءٌ أكانَ الأمرُ مُفرحًا أو مُحزنًا، وكثيرًا ما انتهتْ نقاشاتهُ الّتي تخوضُها معه زوجتُه بسُؤالِه: «أخبرْني فقَطْ بماذا تشعُر الآن؟». إذْ كانتْ تهتمُّ كثيرًا بما يشعُرُ بهِ في لحظاتِ صَمْتِهِ، وهو الأمرُ الّذي لمْ يكنْ يجدُ لهُ جَوابًا. لكنّها، لمْ تسألْهُ هذِهِ المرّةَ، على الرّغمِ مِنْ أنَّ لديْهِ جوابًا ماديًّا جدًّا يختبئُ تحتَ قميصِه. في البدْءِ، ظنَّ أنّ التّقلّصَاتِ تحْتَ ضُلوعِهِ، نتيجةٌ مَنطِقيّةٌ للفَرحِ المضْغُوطِ في صدْرِهِ الّذي خرجَ دُفعةً واحِدةً، وأنّها لنْ تستغرِقَ وقتًا طويلًا حتّى تزُول. ومعَ أنّهُ مُلحِدٌ على نحوٍ وراثيٍّ، قام منْ مكانِهِ مُتجاسرًا على وخزِ الضّلوعِ، وسَجَدَ شُكرًا لله على خبرِ الأبوّةِ المفاجِئِ... لكنّهُ لمْ

يستطِعْ الالتفاتَ بشكلٍ كامِلٍ، نحْوَ الجهةِ الّتي شرعت تُطلُّ مِنْها الرُّؤوسُ مِنْ فوقِ المكاتِبِ... ويوشِكُ أنْ يبدأَ فيها زُمَلاؤُهُ بحثَهُمْ عَنْ فُرصٍ لنجاتِه. لقد نظرَ إليّ مِنْ بيْنِ ذِراعيْهِ اللّتينِ تحفَظانِ لهُ شكلَ سُجودِهِ الأبديِّ، فأدْركَ وصُولي بنظرةِ مَنْ يقولُ: لا يُفترضُ بكَ فعْلُ هذا الآن! ثمّ كرّرَ بصَوْتِ شَخيرٍ يخرجُ منَ الأنفِ، وفي عددٍ لمْ أحْصِهِ: «ليسَ الآن.. ليسَ الآن». ولأنّني لمْ أُخلقْ للتّردُّدِ، أو الشّكِّ، أو الاسْتئذانِ، لم أكنْ في حاجةٍ إلى سماعِ كلماتٍ مِنْ نوعِ «ليسَ الآن»...

وقتُ الوفاةِ: (15:11)

***

أنهتْ سمر مُكالمةً مع ابنِها أنس، ثمّ اقتربتْ مِنْ فاضل، مُعِيدَةً بعْضًا ممّا قالَهُ ابْنُهما عن حاله ودِراسَتِه. كان جالسًا، وهو يضع ساقًا على ساقٍ، مُرتَدِيًا ثوبًا منزليًّا من إهداء أمّه، وقدْ سَرّحَ شَعْرَهُ الخفيفَ بإتقانٍ إلى الخلفِ، بينما اتّخذَ فمُهُ وضعيّةَ طفلٍ على وشكِ البكاءِ، وهو يقرأُ كتابًا تتخلّله صور. وحينَ انتبَهَ إلى وجودِها بعد أن جلستْ بقربِهِ، شرع على الفَوْرِ، يشْرحُ لها مَضْمونَ الكتابِ، دونَ أنْ يعلّقَ على ما قالتْهُ بخصوصِ مكالمتِها مع أنس...

- هذا الكتابُ يندّدُ بالقسوةِ الّتي تتلقّاها الأبقارُ في المزارعِ المنتجةِ للحليبِ، لنْ تتخيّلي حجْمَ كذبةِ الأبقارِ المدلّلة!

كانتْ كفّاهُ تحلبانِ بقَرةً في الهواءِ، وهو يَصِفُ قَسْوةَ الآلاتِ

الّتي تعْصُرُ تلكَ الضّروع، أمّا سمر فلمْ تعُدْ تسمَعُ كلمَةً ممّا يقُول، بل لم تعد هناك.

تعرفون أنّني لا أحبّ الاستعارات، وحين أقول إنّها لم تعد هناك، فأنا أعني تمامًا ما أقصده، ولا شأن لي إنْ فهمتم أنّها سرحَتْ بذهنها حتّى وصلت إلى نافذة المطبخ، بينما كان فاضل منشغلًا بوصفِ قوّةِ الضّوءِ الّذي تتعرّضُ لهُ تلكَ الأبقارُ في مُنتَصَفِ اللّيلِ، ليوهمُوها بطلوعِ الشّمسِ، فتستيقظ وتأكل، ثمّ تعودَ لتنامَ ساعَتينِ قبْلَ شُروقِ الشّمْسِ الحقيقِيّةِ، وبذلكَ يصِيرُ يومُها الواحِدُ بمثابةِ يومَين. كادَ يسْقُط مِنْ عَينيْها، ذاكَ الّذي تكسّر داخِلها، لكنَّ عينيْها اتّسَعَتا وابتلعتاه. تكوّرتْ على نفْسِها فوقَ الأريكةِ، فأمسك فاضل بكفِّها وشدَّها نحوه... لا... لم يقبّلها... مثلما توقّعتم... بل سحَبها إليه ليُريَها بحماسٍ ما ورد في آخِرِ الكتابِ:

- يُوجدُ في الفصْلِ الأخيرِ جزءٌ خاصٌّ بالطُّيورِ النادرة: الكركيّ الياباني، أبو منجل الأصلع، الأطيش...

واصَلَ تقليبَ الصّفَحاتِ ذاتِ الورقِ اللامِعِ بحمَاسَةِ طِفْلٍ، وهو يردِّدُ أسْماءَ الطُّيور. ثمّ عدّلَ جلستَهُ، وطارَدَ بشَوكتِهِ، في طبَقٍ قَريبٍ مِنْهُ، الكرزَ الّذي تساقطَ مِنْ كعْكةٍ نسِيَ أنّها بقُربِهِ مُنْذُ ساعَتيْنِ. تذكّرَها فقطْ حينَ اقتربَتْ منه سمر عنوةً.

- تحبّينَ الطُّيور...

هزَّ ذقْنَهُ قليلًا، ليبيّنَ لها أنَّه سُؤالٌ، بينَما ظلّتْ عيناهُ المتشَكّكتانِ تنتظِرانِ جوابًا. فردّت بإيماءةٍ من رأسِها... وهذا كرم منها على أيِّ

حال. فجأةً، طلبت شيئًا غريبًا، هو غريب في ذلك السّياق. لكنّ فاضل لم يرفضه...

***

انسلّت من الباب الزُّجاجِيّ مُتلفّتةً في كلِّ اتّجاهٍ. أسعفها أنْ لا أحد سِواها في الصّيدليّة. اقتربتْ مِنْ آدمَ، وعيناها تفتِّشانِ في رفوف الأدويةِ خلفَهُ. لم يحتجْ إلى التّدقيق ليرى تلكَ الظّلالَ السّوداءَ المتجمّعةَ تحتَ جفْنَيها.

- أريدُ أقوى دواءِ قلبٍ أو ضغْطٍ.

أعادَ آدمُ كلامَها، وهو يتّكئُ على منضدةٍ زجاجِيّةٍ تفصِلُ بينهما، في محاولةٍ بائسة ليكونَ ظريفًا، ثمّ أضافَ:

- هل خُصّصَتْ جوائزُ للإجابةِ عن هذا اللُّغزِ يا آنسة؟

لمْ تسايرْهُ في ظُرفِهِ، بل ملأ ضباب الدّموع عَينيْها بمجرّد أن سمعت صوته، فلم تعد تراه. بدتْ متعبةً أكثرَ ممّا كانتْ عليهِ قبْلَ دخولها إلى الصّيدليّة. حينَها أدْركَ أنَّ كلَّ كلمة تقُولُها إنّما تسْتنزِفُ قُوّتَها. فخرجَ مِنْ خلفِ المنضدة حامِلًا كرسِيًّا دوّارًا بلا مَسند، ووضَعَهُ بقُربِها:

- ارتاحي مِنْ فضْلِكِ، سأساعِدُكِ حالًا!

غاب آدم عن عينيها، لكنّه ظَلَّ يُراقبها منْ بينِ الرّفوف الّتي تمّتْ إضافتُها حديثًا، بدعْمٍ سَخِيٍّ مِنْ أمجد سليمان عليّ الريّس.. مرَّ بقُربها ومعهُ صابون وبلسمُ شعرٍ، تصرّفَ كأنّهُ ينقُلُهما منْ جهةٍ إلى أخْرى. ثمّ ابتسمَ لها وهو يقولُ:

- عذرًا... فالصّيْدليّةُ في حالةِ فوضَى. لقدْ أجْرينا بعْضَ التّعديلاتِ هُنا. لكنْ، سأجدُ لك الدّواء المطلوب.

لا يوجد ما يؤكّد أنّها لم تسمعه سواي. لذلك خيّر آدم أن يقترب منها بدل أن يرفع صوته:

- ربّما لا تحتاجِينَ إلى أكثر مِنْ حمّامٍ مُنعشٍ، وكوبِ قهْوةٍ، وبعض الثرثَرة يا آنسة.

ألحق كلماته بابتسامَة زادت من وسامته. ثمّ لعب حاجبه المرفوع دون الآخر دوره في تحفيزها على الكلام:

- لا أريدُ أنْ أعطّلَكَ... أضاعتْ جدّتي عبوّةَ الدّواءِ، لكنّني أعرفُ شكْلَهُ... إن أريتَنِي أدويةَ القلبِ الّتي لديكَ، فسأعرفُهُ على الفَور!

كان استطرادًا طويلًا ومرهقًا حقًّا، لذلك احتاجتْ إلى أنْ ترتاحَ، فعادتْ بظهْرِها إلى الوراءِ باحثةً عمّا يسندها، غير أنّ الكرسيَّ بلا مسند. رآها آدمَ في مرايا الرُّفوفِ وهي تسقط. فهرعَ إليْها، والتقطَ يدها ليساعِدَها على النُّهوضِ... فوجَدَها أرقَّ وأنعمَ مِنْ أنْ يُفلتَها. ظلّ ممسكًا بالنِّعمة حتّى بعد أن وقفت على قدميها. وشعُرَ برغبةٍ في احتضانِ تلكَ الهشاشةِ النّادرة. أمّا هي، فقد نظرتْ إلى الكرسيِّ من خلفها، ثمّ أعادت نظرَها إلى وجْهِ آدم... ولمّا ضحكتْ، التحقت ضحكاته بصوتٍ أعلى من صوتها، دونَ أن يفلت كفّها. لمْ يكنْ منَ العسيرِ، بالطّبعِ، أنْ تلحظَ تلكَ الكُتلَ

المتدرّنةَ المتجمّعةَ تحت جلدة أصابعِهِ، لكنّها لمْ تتقزّز، ولم تسحبْ كفَّها مِنْ كفّه... ولا يحتاج الأمرُ ذكاءٍ أعلى من ذكاء آدم لنعرف أنّ الآنسة كانت تنوي الانتحار.

عادت الفتاة في اليوم الموالي، ثمّ الذي يليه... لم تحتج إلى إكمال الأسبوع لتفهم أنّ آدم قد أدرك غايتها، فظلّ يُسوّفها... لهذا السبب تحديدًا، اختارته هو، دون غيره، لتُكمل حياتها معه... إلى أن يبلغ السّابعة والسّتّينَ مِنْ عُمْرِهِ. حينها سأزوره في مكتبه الصغير، في شركةٍ أدويةٍ منَ الدّرجةِ الثّالثة، وسيكونُ لقاءً سريعًا دون أيّ ترحيب...

وقتُ الوفاةِ: (13:12)

***

«شقّة للإيجار»... وأسفل الإعلان رقم هاتف. هذا من الأمور التي لا تعنيني إطلاقًا. غير أنّ سليمان كان جالسًا أسْفلَ البنايَةِ، يمدّ إلى قطّةٍ كفَّهُ، موهمًا إيّاها أنّهُ يدسُّ بينَ أصابِعِهِ طعامًا، لكنّها عَزفَتْ عنْهُ، بعد أن تأكّدت بحدسها الغريزي أنّه لمْ يعُدْ أهْلًا للثّقَة. حينَئذٍ، مَضَى عَكْسَ وجهتِهِ الّتي خَرجَ يطلُبُها... مشَى مُهرولًا، بعيدًا عنِ العِمارتَينِ، وثوبُهُ يحتَكُّ بساقَيْهِ، ويُصْدِرُ صَوتًا لهُ وقْعُ قَلْبٍ يتمَزّقُ. في مَكانٍ مّا داخله، كانَ هُنالكَ مَنْ يأمُرُهُ بحَزمٍ: «افعَلْ ما يفعَلُهُ الرِّجال». كان مجبرًا طوال الطّريق على الابتِسامِ في وجوه من ألْقوا عليهِ التّحيّةَ. بدت التّجاعِيد حَوْلَ عَيْنيهِ أكثر ممّا تعوّدنا رُؤيتَها. أدْخلَ كفّيْهِ في جيْبَيهِ وغرسَهُما عَميقًا... كمْ تمنّى أن يكونَ الكفّيْن. مشى

مسافةً طويلةً، أرهقت حتّى ذاكرتَه. لعلّهُ كان يستدعيني، لكنّني لست متاحًا بكلّ هذه البساطة، ولا يعنيني أنّ سليمان قد بلغ النّقطة التي يسمع فيها صوت أترابه السّاخرين: «سليمانْ، سليمانْ... يحرِدْ من بيتِ العرسانْ»، فينفض الصّوتَ عن أذنيْه كمن يهشّ بعوضةً تمتصّ دمه. وقفَ أمامَ مغسلةِ ثيابٍ تذكّرَ حينَ رآها أنّ لهُ فيها ثوبَيْن. لكنّ مواء قطّة شتّت ذهنه. كان شبيهًا جدًّا بنشيج تلكَ الفتاةِ الّتي اندَسّتْ في سيّارتِهِ قبْلَ ما يُقارِبُ العام.

***

- لدينا أشياءُ أخرى تشغلُنا الآن يا قصي!

ثمّ قفزتْ إلى موضُوعٍ آخر. فقد أخذت تعدّد أسماءَ بعضِ الأدوية المتوفّرة في صيدليّةٍ أحد المستشفيات رغم أنّها محظورة. كانت تخوض في ضرورة القيام بتحقيقٍ واسِعٍ حين أعاد قصي رجاءه اليائس:

- فَلْنُنجِبْ طفلًا...

هذه المرّة لم تسمعه أسماء أساسًا، لا لأنّها كانت منغمسةً في قضيّة الأدوية، بل لأنّ كلماتِ قُصي انقلبَتْ على أعقابها من فرط اليأس فلم تبلغ شفتيْه، وانكفأ صوتُه ليظلّ رجْعًا يتردّد بين أضلعه...

كان قصي أينما ولّى وجهه في غرفة النّوم يرى: «أسماء» أو خزانة الملابس التي لا يستعمل من رفوفها إلّا واحدًا، أمّا البقيّة فتحتلّها ثياب زوجته كما يحتلّ اسمها ثلاثة جدران من الغرفة، مكتوبًا بجميع أنواع الخطّ العربيّ تقريبًا، ومؤطَّرًا ببراويز غيرِ

متناسقة لا في الألوانِ ولا في الأحجامِ. فأسماء تفخر دائمًا -وذلك حقّها- بما تحصل عليه من شهادات تقدير أو شكر أو تكريم... لمْ يقتضِ أغلبها أكثر من ساعتيْن تشارك خلالهما في ندوة حول تطوير الخدمات الصحّية، مع اعتبار التّوقيت المخصّص للنّقاش. ثمّة شهادات استوجبت منها ثلاثة أيّام لحضور دورات تكوينيّة مجّانيّة ينظّمُها المستشفى الّذي تعملُ في إدارتِه. أمّا الفراغاتُ المتبقّيةُ على الجدرانِ فهي تَمثّلٌ مَلمُوسٌ لكلمة: «يتبع...».

***

لا شيء يمنع سُليمان من التّدخين في أيّ غرفة أراد، أو في المطبخ، لكنّه اختار الحمّام ليشعل فيه ثاني سيجارة يدخّنها طوال حياته. أغلقَ البابَ بالمفتاح، وجلسَ على غِطاءِ المقعَدِ. لم يكفه ضيق المكان ليستمتع بوحدته، فأغمض عينيه... وفتحهما حالما استشعرت شفتاه قرْبَ انتهاء السّيجارة. رأى، أوّل ما رأى، أذُنيْه الخفّاشيّتيْن على رخام الجدارِ اللّامِعِ أمامَهُ، ثمّ الدُّخانَ المتصاعِدَ ببطءٍ مِنْ فمه. نظرَ إلى النّافِذةِ أعلى الحائطِ على يسارِهِ، فلاح مِنْ خِلالِ زُجاجِها مَوكبُ عُرس... ثمّ سربُ طيورٍ كأنّما رُسِمَ بمسْطرة، وهو يمسّدُ صدرَ السّماءِ الأزرق. لم يبتعد السّرب عن ناظريْه، فبدا ثابتًا في مكانه. أنزلَ سليمان نظرَهُ، كانتْ أمّهُ في البستانِ، واقفةً تحتَ شجرةٍ كبيرةٍ، تمسك سُلّمًا خشبيًّا بدت من خلفه متقطّعةً... فجأةً، حطَّ سربُ الطّيورِ البيضاءِ بالقربِ مِنْها، مُحاصِرًا كُرتَهُ في مُنتصَفِ الحقْل. ارتبك سليمان... لكنّه اختار الاقتراب منْ أمِّهِ. كانتْ

تحمل سلّةً فيها أطفالٌ بحجم الدّمى، جميعهم يشبهونَهُ تمامًا. كانوا مرصوفين الواحد فوقَ الآخر، وحينَ انتبهتْ إلى وجودِهِ، نظرتْ إليهِ متبسمةً وهي تقولُ باعتزاز: «كلّ واحد ممّن في السلّة، كان يمكن أن يكون أنت». خرجَ منَ الحمّامِ مُسرعًا، وتوجّهَ إلى شرفةِ مطبخِهِ، وقف طويلًا أمام بابها... ولم يفتحْه. أدار رأسه إلى الخلف، ثمّ استدار بكامل جذعه. وبخطى تكاد تكون عسكريّةً، توجّه إلى أحد الأدراج وسحب منه سكّينًا. في تقديري، كان الوقتَ المناسبَ لفعل ذلك، حتّى إنّه عاد في اتّجاه الشّرفة على عَجَلٍ كأنّه يخشى أن يتأخّر. فتح الباب وارتمى على حوضِ الزّرعِ في الشّرفةِ... من أعلى نقطة يمكن أن تصل إليها يده هوى بالسكّين وغرسها في التراب. تركها هناك تفعل فعلها دون أن يفلت مقبضها من يده، ثمّ سحبها دفعةً واحدةً. أعاد تلك الحركة مرّات ومرّات، لكنْ بضربات أسرع فأسرع. لم ينتبه إلى أنّه لم يترك مكانًا في الحوض إلّا حَفَره، أقصد طعنه، غير أنّه توقّف عن تسديد الضّربات لسببٍ آخر، إذ ارتفع نبضُه حتّى كاد يتجاوز يده المرفوعةَ التي أرخاها أخيرًا، فانسحبت السكّين من يده مُنسَلّةً ببطء شديد. تشنّجت أصابعه وهي تحاول منعها ثمّ تصلّبت. كنتُ أراقب المشهد من أقصى قربٍ ممكنٍ، فكأنّي أرى جسدًا يتشبّث بروحه وأنا أسحبها... استسلم سليمان، واستقرّت السكّين على أرضيّة الشّرفة، هامدةً، مثل جثّة.

رقّةُ الغُفْران

لا يقودُكَ الاجتهادُ دومًا إلى مَا تريدُ أنْ تحصُلَ عليْهِ، فقدْ تخرجُ خالي اليدينِ، ولا تَحظى بعُشْرِ النّصيبِ الّذي يتحدّثونَ عنْهُ بقولِهم: «لكلِّ مجتهدٍ نصيبٌ»، لذا مِنَ الجيّدِ أنْ ترتابَ في نفْسِك منْ وقتٍ إلى آخر، وهو ما لمْ يفعلْهُ أمجد صاحب الأرقام القياسيّة المتعدّدة، إذ كان رقمُهُ في سُرعةِ ارتداءِ ملابسهِ دَقيقتينِ، يكسِرُهما بفارقِ ثلاثَ عشْرةَ ثانيةً معَ لباسِ الرّياضةِ، وظفَرَ طوَال فترةِ تعلّمه بدرجاتٍ دراسيّةٍ هي الأعلى بينَ أقرانِهِ، وأدّى دورَ البطولةِ في كلِّ مسرحيّاتِ المدْرسَةِ، فضلًا عنْ أنّهُ يعيشُ في ملابسَ داخليّةٍ فائقةِ النّظافةِ، ولا يردّدُ الألفاظَ النّابيةَ بتاتًا، لذا استحقَّ لفْتَ الانتباهِ إليه أكثرَ منْ غيرِهِ، كما استحقَّ الانتماءَ إلى منزلٍ منْ مجموعةِ منازلَ ذاتِ مزايا عاليةٍ، تهبُها الشّركاتُ الكبيرةُ موظّفِيها، وهي أشبه بحبّاتِ الدّومينو، بشكلِها وحجمِها ولونِها الموحّدِ. وعلى الرّغمِ منْ كلِّ العلاماتِ الواضِحةِ، أرى بمقياسٍ بشريٍّ خالصٍ، فرصًا كثيرةً لحدوثِ الأخطاءِ في الكمالِ الزّائدِ عَنْ حدِّهِ... ولا تعجبْ! فموضِعُ قدمي، منذُ ولادتِكَ حتّى الآنَ، فوقَ رأسِكَ مباشرةً، لذلكَ منَ الفألِ السّيّئِ أنْ تتردَّدَ في تصْدِيقي.

في ذلك اليوم، غادرَ أمجد عيادة تجميلٍ تردّدَ عليْها منذُ أقلّ منْ شهرٍ. كان وجهُهُ كمشروبٍ غازيٍّ يفورُ سعادةً، إذ أخذ يعيدُ إلى الخلفِ أذنَين خفّاشيَّتين ورثهما عن أبيه. مشَى في اتّجاهِ سيّارتِهِ متباهيًا بظلّهِ الّذي بدا خاليًا من كلّ زائدٍ لا معنى له، بينما كان منذ ساعاتٍ قليلةٍ يعكسُ أذنَيْهِ وهما تلوّحان على الرّصِيفِ، بشكلٍ أكبرَ ممّا تبدُوان عليهِ في الواقِع. في طريقه إلى السيّارة اعترَضَتْهُ سيّدةٌ كثيرةُ التّبسُّمِ، طفوليّةُ الوجهِ، تحملُ قطّها، متّجهةً نحو عيادةٍ بيطريّةٍ، قرْبَ العيادة الّتي خرجَ منْها قبْلَ قليل. كانتْ تهمِسُ لقطِّها الرّمادِيِّ ذي الشّعرِ الكثيفِ: «سنَخْصِي حبيبَ أمِّهِ بعْدَ قليلٍ...»، وتُقبّله مُكرّرةً الجمْلةَ بصَوتٍ فيه الكثيرُ منَ التّحبُّبِ، كمَنْ يدلّلُ طفلهُ في حُضْنِهِ: «سنَخْصِي البطلَ الجميلَ اللّيلةَ، وغدًا يعُودُ إلى البيت». غاصَ وجهُها في كومة الشّعرِ تلكَ، وهي تعاودُ تقبيلَهُ بصوتٍ مسمُوع. عندئذٍ التفتَ أمجد حانقًا، وهو يقولُ بصوتٍ ساخرٍ:

- لا أفهمُ كيفَ تُحبِّينهُ إلى هذا الحدّ، ثمّ توجِّهينَ المقصَّ إلى خصْيتيْه! أنتَ تشوّهينَهُ لتسْعَدِي بهِ، لا غير.

كان غاضِبًا إلى درجةٍ تكفي لإقناعِ كُلِّ مَنْ يسمعُه بأنّ هناك علاقةً متينةً بينَ الأذنينِ والخصْيتَين! ولكنّ السّيّدةَ شَتمتْهُ بما يليقُ بتطفُّلِهِ. ورغم ذلك، ظلَّ يفكّرُ في القطِّ، طَوالَ الطّريقِ إلى بيتِ والِدِه.

اجتمعَ الأبناءُ مع أبيهم مجدّدًا. أربعةُ رجالٍ يتحلّقونَ حولَ طاولةٍ تحملُ بعضَ الأطعمةِ والمشروباتِ، يتغلّبونَ على الوقتِ

بكلامٍ قليلٍ في السّياسةِ أو في كرةِ القدمِ، وبكلامٍ أقلَّ عنِ الوظائفِ والزّملاء. ابتعدتُ عَنْهم مِقْدارَ عشرِ بناياتٍ... أنجزتُ مَهمّةً خاطِفَةً، ثمّ عُدتُ. فوجدتُهم يلوكون الحديثَ نفسَه ما عدا أمجد، فقد كان يلفّه الصّمتُ وهو يتمنّى في قرارة ذاته أن ينتبه واحدٌ فقط من الثلاثة المحيطين به إلى عمليّة تجميل أُذنيه الّتي كلّفتْهُ مبلغًا جديرًا بالملاحظةِ هو أيضًا.

في ما مضَى، في هذِهِ الشّقّةِ أيضًا، كانوا يستَحمُّونَ جميعًا كلَّ صباحٍ حتّى في أوجِ أيّامِهم اللّاهِثَةِ، يدخُلونَ تباعًا أخًا تلو أخٍ، حتّى الرّقمِ ثلاثة... وحولَ العشاءِ، كان سُليمان يقسِمُ اللَّحمَ بالتّساوي، كأنّه يضعه للتوِّ عن الميزانِ، فيوزِّعُهُ على أطباقِهم تباعًا أخًا بعد أخٍ، حتّى الرّقمِ ثلاثة. لكنَّ المنظرَ مِنْ هُنا، مِنْ تحتِ الطّاولةِ تحديدًا، يبدو أكثرَ إثارةً إذ تظهر فيه ثماني سيقان لا تُميّز رِجْلَيْ سليمان منها إلّا البيجامة الّتي أهدَتْهُ إيّاها سمر، وظلّ يرتديها كلَّ ليلةٍ، فما الحاجة إلى تغييرها مادام لم ينتبه إليها أحد؟

وما إنْ عادُوا إلى تبادُلِ المواضِيعِ الرّتيبةِ نفسِها الّتي أثيرتْ قبلَ العَشاءِ، حتّى حكَّ أمجد قدمَيْهِ كأنّه يريدُ أن يوقدَ نارًا تحتَ الطاولةِ، وما لبث أن أسقطَ إحْدى سمّاعتَيْ هاتفِهِ، فحطّتِ الأغنية الّتي كان يستمِعُ إليْها فوقَ فخذِهِ الأيمنِ... وكمْ كانَ من السّهلِ، في ذلك الصّمتِ، أن تلتقطَ صَداها أكثرُ منْ أذنٍ، ولكنْ لا أحدَ كانَ يُصْغي. حينئذٍ، تنهّدَ، وهو يحيطُ فمَهُ بكفّيْهِ كالبوق، فصارتِ التّنهيدةُ مسمُوعةً أكثر، ولكن بلا جدوى. كانوا غارقين في حديثهم

المعتاد ولا أثرَ للحزنِ أو الفقدِ بينَهم. هل كانوا عالقينَ معًا بسببِ الحبِّ العائليّ، أم هو ليس حُبًّا، بل مجرّد هروبٍ منَ الحيواتِ الّتي يعيشونَها؟ أليس تجمُّعُهم الأسبوعيُّ طوقَ نجاةٍ فحسب؟ أليست سمر هي الطّفولةُ الّتي لمْ يعشْها سُليمان؟ أيحبُّ قصي بالفعلِ أسماء أم هي آخرُ ما بقيَ لهُ منْ أمِّه؟ وذاكَ الّذي تعثّرَ بهِ باسم في تركيا، أهو حبٌّ أم بحثٌ مشروعٌ عن حياةٍ لم يعِشْها؟ والأذنان المشكوكتانِ بثلاثِ غرزٍ في كلِّ اتّجاهٍ، أهي محاولة أمجد للهروبِ من شبَهه بأبيه؟ قبلَ مغادرتِهم منزلَ والدِهم بساعةٍ واحدةٍ، قال أمجد، بحنقٍ ظهرَ متدّرجًا مع كلامِهِ الموجَّهِ إليهم جميعًا:

- أجريتُ عمليّةً لأذنيّ... وها قدْ بدأتُ أتشكّكُ في نجاحِها بفضْلِكم... أو لنقُلْ بفضْلِ عدمِ اهتمامكم، فشُكرًا على الدّعمِ الأُسَريّ.

وعلى الفور، توجّهت إليه الأعين، وضاقتِ الدّائرةُ حولَه. إذْ سرعان ما توافدت تبريرات قصي وباسم لعدمِ انتباههم، وقالا إنّهما شعُرا بوجود اختلافٍ في هيئةِ أمجد، لكنّهما عجزا عن تحديدِه. أمّا سُليمان، فلم يعلّقْ. لقد احتلَّ رأسَه وجهُ نبيلة، وهي تبكي في حضْنِ أمِّهِ قائلةً: «ألم يكنْ يكفي أنّهُ طفل، حتّى تُضافَ إليهُ أذنا شَيطان؟!». كان واقفًا خلفَ البابِ، حينَ سمعها، وسمِعَ أنينَ أمِّهِ في نحيبٍ متواصل، وهي تربّت على كتفِها بقوّةٍ: «هو وحيدي، وحيدي يا بنت خالي». كانتْ دموعها مُتّسِخةً بالسّوادِ، كالملابسِ الرّياضيةِ الّتي يرتدِيها حِينِها. لمْ تأتِ هذِهِ الذّكرى كومضةٍ منفردةٍ

عابرة، لا... بلْ حضَرتْ معَها رائحةُ طبخِ أمِّهِ، ورائحةُ شَعْرِ نبيلة المعطّرِ بشيءٍ بالغِ التّركيزِ، وجسدُها الّذي أخافَهُ كثيرًا في البدْءِ، لكنّهُ ظلَّ مَشدُودًا إليه... ثمّ حملته هذه الذكرى إلى أوّل يومٍ شارك فيهِ آباءَ أصْدقائِهِ مجالسَهم، وهو يتلفّتُ شوقًا نحو الصِّبْيَةِ في الخارجِ. وتذكّر لسعة فنجانِ القهوةِ الّذي وضَعَهُ في كفِّهِ الصّغيرةِ، وأحاديثَ الرّجالِ التي اكتفى بالإنصات إليها دون أن يُدلي بدلوه طَوالَ حياتِهِ، إلى أن شابَ شعْرُ رأسِهِ.... كلُّ هذا تجمّعَ في رأسِ سُليمانَ، وانْحدرَ ليبرُقَ في عينَيْهِ، دفعةً واحِدةً. وفجأةً التفتَ نحو أبنائِهِ وهو يقولُ متحمّسًا:

- شباب... استأجِرُوا لنا ملعبًا، وأحضِروا رفاقَكم... سنَلعب مباراةً تاريخيّةً.

التبستْ دهشةُ قصي وباسم بسعادةٍ غامضة. فها قدْ كسَرَ والدُهمْ كلَّ الحواجز، وهو يلحُّ على إكمالِ مباراةٍ أخرجَتْهُ أمُّهُ مِنْها قبلَ ثمانٍ وثلاثينَ سنة. فوافقَا بعْدَ تردُّدٍ دامَ أكثرَ منْ خمسِ دقائِق. أمّا أمجد، فكانتْ دهشتُهُ مشوبةً بالفزع، إذْ ربطَ فورًا بينَ ما حدثَ في الصّيدليّةِ من تكسيرٍ ونوبةِ غضبٍ غيرِ مبرّرةٍ، وهذا الاقتراحِ المرحِ الّذي غيّرَ مسارَ الاهْتِمامِ عَنْ أذُنَيْهِ كلّيًّا. ولمّا بدا لهُ أنَّ والدَهُ يريدُ تحطيمَ شيءٍ آخر، أصرَّ على رفضِ فكرةِ المباراةِ، حتّى وهو يودّعهُ عندَ عَتبةِ البابِ، ويتمنّى لهُ ليلةً سعيدةً:

- لا داعيَ إلى هذِهِ المباراة... ماذا تحاولُ أنْ تُثبتَ لنفسِكَ أيُّها العجوزُ، بعد أنْ ترمَّلْت؟

ولمْ تكنْ ابتسامةُ سليمانَ، ويداه المعقودَتانِ وراءَ ظهْرِهِ جوابًا، بقدْرِ ما كانتا ترجمةً حركيّةً لـ: «تصبحُ على خير».

***

يحتاج أصحاب النظّارات إلى مَسْحِها دائمًا كلّما غامت أمام أعينهم الرؤية، أمّا باسم، فلمْ يكن ينزع نظّارتيه من فوق أنفه لأنَّ رُؤيتَهُ ضَبابيّةٌ، بلْ لأنّه كان يحاول الهرَب، إذْ كانتِ الصّورةُ أوضَحَ ممّا يَحتمِل. هذا ما فعلَهُ، وهو يراقِبُ منال الّتي كانت تُلبِسُ ولدَيْها ملابِسَ رياضِيّةً تُشْبهُ ما يرتدِيهِ أبوهما... وقدْ تأكّدَ مِنْ هذا، حين أعادَ نظّارتَيهِ إلى عَيْنَيه، فيما كانتْ منال تربطُ حِذاءَ زياد، كأنّها تربطُهُ هو أيضًا، مُكرِّرَةً ما تقُولهُ الأمّهاتُ على مَرِّ القُرونِ: «انتبِهْ لأخِيك». بعد ذلكَ، وقفتْ وهي تنظرُ إلى باسم الّذي جهّزَ حقيبةً صغيرةً، فيها منشفةٌ وقواريرُ ماءٍ من أجله، وبعضُ العصائر من أجل أطفالِه. خطرَ لها أنْ تُعانقَهُ، أو تقولَ لهُ «أحبّكَ»... فلعلّها إنْ فعلتْ تسمَعُ منهُ كلمةَ «أحبّكِ» فارغةً منْ أيِّ مضمونٍ، تمامًا كتلكَ الّتي تمطِرُهُ بها طَوالَ الوقتِ، تيمُّنًا ببطلاتِ الأفلامِ، لكنْ حتّى إنْ قالتْها بصدق، فإنّها لنْ تستطيعَ التقّدمَ خطوةً واحِدةً، نحو رجلٍ تعلّمَ إخفاءَ نفسه داخِلَ جسدِهِ جيِّدًا، وهو يحيطُها بهالةٍ منَ الصّمتِ لها طاقةُ الصُّراخ. لكنّ ذلك لا يعْنِي أنّ أحدهما لا يعْرِف الآخر جيّدًا، بلْ كانا راضخَينِ بكلِّ وعيٍ لتلكَ القاعدةِ المرّةِ الّتي حكمتْ حياتَهما: قليلٌ منَ الثّقةِ، مزيدٌ منَ التّكاثُر.

لا تبدُو حججُ جميعِ مَنْ في هذا الكوكبِ، وباسم ليسَ استثناءً، على قدرٍ كبيرٍ مِنَ التّماسُكِ، فهم يحدِّقونَ إلى الظّلامِ، لعلّهم يروْن شيئًا، ويُسَمّونَ هذا إصْرارًا لا تجاوزًا للحُدودِ، كما ينْبَغي لهُ أنْ يُسمّى. لكنّ الظّلامَ حدٌّ أَسْودُ... فلمَ يصِرّونَ على عُبُورِه؟ هم يُعلنونَ أنّهم لا يخافونَ الأنفاقَ المظلمة، مادامَ النُّورُ في نهايتِها... وأنَّ حياتَهم ما كان لها في الأصل أن تكون لولا عبورُ ذلكَ النّفقِ المظلمِ، طيلةَ أشهرٍ عديدةٍ، وصُولًا إلى الصّرخةِ الأولى، إلى النّورِ الأوّلِ... إلى الولادَة. لكنّ الغريبَ أنّهم لا يحتمِلونَ فكرةَ عُبورِهِ مرّةً أخْرى، معي أنا بالذّات، للمضيِّ إلى نورٍ مِن مادّةٍ أخرى! هؤلاءِ المتناقضُونَ، أصحابُ الحججِ الواهية، هم أنفُسُهم الّذين يقفُونَ مشدُوهينَ أمامَ لوحةٍ، ويصِفُونَ راسِمها امتداحًا بالمجنونِ، لأنّهُ رسمَ فكَّ رجلٍ بألوانٍ صاخبةٍ في جبهتِهِ... ويثرثِرونَ ساعاتٍ أمامَ لوحةٍ مُشوّهةٍ كهذه! وحينَ يروْنَ شخْصًا في الواقعِ، بألوانٍ أقلّ صخبًا، وبقليلٍ منْ هذِهِ البشاعةِ، يفرُّونَ منْهُ هربًا، دونَ التفوّهِ بكلمةٍ واحدةٍ، كأنَّ قُبْحهُ مُعدٍ، وسينتقِلُ إليهم عبْرَ الهواءِ، إذا وقفُوا معهُ قليلًا، أو ألقَوْا عليهِ التّحيّة! إنَّ جميعَ مَنْ على هذا الكوكبِ، خطٌّ مُتعرِّجٌ مِنَ التّناقضاتِ. فهمْ يبجّلونَ النّورَ، ويهربونَ منهُ أحيانًا، لأنّهُ يكشِفُ سوءاتِهم. وتجذِبُهم العتمةُ، ويهابونُها في آنٍ واحدٍ، والأدهى أنّهمْ يريدُون المزيدَ منَ الحياةِ، وهم غيرُ مؤهّلينَ للعيشِ فيها، مادام السّؤال الذي يشغلهم كما يشغلُ باسم هو: ماذا نفعل للخُروجِ مِنْ حياتِنا بأقلِّ الخسَائِر؟ وهذا ما يجعلني أتساءل أنا نفسي أحيانًا: ألا أكون، حينَ أحمل أحدَكم، طوقَ نجاة؟

* * *

وقفَ وحدَه في غرفةِ النّومِ، وسعادتُهُ مختبئةٌ في دُرْجٍ يضمّ دفترًا مُعطّرًا يحْوي صُورَ زواجِهِ. كان بصدد ارتداء ملابسه الرّياضية، قبالةَ مرآةٍ تعكسُ صُورتَهُ وشهادَتيْ تميُّزٍ لزوجتِهِ أسماء. ورغم أنَّ الملابس الرّياضِيّة لا تُوحي بالرزانة، فقد بدتْ كذلك على قصي، ذلكَ الشّابِّ الّذي لا يحمل ذكرى واحِدةً عَنِ امْرأةٍ أَحبّها، أو أَحبّتْهُ بوضُوحٍ. أمّا زوجتُه، فهو يعرفُ أنَّ ما يجمعُهُ بها طلاقٌ قادمٌ لا محالةَ، لكنّهُ لمْ يُقدِمْ عليْهِ، لأنّهُ لمْ يحتمِلِ الفكرةَ بَعْدُ، فضلًا عنْ أنّهُ لمْ يُدركْ موضع الخطإِ في هَذا الزّواجِ. وإنْ هو بادرَ بالطّلاقِ، فسيُصْبحُ خطؤُهُ حينَها واضِحًا، وربّما يفوقُ أخطاءَ أسماء الكثيرةَ، أسماء الّتي تضَعُ زواجَها في المرتبةِ العاشرةِ منْ حياتِها، لذا هو غيرُ مستعدٍّ بعدُ للمُخاطرةِ بكلِّ الصّوابِ الّذي يمثّلُه. ومنْ ثمّ، قضّى حياتَهُ يُشبِهُ في توجُّسِهِ مِنْ أيِّ حركةٍ جثثَ الأمواتِ المدفونةَ في باطنِ الأرضِ، وجماجمُهم تنظرُ نحْوَ السّماءِ.

أكملَ تجهيزَ حقيبتِهِ الرياضيّةِ بمستلزماتٍ تكفِي شخْصينِ، فقد كانَ متأكدًّا منْ أنَّ والدَهُ لنْ يُحضِرَ معه حقيبةً. وكانَ يهُمُّ بالمغادرةِ، حينَ سمِعَ أسماء في الخارج توشِكُ أنْ تضَعَ المفتاحَ في قفل بابِ الشّقّةِ. عندئذٍ بادر هو بفتح الباب رغبةً في مفاجأتِها. فرفعتْ رأسَها إليهِ بعَيْنَيها المشعّتَينِ وتلكَ الابتسامةِ الّتي تزمُّ الفمَ كلّما اتّسعتْ، ليبدُوَ كأنّه ممسوكٌ بمشبكيْن من كلا زاويتيْه. هَمَّ بالانحناءِ ليَضعَ

قُبلةً على خدِّها، لكنّها عادتْ إلى الوراءِ مُرتابةً في خطوةٍ سريعةٍ، وهي تدفعُ بكفِّها صدْرَهُ إلى الخلفِ، ثمّ قالت له بنبرةٍ مُتشكّكةٍ:

- آتٍ منَ النّادي الرّياضيّ؟ ألستَ متعرّقًا؟

أيقنَ أنّ ثيابه هي ما أوحَى إليها بِهذا السُّؤالِ، إذْ لمْ تكنْ على جسَدِه قطرةُ عَرقٍ واحِدة. لكنّهُ لمْ يتكبّدْ عناءَ الإجابةِ بأيٍّ مِنَ الإجاباتِ القليلةِ المحتملةِ، لأنَّ اللّونَ الأحمرَ بدأَ يتشعّبُ في بياضِ عَيْنيهِ اللّتيْنِ بدَأتا تتحرّكانِ ببطءٍ غريب. ولمْ يكنْ ذلكَ الّذي تجمّعَ بينَ حاجِبَيْ قصي جَفنًا ثالثًا، بل هُو الغضَبُ الّذي يتدَفّقُ دُفعَةً واحِدَةً. لقدْ كانَ سُؤالُها قفْزةَ نملةٍ أرادتْ أنْ تُعيق رجُلًا يقِفُ على الحلبة... ومنْ يُصدِّقُ أنّها نجحت في ذلك؟

«ليس ثمّة نهايات سعيدة في حياةٍ تقف على ساقٍ واحِدَة»، خذوا عنّي هذه القاعدة البسيطة. فقد تجمّعتْ قبضةُ قصي فجأةً تحتَ عنقِ أسماءَ، وجرَّها إلى داخلِ شقّتِهما الّتي يغلبُ عليْها الطّابعُ الأنثويُّ المبالغُ فيهِ، كأنّها وحدَها مَنْ يسكنُها. سحَبها مِنْ عُنقِها إلى غرفة النوم بيدٍ وأغلق الباب باليد الأخرى، ثمّ رماها أرضًا وظَلّ يصرخ أمامَ عَينَيْها الجاحِظتينِ ذُعرًا وصَدمَةً ممّا ترياه:

- الآن بدأتُ أتعرّقُ... هل يعجبُكِ هذا العَرق؟ هلْ بلغت الرّائحةُ أنفَك؟

كانتِ المرّةَ الأولى الّتي يرى فيها صُورتَهُ معكوسَةً في حَدقَتيْها، فأسْعَدَهُ أن تنظُرَ إليهِ دونَ أنْ تُشتّتها تفاصِيلُ أخرى كعادتِها معهُ.

ومع ذلكَ انقضَّتِ الكفّانِ على الوجْهِ، تصفعانهِ في اتّجاهَينِ دونَ توقُّف. وفي غَمْرةِ ثورتِهِ، تذكّر كلَّ القُبلِ الّتي أرسَلَها إليْها في الهواءِ، ولمْ تفكِّرْ في التقاطِها أو ردِّها إليه وإنْ مُجامَلةً. صحيحٌ أنّهُ كان يعذرها في كلّ مرّةٍ، فلعلّ زوجته لمْ ترَ تلك القُبلَ، لكنْ الآنَ، وهو واقعٌ فوقَ خصْرِها، يدرك تمامًا أنّها تراها. لذلكَ لثمَ شَفتَيْها بقُوّةٍ وهو يصْرخُ، فيتطايرُ الرّذاذُ مِنْ فمِهِ:

- أترَيْنَ القُبلَ الآن؟ هل تشعُرينَ بها؟

كانَ فوقَها تمامًا، فلمْ يجدْ مفرًّا مِنْ ولوجِ أعمقِ عتمةٍ في داخِلها.

***

أصابَهُ النّدمُ، كعادةِ كلِّ منْ يلتقطُ لنفْسِهِ صُورةً أماميّةً، ثمّ يُرسِلها إلى شخصٍ مّا، ويكتشِف بعْدَ إرسَالِها أنّهُ ليس مُستعدًّا لانتظارِ ردٍّ قد يتأخّر كثيرًا. كان ذهن سليمان مُشوّشًا، وهو يرسِلُ تلك الصّورةَ. هل ظنّ أنّ سمر قد تراها فتضعف، وتركض إليهِ عائدةً باتّصالٍ؟ على كلّ حالٍ، هو لم يبلغ من اللؤم درجةً تجعله يحاول إيلام سمر بصورته وهو يرتدي زيّ لاعبي كرة القدم، كأنّه يقول لها إنَّ حياتَهُ تمضِي على نحوٍ طبيعيٍّ مِنْ دونِها. غيرَ أنّي أعي سَببَ ذلك جيّدًا، وبعْدَ قليلٍ سيتّضِحُ لأبنائِهِ أيضًا. أمّا هو، سليمان ابن حمدة، فسيظلُّ الأمرُ غامِضًا في ذهنه إلى الأبَد.

ذكّرتْهُ نافذةُ المحادثات في هاتفِهِ بشرفةِ المطبخِ، وقذفتْ بهِ كحجرٍ نحو تلكَ النّافذةِ الموازيةِ لمطبَخِه. فانتبهَ إلى رسالةٍ صوتيّةٍ

مُدّتُها ثانيتانِ، لمْ تُفتَحْ بعْدُ... رسالة وصلتْ قبْلَ ثلاثةِ أشهرٍ، عقبِ ثلاثَ عشْرةَ رسالةً صوتيّةً كان قدْ سمعَها كلَّها في حينِها، إلّا هذِهِ، رغم أنَّ لها التّاريخَ نفسه، فضلًا عنْ وصُولِها بفارقِ دقيقةٍ واحدةٍ فقطْ عنِ الرّسالةِ الّتي تسبِقُها. كانَ لا يزالُ مَذْهُولًا مِنْ تفْويتِها، وهو يلتقِطُ أنفاسَهُ، ناظرًا إلى الجهةِ الّتي أتى مِنْها أمجد راكضًا... ثمّ أخرجَ مِنْ جيبِهِ قطعة «المستكة»، وقبْلَ أنْ يُحرّرَها مِنْ غِلافِها، ويقذفَ بها في فمِهِ، مدَّ شفتيْهِ بطريقةٍ غريبةٍ، راسمًا في الهواءِ قبلةً لأمجد. فقدْ أسعدَهُ أنَّ رسالةً مِنْها لمْ تُفتَحْ بعْدُ، وذلك ما جعله يتصرّفُ على هذا النّحوِ العاطفيِّ. غير أنّ أكثر ما عَكَسَ تلك السعادة هي طريقته في مضغ لُبانتِه وهو يبتسِم. ردَّ أمجد القبلةَ بسرعة، قبْلَ أنْ يَظهرَ الاستغرابُ على وجهِهِ، وهو يقتربُ منْ والدِهِ قائلًا بنبرةٍ لا تفصِحُ عمّا يفكّرُ فيهِ:

- يبدو أنّ مزاجكَ في أحسنِ حالاتِهِ يا كابتن سليمان.

وبينما كان أمجد يضع حقيبتَهُ إلى جانبِ كيسِ حلويّاتٍ كبيرٍ اشْتراه الجدُّ لأحفادِه، قارن في مخيّلتِهِ، بينَ هذا الّذي أرسلَ قبلةً في الهواءِ، وذاكَ الّذي تهجّمَ بشراسةٍ على أرففِ صيدليّة آدم. عندئذٍ، قال سُليمان بنبرةِ مَنْ لا يُفصِحُ عمّا بداخِلِهِ هو أيضًا:

- أبوك رجلٌ غبيٌّ، والأغبياءُ عادةً يَحظَوْنَ بمزاجٍ جيّدٍ معظمَ الوقت.

ثمّ تأمّلَ أطرافَ الملعبِ، وهو يكرّرُ:

- غبيٌّ... ليس أكثر من رجلٍ غبيّ.

في الوهلةِ الأولى، فكّرَ أمجد بالتّدخُّلِ، لكنّ الوقفاتِ القصيرةَ بينَ الجملِ، والفراغاتِ المتروكةَ بينَ صفَّيْ الأسنانِ العلويّةِ والسّفليّةِ، أشعرتهُ بأنَّ شيئًا مّا على وشْكِ الخروج مِنْ فمِ والدِهِ، وأنّ عليهِ ألّا يستعجِلَه. حينَها أضافَ سُليمان في ما يبدُو أنّه اعتراف:

- حقبةٌ قصيرةٌ انتهتْ بموتِ نبيلة، وحقبةٌ أطولُ انتهتْ ببُعْدِ سمر، وأنا لا أعرفُ حقًّا كيفَ أتابعُ حياتي منْ دونِهما؟

لمْ يَستغْربْ أمجد ذاكَ الاسمَ الّذي مرَّ بعذوبةٍ على لسانِ والدِهِ، لكنَّ الغريبَ عنده أنّهُ يعتبرُها حقبةً تلتْ حقبةَ أمِّهِ، ويراهَا الأطولَ! هل بدأتْ علاقتُهُ بسمر في حياةِ أمِّهِ، أمْ إنَّ أداةَ القياسِ كانتْ مُختلفةً...؟ كانَ في حالةِ صَدمةٍ وهو يسترجِعُ إشاعةً أنكرَها ضاحِكًا، حتّى دون أنْ يتحقّقَ مِنْها، عنِ امرأةٍ تتسلّلُ إلى عِمارتِهم ليلًا، وتتردّدُ على والِدِه. وها هو جزءٌ مِنَ الأحجية، بدأ يتفكّكُ أمامَه.

***

وصل إلى الملعبِ أصدقاءُ قصي وباسم، وصديقٌ واحدٌ فقط لأمجد، بينما لم يصِلْ أيُّ صديقٍ من أصدقاء سليمان الّذي فتحَ هاتفَهُ مرّةً ثانيةً، ليتحقّقَ مِنْ أنّ سمر شاهَدت الصّورةَ، مُؤجّلًا الاستماعَ إلى رسالتِها الصّوتيّةِ حتّى انتهاءِ المباراةِ، ولاسيّما أنَّ سمّاعةَ هاتفِهِ في البَيْت. أمّا أمجد فلمْ يتسنَّ لهُ الرّدُّ على كلامِ والدِهِ، فبمجرّد أن

نطقَ اسمَ سمر، ظهرَ باسم منْ خلفِ سيّارتِهِ، ممسِكًا بكَفّيْ ولَديْهِ، مزهُوًّا إلى أقصى حدٍّ أمامَ أصْدِقائِه. نعمْ، لا تستغربوا! فالرّجالُ يميلُونَ إلى هذا التّباهِي، حينَ يُمسكون بطفليْنِ مُتقاربيْنِ في العمرِ، بينما لا ترى المرأةُ في ذلكَ إلّا مزيدًا منَ التّعبِ وإنذارًا بالهرم.

بعدَ اكتمالِ العددِ، توزّعَ اللّاعِبونَ على الملعَب. وقدْ بدا للجميعِ، دونَ اتّفاقٍ معلنٍ، أنّها مباراةُ اعتزالِ سُليمانَ، وأنّ عليهم ألّا يضايقُوهُ كثيرًا حين تكون الكرةُ في حوزتِهِ، ولاسيّما أنَّ أبناءَهُ شَرحُوا لهم حاجتَهُ النّفسيّةَ والمعنويّةَ إلى خوضِ هذِهِ المباراة. وربّما لهذا السّببِ، اختلطتْ عليهِ الأمورُ، فأرادَ أنْ يردمَ فجوةً طولُها أكثر مِنْ أربعينَ سَنة. لقدْ أرادوا لهُ أنْ يكونَ رجلًا وهو في الثّالثة عشرةَ، فأرادَ اليومَ، وهو في بدايةِ الخمسيناتِ مِنْ عُمْره، أنْ يكونَ طفلًا. بعْدَ بضْعِ قفزاتٍ مُحتشمة في المكانِ نفسه، تقدّمَ سُليمان إلى المركز الّذي أحبّهُ على الدّوام، بالقربِ منْ مرمَى المنافِسينَ. وبمرور الوقتِ، بدأ يتحرّرُ مِنْ جسدِهِ، وأخذت عصارةُ لُبانِ «المستكة» تزيدُ مِنْ لعابِه. لقد مضَتْ على رحيل نبيلةَ عشرةُ أشهرٍ، أشعلَ فيها سُليمان عودَ ثقابٍ واحدٍ أضاءَ لياليهِ سبعةَ أشهرٍ حدثتْ خِلالها أشياءُ كثيرة، ثمّ انطفأَ فجْأةً. وها هي ذاكرتُهُ تسترجعُها واحِدةً تلوَ أخْرى، معَ كلِّ ركلةِ كرةٍ... في الحقيقة، هي لم تكن ذكرياتٍ بقدر ما كانتْ وخزات، فكلُّ ما تُصَوِّرُهُ عيناهُ أمامَهُ، يتحوّلُ إلى نخزٍ عميقٍ في صدْرِه. «ذهني يريدُ اللّعبَ، لكنّ جسدِي لا يسْتَجيب»... لقدْ دمعَتْ عيناهُ وهو يقرأ هذِهِ العبارةَ التي قالها أحدُ نجومِهِ المفضّلينَ،

حينَ أعلنَ اعتزالَهُ الكُرة. وها إنّ ذلك التصريح الصحفيّ يتحوّل إلى تجربةٍ فعليّةٍ يعيشُها سليمان نفسُه، رغم أنّهُ أظهرَ براعةً في المراوغةِ، والتّحكّم في الكرةِ، والتّسديدِ عنْ بعدٍ، وبالخصوص لمّا أطلقَ قذيفةً مباغتةً ردَّها القائم، وأثارت تفاعلَ كلّ أبنائِهِ وأحفادِهِ الّذين هتفُوا باسْمِهِ: سليمانْ... سليمانْ... سليمانْ... فبثّ الهتاف في روحه طاقةً حملته على الركض دون توقّف... لكنّه لم يكنْ يجري، بلْ ينبضُ...كان النّبضُ يصعدُ إلى أذنيهِ، كأنَّ طُبولًا تُقرعُ داخلهما، حتّى إنّه صار يرى الوجوهَ ولا يسمعُها... إنّها مجرّدُ وجوهٍ فرحةٍ تقفزُ وتصفّقُ لهُ دون صَوْت. فجأةً أبصرَ السّيّدةَ حمدةَ تندفع بغضبٍ منْ إحدى زوايا الملعبِ في اتّجاهِهِ... لا ريبَ أنّها ستجرُّهُ منْ أذْنِهِ كيْ تُعيدَهُ إلى عَروسِه. ومنْ زاويةٍ أخرى في الملعبِ، جاءتِ الفتاةُ الّتي غادرت مقعدَ سيّارتِهِ الخلفيِّ لتموتَ على الإسفلتِ، وتقدّمَتْ نحوهُ بفمٍ مَفتُوحٍ يصْرخُ دونَ صَوتٍ، فكاد لا يرى عَينيْها وأنفَها، لاتّساعِ ذلكَ الشّقِّ الأحمرِ المسمّى فمًا. ومنْ زاوية الملعب الثّالثة، لاحت السّيّدة نبيلة، واقتربتْ منهُ شيئًا فشيئًا، ممسكةً بملعقةِ طعامٍ ضخمةٍ علاها الصّدأُ، ظَلّتْ تُلوّحُ بها في الهواءِ، حتّى وهيَ تتراجعُ إلى الخلف. ومنْ الرّكن الرّابع، تجلّت سمر المستفيضةُ حنانًا وغموضًا وكذباتٍ قاتلةً حطّمتْ قلبَهُ... ها هي تصفّقُ بكفّيْنِ مُكتنزتَيْنِ وناعمتَيْنِ، ثمّ تبتسمُ لهُ، وتحني رأسَها إلى الأسفلِ قليلًا، كأنّها تراقِبُ شقَّ صَدْرِها، فتنسكبُ بعضُ خصلات شعرِها فوقَ وجهِها، سرعان ما تتبدّدُ حين ترفعُ رأسَها، لتنظرَ إليهِ في غنَج،

كانَ قريبًا منَ المرمى وهي وراءَهُ تمامًا. وعندما مالَ إلى الوراءِ ليسدِّدَ الكرةَ بضربةٍ هوائيّةٍ خاطفة، أحسَّ بدفئِها وهي تسندُهُ مِنَ الخلف. وعلى الرّغمِ منْ أنّ خطواتٍ قليلةً وثقيلةً هي كلُّ ما تبقّى لهُ، فقدْ كانتْ كافِيَةً، ليتّجهَ إلى الكرةِ الّتي عانقتِ الشّباكَ... ويمسِكَ بها، ويضُمَّها إلى صدْرِهِ الّذي اشتدَّ ألمُهُ، ويستلقيَ بها على العشبِ، ثمّ يقبّلَها قبلةً عميقةً... في تلكَ اللّحظةِ، أحسَّ بشَفتيْها المكتنزتيْنِ تبادلانهِ قبلةً بقبلةٍ، فأهداها آخرَ ما تبقّى لهُ مِنْ أنْفَاس. ولمّا تجمّدتْ نظرتُهُ، وتراختْ يداهُ، وتحرّرتْ سمر منْ حضنِهِ... نظرَ إليّ وهو يبتسِم....

وقتُ الوفاةِ: (20:16)

***

لا أستطيعُ إقناع الحزن، صاحبِ الموهبةِ الفطريّةِ في تمزيقِ القلوبِ، بأنّهُ مرفوضٌ أكثرَ منّي بين بني البشر. فقد أكونُ أنا مَطلوبًا في أوساطِ المنتحرينَ واليائسينَ، وأصحابِ الأمراضِ المزمنةِ، أمّا الحزنُ... فمَنْ ذا الّذي يتمنّاهُ أو يحتاجُ إليه؟ لقدْ دارتْ بيني وبينَهُ أكثرُ المحادثاتِ إثارةً للتّساؤلِ والدّهشةِ، محادثات تكلّمَ فيها كأنّهُ ضحيّةُ سوءِ الاستعمالِ في كثيرٍ منَ الأحيان. حدّثني عنْ نبلِهِ، وعنْ كونِهِ أداةً لتطهيرِ الأرواحِ ممّا علقَ بها مِنْ دنس الحياةِ، شرطَ أن يعرفَ الإنسانُ كيفَ يبقِيهِ تحتَ السّيطَرة. وروى لي على سبيل المثال حكايةَ سيّدةٍ رافقَها بعد زواجِها بسنةٍ على مدى خمسة

وثلاثينَ عامًا، دون أن يتمكّن من الابتعاد عنها لحظةً. فقد تزوّجتْ تلكَ السّيّدة منْ رجلٍ اعتادَ جرَّها مِنْ يدِها أو شَعرِها في كلِّ أنحاءِ المنزل. *وهذا عاديٌّ في عَالَمِكُمْ*، وكانَ عزاؤُها الوحيدُ في زواجِها، أنّها أنجبتْ ولدًا وسيمًا، راحَتْ تنبش خيالها عن كلَّ الاحتمالاتِ الّتي قدْ تبرّرُ جمالَهُ، فلمْ تجدْ إلّا كونَهُ مكافأةً على صَبرِها، لذلكَ سمّتْهُ «صابر». وفي شهره الثالث ارتفعت حرارتُه... تجاهلتِ الأمُّ، في خضَمِّ فزعِها حرارةَ الصّفعةِ الّتي تلقّتْها، لأنّها أيقظتِ الزّوجَ، في منتصفِ اللّيلِ، كيْ يأخُذَهُ إلى المستشفى، لكنّها أيضًا، وبفعلِ الصّفعةِ ذاتِها، نسِيتْ إخبارَهُ بأنّها حشَرتْ للتّوِّ في أحشائِهِ لبُوسًا، ليخفِّضَ حَرارتَه. فلمْ تمضِ ربعُ ساعةٍ، بعدَ أنْ حقنَهُ الأطبّاءُ بإبرةٍ منْ الدّواءِ نفسه، حتّى امتلأَ جسدُ الطّفلِ بقعًا زرقاءَ، خلّفها تخثّر الدّمِ في عُروقِه. حملهُ والدُهُ عائدًا بهِ إلى البيتِ. وفي الطّريقِ، لمْ يفكّرْ إلّا في احتمالٍ واحدٍ... لقد أرادتْ تلكَ السّيّدة الّتي تقبعُ في بيتِهِ الانتقامَ منهُ، فكما يصفعُها كلَّ يومٍ بيدِهِ الغليظةِ، صفعتْهُ هذِهِ المرّةَ بولدِه. وحينَ وصَلَ إلى المنزلِ، رمَى بولدِهِ كتلةً مِنَ اللّحمِ الباردِ في وجْهِها، قائلًا باحتقارٍ شديدٍ: «خُذِي نسْلك!!». فدارَ الطّفلُ دورةً كاملةً في الهواءِ، تباعدتْ فِيها ذراعاهُ عنْ جسدِهِ، قبلَ أن تتلقّفَهُ أمُّهُ بفزعٍ فطريٍّ، صارخَةً بأعْلى صَوتِها: «أنت مجنون؟». وكانتْ تلكَ آخرَ كلمةٍ نطقت بها، إذْ قضَّتْ بعدَها خمسًا وثلاثينَ سنةً في صمتٍ تامّ... وفي يومِ موتِها، حينَ همّ أهلُها بدفنِها، جاءَ منْ أقصَى المقبرةِ رجلٌ يسْعَى، وطلبَ منْ والدِها وإخوتِها، أنْ يسمَحوا لهُ بوضْعِ

طفلِهِ الرّضيعِ في حجْرِها، لأنّهُ لا يحتملُ دفنَهُ وحِيدًا. فأفسَحوا لهُ بينَ نهديْها مكانًا ثمّ دفنُوهُ معَها. ومن المؤكّد أنّه سيكونُ طفلَها الّذي لنْ ينازِعَها فيهِ أحَد حين تنهض في الحياةِ الأخرى.

***

كانتْ تكسرُ قالبَ السّكّرِ المربّعَ، لتذيبَ نصفَهُ في كوبِ الشّايِ... فقد عوّدَها سليمان طوالَ سبعةِ أشهرٍ قضّيَاها معًا على تقليل السُّكّرِ في المنبّهات. ولمْ يكنْ ذلكَ بدافعٍ صحّيٍّ، لكنّهُ يرى أنّ إضافةَ السُّكّرِ أمرٌ يقلّلُ مِنْ وقارِ الشّايِ والقهْوَة. كان ضوء الشّمس منعكسًا خَلْفَها على لوحةٍ لمنظرٍ طبيعيٍّ في مزرعةٍ ريفيّةٍ، يحتلُّ طرفَها قنُّ دَجاجٍ، وكانَ سُليمان كلّما تحدّثتْ إليهِ منْ شقّتِها القديمةِ المجاورةِ لهُ، عبر أحد برامج الكاميرا الهاتفيّة، يُلقي عليهِ نظرةً خاطفةً، مستكملًا تحيّتَهُ الّتي يبدؤها قائلًا: «صباح الخيرِ حبيبتي...»، ليختمها بـ:«صباح الخيرِ أيّتُها الجميلات». وهيَ تذكُرُ تحيّتَهُ هذِهِ، كلّما رأتِ اللّوحةَ في مكانِها الجديدِ، في شقّتِها الّتي تبعدُ عنْ حيِّ «بَدّار» ما يقاربُ أربعةَ كيلومتراتٍ، فتبتسمُ لهُ، كأنّهُ أمامَها. حتّى عندما تسرّح شعرَها، فإنّها تتذكّره، ويحضُرُ ارتباكهُ في عَينَيْها.

دخلَ فاضل الشّقّةَ ممسكًا بكرتونٍ كبيرٍ ذي فتحتيْنِ جانبيّتينِ تختبئُ فيهما أصابعُ كفّيهِ. لقد جلب كلّ مُتطلّبات المطبخِ مِنَ الخضرواتِ والفاكهةِ، ذامًّا الجيرانَ غيرَ المتعاونينِ في حيّهم الجديدِ.

وبينما كانتْ سمر تعيدُ كوبَ الشّايِ إلى الطّاولةِ، وتهمُّ برفْعِ رأسِها نحوَه، سمعتْهُ يقولُ بتمهُّلٍ:

- خبرٌ سيّءٌ تلقيتُهُ منذ قليل... جارُنا في حي «بَدّار»، سليمان الريّس، توفّيَ إثرِ نوبةٍ قلبيّةٍ، وهو يلعبُ الكرة.

كانتْ هذِهِ البساطةُ، الّتي قذفَ بها الخبرَ في أذنَيْها، طريقتَهُ الوحيدةَ في الانتقامِ مِنْ سمر وسليمان، ومِنْ كلِّ ما عجز عنْ تخيُّلِ حُدوثِهِ بيْنَهما.

فتحتْ سمر عَينيْها على اتّساعهما عشْرَ ثوانٍ، ثمَّ أغمضَتْهُما بقوّةٍ... كان مذاق رشفةِ الشّايِ الأخيرةِ لا يزال عالقًا بلسانها، غير أنّ طعمًا مالحًا بدأَ يشوبه. وسرعان ما تغلّب طعم الدموع على مذاق الشّاي. لقد كانت دموعُها تسيل مِنْ تحْتِ الجفون المطبقة في خطٍّ متّصلٍ يتفرّعُ عند آخِرِه. ولمْ تكنْ إغماضةُ العينينِ سوى قناعٍ فاشلٍ، للاختباءِ بذلكِ الحبِّ عنْ أعينِ فاضل، وعنْ حقِّها في الصّمتِ، وفي الهروبِ بعِيدًا. فتحَ فاضل فمَهُ أكثرَ منْ مرّةٍ، مُحاولًا الدّفعَ بكلمةٍ أو اثنتيْنِ، لكنْ، من دونِ طائلٍ، فقد كانت الكلمات ترتدّ سريعًا وترجع إلى جوفه. ثمّ ارتختْ قبضتُه رويدًا رويدًا فاقترب منها لتستقرَّ كفُّهُ اليُمنى أخيرًا فوقَ كتِفِها اليسرى، بأصابعَ حانيةٍ لا تشبهُ في نعومتِها إلّا رقّةَ الغُفْران.

***

أنتم تتجاهلونَني، لأنّني غيرُ مرئيّ. تقولونَ في سذاجةٍ ليستْ غريبَةً عنكمْ: ما دُمنا لا نراهُ، فهو أيضًا لا يرانا، لذا تتجرّؤونَ على نِسْيانِ حقِيقةِ أنّني سأطفئُكم في أيِّ لحظةٍ، ولولا هذِهِ القدرةُ على التّجاهلِ، لما اسْتَطعتُمْ العيْشَ لحظةً واحِدَة. أمّا أنا، فمِنْ هُنا، مِنْ مَوْقِعِي هذا تحديدًا، أراكُمْ مجرّدَ نقاطٍ صغيرةٍ تتحرّكُ ببطءٍ، خنافسَ فوقَ بركةِ ماءٍ، بعضُها يتركُ أثرًا خفيفًا، أمّا بعضُها فلا... نقاطًا لا تكادُ تظهرُ في مكانٍ، حتّى تختفِيَ منْهُ، كأنّها لم توجدْ يومًا. مِنْ مكاني الأعلى أراقبُ حياتَكم غير المتجانسَةِ، مُرتديًا كلَّ أوسِمتِي، الّتي اكتسبتُها عنْ جدارةٍ، نتيجةً لقدرتِي على تخليصِ كوكبِكم مِنْ حمولتِهِ البشريّةِ الزّائدةِ. صَحيحٌ أنّني أجفلُ بعْضَ لحظاتٍ ممّا تعُدّونَ، حينَ أراقبُ حياتِي خلفِي، وما جلبَهُ الزّمنُ عليَّ مِنْ تغييراتٍ، جَعَلتْني مثلكم لا أنجُو مِنْ خَوْف. أنتَ أيّها المرافقُ، أتذكرُ ما ألمّ بكَ وأنتَ تشاركُ صاحبَكَ المحتضَرَ غرفتَهُ، في أحَدِ المشافي؟ أو حينَ دخلْتَ مكانًا به مُتوفّى، لتلقِيَ عليهِ النّظرةَ الأخِيرة؟ أو عندَما شاهدتَ جثّةً ملقاةً على الرّصيفِ، جرّاءَ حادثِ سيرٍ... بم شَعُرتَ؟ فما بالكُ بي! أنا، منْ رافقتُكم في كلِّ تلكَ اللّحظاتِ الأخيرةِ في حياةِ كلٍّ مِنْكم! نعم... يخيفُنِي مَصِيركُم، ومصِيري مِنْ بعدِكم، يُرعِبُني أنْ أبقى وحيدًا بعد آخرِكم، حينَ تكونُ إنجازاتي كلُّها مجرّدَ شواهِدَ قبورٍ خلْفِي، شواهِدَ بأسماء أو دونَ أسماء، ذلكَ لا يُهمُّ، فبِعلمِهِ الّذي وسعَ السّماواتِ و الأرضَ، سيعرِفُكم واحِدًا واحِدًا. حتّى أنا

سأقفُ أمامَهُ، في صمْتٍ تأمُّليٍّ عمِيقٍ، فوقَ ربوةٍ لكَوْنٍ فَنِيَ كلُّ مَنْ عليْه. لكنّ الأبديّةَ لهُ ولكم، فأنتُم منْ روحِهِ، أمّا أنا، الّذي أنجزتُ كلَّ ما طُلبَ مِنّي بإخلاصٍ شديدٍ، فسيكونُ عليّ الرّحيلُ وحيدًا... عندها ستتجمّعُ كلُّ آلامِكم، وكلُّ احتضاراتِكم، وكلُّ صرخاتِكم في حُنجرتي، وسأطلقُ صرخةً مُدوّيةً توقظُ الكونَ مِنْ جدِيد... عندئذٍ، ستنهضونَ مِنْ موتِكم، وسأكونُ أنا الفاني الوحِيد.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

كلّها مستشفيات...

كانَ سليمان الصّغيرُ يدسُّ أصابعَهُ تحْتَ ذراعِ أخيهِ زياد، ويُدغْدِغُهُ. وما إن يضحَك بصَوتٍ عالٍ، حتّى يطلُب مِنْهُ التّوقُّفَ عَنْ ذلك، فإذا توقّفَ نظرَ إليهِ كيْ يستحثَّهُ على تكرارِ تلكَ الدّغدَغةِ مِنْ جدِيد! لمْ تُثرْ لعبةُ الضّحكِ بينَ الطّفليْنِ انتباهَ أحدٍ أو غضبَهُ، ولمْ تنتزِعْ كلمةَ توبيخٍ واحدةٍ. ربّما لأنّهم كانوا عالقينَ بعيدًا، ولمْ يعُدْ أيٌّ منهم إلى مكانِه. وأعني بـ«كانوا» الإخوةَ الثّلاثةَ، والسَّائقَ الّذي وصلَ حديثًا، بعْدَ أنْ ظلّتْ رِحلتُهُ تتأجّلُ طوالَ أشهرٍ مضَتْ، لأسبابٍ تخصُّهُ تارةً، وتخصُّ سفارةَ بلدِهِ تارةً أخْرى... ها هو يصلُ أخيرًا، لكنّهُ لمْ يلتقِ سيّدَ البيتِ قطُّ، ولنْ يفعَل، في هذه الحياة على الأقلّ. كانوا مجتمعين في بيتِ السّيّدِ سليمان، وبعدَ خُروجِ آخرِ المعزّين، ظلّوا صامتين بعضَ الوقت، تتخلّل صمتَهم كلماتٌ لا أهمّيّةَ لها، وحركاتٌ منْ قُصي الّذي بدا عليهِ التّوتُّرُ، وهو يُسقِطُ أكلَهُ فوقَ ثيابِهِ، ثمّ يلتقِطُهُ ويعيدُهُ إلى الطّبقِ الّذي يأكلُ منهُ، قبْلَ أنْ يقولَ بحذَرِ مَنْ يفكّكُ قنبلةً على وشْكِ أنْ تنفجرَ:

- كان يجدُرُ بنا منعُهُ مِنْ لعبِ تلكَ المباراةِ اللّعينةِ... كيفَ رضَخنا ثلاثتنا لرغبتِهِ هكذا؟

خلعَ باسم نظّارَتَيه ووضَعهما في جيبِهِ العلويِّ، وقال بملامحِ المستغرق في التّفكير:

- طقسُ العزاءِ هذا برُمّتِهِ غباء! أشعُر بأنّ كلَّ هؤلاءِ النّاسِ جرادٌ يتغذَّى على وقتِنا وحُزنِنا! لِمَ لا أحزنُ وحدِي، ثمَّ أتلقّى التّعازي حينَ ألتقِيهم صُدفَةً... هؤلاءِ النّاس الّذين قدْ لا ألتقيهم مرّةً أخرى في حياتي؟

تنهّدَ وهو يُلقي نظرةً إلى سقْفِ الغرفةِ:

- إنّهم يتكاثرونَ كالحشائشِ الضّارّةِ يا رجل، فهؤلاءُ ضعفُ منْ جاؤُوا للعزاءِ حين تُوفّيت أمّي رحمها الله!

أضافَ أمجد، وهو يشعلُ سيجارتَهُ:

- كفى لومًا... لمْ يكنْ أبي على ما يرامُ منذُ مُدّةٍ، وثمّة أمورٌ خاصّةٌ بهِ كانتْ تثقلُ على قلبِه.

بدا إشعالُهُ السّيجارةَ بتلكَ الطّريقةِ المتباهيةِ مهينًا لأخوَيْهِ، رغم أنّهُ تداركَ مُبرّرًا، وهو يستندُ إلى مكتبةٍ منزليّةٍ صغيرة:

- صدّقاني، لقدْ فعلتُ هذا منْ قبلُ أمامَ والدِي، ولمْ يعترضْ البتّةَ.

كانتِ السّيجارةُ لا تزالُ في يدِهِ، وهو يشير إلى المكانِ الّذي كانَ والدُهُ يجلسُ فيهِ، حينَ دخّنَ أمامَهُ قبْلَ خمسةِ أشهرٍ تقريبًا! لمْ تبْدُ على ملامحِهما علاماتُ التّصديقِ، لكنّهما تجاوزا الموقفَ، فالأمرُ برمّته لمْ يعُدْ مهمًّا، بينما أضافَ أمجد:

- إنّه يعرف أنّي أدخّن مُذْ كنتُ في المرحلةِ الثّانويّة! هذا ما قاله لي.

كانا يحاولانِ تجاهُلهُ، فانفجرَ غاضبًا:

- أنتما لا تصَدّقانني، كما لمْ نصدِّقْ والدِي حينَ كان يقولُ إنّهُ يعرفُ كلَّ مذيعٍ أو ممثِّلٍ يظهرُ على الشّاشةِ، معرفةً شخصيّةً!!

عضَّ شفتَهُ السّفلى بأسنانِهِ... فارتجف ذقنُهُ حينَ أشارَ إلى السّائقِ الّذي لمْ يقُمْ بأيِّ مَهمّةٍ منذُ وصلَ، كيْ يغادِرَ الشّقّةَ، فخرجَ بعْدَ تردُّدٍ، إذْ لمْ يكنْ متأكّدًا منْ فهمِ تلكَ الإشارةِ التي صدرت عن يدِ أمجد. عندئذٍ التفتَ إلى إخوتِهِ وهو يقولُ بأسفٍ وحزنٍ:

- كذّبناهُ كما كذّبتهُ أمّي... لمْ نَبُحْ بذلك في حضرته، لكنّهُ، بالتّأكيدِ، رآه في وجوهِنا، لذلكَ لمْ يعُدْ إلى الحديثِ عنْ هذا الموضوعِ أمامَ أيِّ واحدٍ منّا.

ارتسَمتْ على وجُوهِهم حسرةٌ كان من الجليّ أنّها لنْ تغادِرهم، مَهْما ابتعدُوا عنْها. ولمْ يعقّبْ أحدٌ على كلامِ أمجد، فقد رأوا ثلاثتُهم عددًا لا يستهانُ بهِ منَ الممثّلينَ والمذيعينَ المشهورينَ، يتوافَدونَ في أيّامِ العزاءِ... حتّى إنّ ممثّلًا شهيرًا، كان نحيلًا وذا أنفٍ طويلٍ، قال لهم وهو يعزّيهم بحرارةٍ:

- هذا معلّمي الأوّلُ... لقد ربّتَ على كتفي وهو يقولُ: «هذا برنامجُ رجالٍ، لا برنامجُ أطفالٍ... هم يعتبرونكمْ أطفالًا

لكنّهم مخطئونَ... انطلقْ وأبهرْهمْ يا رجل... تلكَ كانتْ نصيحتَهُ الأولى لي».

***

لا توجد في الموت أيُّ مصادفةٍ، هكذا هو الأمرُ، فما يأتي إليكَ، يأتي إليكَ باسمِكَ شخصيًّا، لكنَّ النّاسَ يأبَوْنَ التّصْديقَ، إذْ يرفُضُ الجميعُ هذا النّوعَ مِنَ الألمِ، ألمِ وضْعِ النّقطةِ الدّاكنةِ في نهايةِ السّطرِ الأخيرِ منْ حياةِ أحدِهم، ويصعُبُ عليهم تحمُّلُهُ... وهذا أمرٌ يفهمُهُ جيّدًا أبناءُ سليمانَ الّذين امتزجَتْ غُصَّتُهم بالشّفقة. ففي قرارةِ أنفُسِهم، أدرك كلّ واحد منهُم بطريقتِهِ، أنّ أباهم كانَ أقلَّ حظًّا في كلِّ شيءٍ، إلّا الشّكلَ الخارجيَّ، فقدْ كانَ رجلًا ببنيةٍ قويّةٍ، ووسامةٍ ملحوظةٍ، وضحكةٍ تفرضُ على الآخرينَ مُسايَرتها، لكنَّ شخصيّتَهُ الحقيقيّةَ كانت متواريةً عميقًا، ولم يعرفْ أبناؤُهُ منها إلّا أعلاها، فظلَّ عمقُهُ منْ نصيبِ سمر وحدَها. أمّا سمر فلمْ تستطِعِ التّركيزَ على شيءٍ منذُ أربعةِ أيّامٍ، ما عدا الدُّخول في نوباتِ بكاءٍ مُتقطِّعَة. في البدْءِ، تركَ لها فاضل الشّقّةَ، إذْ ظلّ يخرُجُ على فتراتٍ متتاليةٍ، تفصلُ بينَها عودةٌ سريعةٌ للاطمِئنانِ عليْها. ولمّا ساءتْ أمُورُها، ولمْ يطرأْ أيُّ تحسُّنٍ على حالتِها، ادّعى دونَ أنْ تلتقِيَ عيناهُ بعَينيْها، أنّهُ ملتزمٌ معَ بعضِ أصدقائِهِ بإمضاء أيّامٍ عديدةٍ خارجَ المدِينَة. كانتْ سمر قدْ بلغتْ مرحلةً لمْ يعُدْ يهمُّها فيها إخفاءُ نفسِها، لذلكَ لمْ تردَّ عَليْه، وتصرّفتْ على سجيّتِها. وهذه السّجيّةُ تنفِي وُجُودَ فاضل منَ الأساسِ، ولعلّ ذلكَ ما جعلهُ يتظاهرُ بنوعٍ منَ اللّامُبالاةِ، هي

نفسُها الّتي جعلتْهُ يرجِّحُ، بعدَ ظنونٍ كثيرةٍ، أنَّ الأمرَ بينَ السّيّد سليمان وزوجتِهِ سمر، بعيدٌ كلَّ البُعدِ عنِ الخطِيئةِ، وأنّهُ تصرُّفٌ خاطئٌ فحسبُ، يقترفُهُ النّاسُ عندما لا يجدُونَ ما يفعلونَه. وعندما أوشكَ أنْ يغادر الشّقّةَ، همْهَمَ مُلتويَ العُنُقِ، كمَنْ يشكو علّةً أسفل رأسِهِ، وهو مشغولُ البالِ بجارِهِ الرّاحلِ سليمان:

- الرّجلُ لا يتركُ انطباعًا جيّدًا في لقائكَ الأوّلِ به! ماذا سيفعلُ بمفردِهِ هناك!!

***

كان ميّتًا، حين ردّدَ المؤذّنُ فجرًا: «الصّلاةُ خيرٌ منَ النّوم». وكم آمنَ أكثرَ مِنْ غيره، بالوقتِ الّذي يقتطعُهُ النّومُ منَ الحياةِ، لذلك أطالَ السّهَرَ كثيرًا، ولاسيّما في سَنتِهِ الأخِيرة. هذا ما فكّرَ فيه أمجد، وهو يقفُ إلى جوارِ إخوتِهِ، فوقَ قبرِ والدِهم، متسائلًا في قرارةِ نفسِهِ: ماذا لو أنَّ كلَّ هذا زائفٌ... تلكَ الحجارةُ الّتي تنتصبُ فوقَ كلِّ قبرٍ، وذاكَ الصّمتُ الكئيبُ الّذي يلفُّ المكانَ، وهذا الحزنُ الّذي يغلّفُ الوجوهَ... ماذا لو أنّها جميعًا مجرّدُ مَشْهدٍ منْ فيلم؟ فجأةً، تذكّرَ المباراةَ الأخيرةَ في حياةِ والدِهِ، والهدفَ الّذي سجّلهُ بطريقةٍ سينمائيّةٍ، فتمنّى لو كانَ كلُّ ذلكَ مجرّدَ تمثيلٍ... كذبةً أخرى من أكاذيبِ الحياةِ الّتي لا تنتهي!

أمّا أنتَ، فإذا انتهتْ بكَ الحالُ واقفًا على ترابِ مقبرةٍ، فلا تهلع! فالدّفنُ فعلٌ طبيعيٌّ يرافقُ حتّى الأحياءَ مِنكم. استبطنْ

نفْسَكَ مثَلًا! ... أخبرني الآن، كمْ قبرًا وجدتَ في داخِلكَ، وكمْ أسرارًا دفنتَ؟ إنَّ صخبًا كثيرًا يمورُ في مقابرِكَ السّرّيّةِ، بلا ريبٍ، غيْرَ أنّهُ لا وجودَ، تحتَ سطحِ تلكَ البُقعةِ الهادئةِ، لأيّ علامةٍ تدلّ على نزاعٍ أو اختلافٍ في وجهاتِ النّظر، لنْ تجدَ في هذِهِ المقبرةِ منْ يحاولُ إقحامَ أنفِهِ في خصُوصيّاتكَ، أو يتعجّبُ مِنْ كلامِكَ بإيماءاتٍ قدْ يساءُ تفسيرُها! وكمْ سيكون مُجديًا لكَ أنْ تكونَ وحيدًا، وتتحدّثَ بما ترغبُ فيهِ أو يخطرُ لكَ، مهما يكُن قبيحًا أو غَريبًا. هُناكَ أمْرٌ ثانٍ... إذا حالفَكَ الحظُّ وبكيْتَ، فلا تشغلْ نفسَكَ بما يسيلُ منْ فمِكَ وأنفِكَ، ولا تهتمَّ بمظهرِكَ الخارجيِّ، فالأمواتُ لا يُعيرونَ المظاهرَ اهتمامًا، رغم الإشاعة التي تزعم أنّهم يفضّلون الألوانَ السّوداء.

عند الوقوف بقبرٍ، لا يملكُ النّاسُ الكثيرَ لقولِهِ، سوى جُملٍ مِنْ نوعِ: «حانَ الوقتُ»، أو: «امضِ قدُمًا»... فلا وقتَ يحينُ لأيِّ شيءٍ هُناكَ، ولا طريقَ لتمضِيَ فيهِ إلى الأمامِ أو إلى الوراء. لا شيءَ هناكَ غير يوم طويلٍ لا نهايةَ له، كانَ مقدارهُ سنواتٍ لا حصْرَ لها. وبخلافِ ذلكَ، يوجدُ زائرونَ، وخرائطُ سرّيّةٌ مخبّأةٌ، خرائطُ جراحٍ وخيباتٍ قديمةٍ وحديثةٍ ممزوجة ببعضِ مشاعرِ الخزيِ تُنكأُ كلُّها عندَ رؤوسِ الأمْواتِ... نفوسٌ صدئةٌ تُفرِغُ ما في جوفِها أمامَ حفنةِ العظامِ تلكَ، ولا يهمُّ منْ يسمَعُ، ومنْ لا يسْمَع. إنّهُ الأملُ في أنْ تتلقّى تلكَ الصّورةُ الجميلةُ المحفوظةُ في خيالاتِ الزّائرينِ عنْ أمواتِهم جُروحَ الأحياءِ بالضّماداتِ الشّافيَة... أنْ تتلقّى أصواتَهم

الباكيةَ بآذانٍ مُصغيةٍ، وأفواهٍ مبتسمةٍ، واهتمامِ مَنْ لمْ يعُدْ لهُ شيءٌ يعنيهِ أكثر منْ ذلك الزّائر. ولكَمْ أعادتْ صورةُ ميّتٍ حيٍّ الحياةَ إلى حيٍّ ميّتٍ! ... هذهِ القُدْرةُ الّتي يتحلّى بها الأمْواتُ لمْ تفُتْ قُصي، لذلك كان واقفًا بالقُربِ مِنْ قبرِ سليمان، كأنّهُ يريدُ أنْ يستعيدَ حياتَه. وبخشوعٍ ممزوجٍ بالدُّموعِ، وكتفينِ ترتجفانِ، مثلَ مَنْ يقفُ عاريًا في ليلةٍ ممطرة، كان يخبرُ أباهُ بأمْرِ طلاقِهِ مِنْ أسماء. ظلَّ يعرضُ ما حدثَ ببطءٍ، لتبرزَ تفاصيلُ كثيرة. فيوقفُ بعضَ الصُّورِ، ويُعيدُها ليؤكّدَ أحدَ المشاهدِ، كما يحدثُ حينَ يتابعُ فيلمًا على الشّاشَة. أمّا باسم، فوقف صامتًا إلى جوارِهِ، محاولًا أن يطوّرَ في نفسِهِ مفهومًا جديدًا للحياةِ حرّكَهُ فيهِ طائرٌ حطَّ على مقربةٍ منهم، ودسَّ منقارَهُ في التُّرابِ، ثمّ تناولَ شيئًا غامضًا وطارَ. بدتْ حدبةُ ظهرِ باسم أوضحَ هذهِ المرّةَ، وأكّدَ مظهَرُهُ تعاطيهِ أدويةً كثيرةً تُسبّبُ له النُّعاسَ، لكنَّ ذلكَ لمْ يحدُثْ، فما ظَلّ يشغلُ بالَهُ في تلكَ اللّحظةِ، هو ما كان يقتاتُ عليه ذلكَ الطّائر. حدّثَ نفْسَهُ بأنّ الدّيدانَ الرّقيقةَ الشّفّافةَ فوق قبرِ والدِهِ ستحملُ جسدَهُ، وتفرّقُهُ في كلِّ اتّجاه... الكفُّ الّتي عبثتْ بأعوادِ الثّقابِ، والقدمُ الّتي ركلتِ الكرةَ، واللّسانُ الّذي روى حِكاياتٍ لمْ يصّدِقُوها إلّا بعْدَ فواتِ الأوانِ، والعُنُقُ الّذي احتفَظ بعطرٍ واحدٍ طَوالَ حياتِه: «جنتل مان»... كلُّ ذلكَ يتبَعْثرُ الآن.

وأنتَ واقفٌ بينَ جُدرانِ مقبرةٍ، عليكَ ألّا تسألَ عنْ جدوى الحياةِ، بينما ترى الدّودَ يرثُ كلَّ منْ أحببتَ.

***

هلْ سيكونُ مِنَ الرّائعِ أنْ ينبعثَ صوتٌ مِنْ شقّةِ السّيّدِ سليمان، في منتصفِ اللّيل؟ صوتُ أغنيةٍ يتدرّجُ إيقاعُها، أو صرير بابٍ يُغلقُ، أو نافذة تُطلِقُ أزيزًا خافتًا، كأنّما تُفتَحُ على مهَلٍ؟ لعِلّةٍ أرضيّةٍ، لا تعْنِينا نحنُ سُكّانَ السّماءِ، سيكونُ هذا مَسْرحَ رُعْبٍ للبشرِ، إذ مهما تكنْ خسارةُ الأرواحِ مؤلمةً، فلا أحد سيكونَ سعيدًا، إذا وجدَ روحًا رطبةً أحبَّها، وأبكاهُ فراقُها، عائدةً بعْدَ دفنِها، لتتجوّلَ في أماكنِها الّتي ألِفَتْها. لكنَّ الحقيقةَ أنَّ شقّةَ سليمان مازالتْ صامتةً منذُ شهورٍ، ولا يوجَدُ حولَها منْ يتوقّعُ خروجَ أحدٍ منها. أمّا مصدرُ الجلبةِ الوحيدُ هنا فهي سمر، إذ كانت تدفعُ بعصَا مكنسةٍ رُبطتْ بإحكامٍ بعصًا خشبيّةٍ طويلةٍ طوّقَها خرطومُ مياهٍ يمكّنُها، وهيَ في شرفتِها، مِنْ ريِّ بذورٍ جديدةٍ غَرسَتها في شرفةِ سليمانَ. وقد فعلتْ ذلك بعْدَ أنْ سدّتْ شقوقَ الأحواضِ بالإسمنتِ الأبيضِ، بمساعدةِ سائقِهِ الجديدِ الّذي بقيَ في الشّقّةِ مؤقّتًا، إلى حينِ إتمام إجراءات نقلِ كفالتِهِ إلى أحدِ زملاءِ أمجد. كانتْ سمر قدْ عادتْ إلى شقّتِها في حيِّ «بَدّار»، باقتراحٍ منْ فاضل. قالَ لها، في محاولةٍ يائسةٍ لمواساتِها، كأنّهُ لا يعرفُ سببَ حُزنِها: «ماذا لو عُدنا إلى شقّتِنا القديمةِ، هل يُسْعِدُكِ هذا؟ فلعلَّ سببَ كدرِك هو تغيّرُ المكان؟ أو ربّما كانتْ هذه الشقّةُ منحوسَةً!». منذُ تلكَ اللّحظةِ، توقّفتْ سمر عنِ البكاءِ، وأخذت تَحْشُو أغْراضَها المنزليّةِ في صَناديقَ كبيرة. ولمْ يكنْ حُزنُها العظيمُ، ثمّ اندِفاعُها عَائدةً إلى شقّتِها القَديمةِ، سِوى ثقْبٍ في جِدارٍ، رأى مِنْ خلالهِ فاضل ما كانَ يحدُثُ في يوميّاتِ

سمر وسليمان، طيلةَ مدّةٍ لم يعُدْ قادِرًا على تحديدها... فهو لا يعرفُ كم استمرّتْ، سنةً أم سنتيْنِ أم ثلاثَ سنواتٍ أم أكثرَ منْ ذلك؟ لكنّ الثّابتَ عنده أنّهُ ظلَّ يجترُّ مشاهِدَ كان يتخيّلُها بينَ زوجتِهِ وجارِهِ الّذي أحبَّ رِفقَتَهُ كثيرًا، حتّى انْتقَلَ إلى مَرحَلةٍ صارَ فيها يبْتدِعُ قِصَصًا تثيرُ مُتعًا دَفِينةً في داخِلِهِ، قصصًا يجتمعُون في فضائِها جميعًا... سُليمان وسمر في أوضاعٍ لا حصْرَ لها، وفاضل بشفَتيْهِ المرتعِشَتينِ، يقفُ خلفَ سِتارةٍ، أو بينَ دفّتيْ خزانة، مراقبًا بخدرٍ لذيذٍ ما يعجزُ عنْ فعلِهِ معَ زوجَتِه.

***

البيوتُ، عكس ما يعتقدُهُ أكثرُ البشرِ، هي الأسوأ في كتمانِ الأسرار. فكلُّ شيءٍ فيها يكشفُ سِرًّا مَّا: طلاءُ الجدْرانِ، اللّوحَاتُ، التُّحفُ، الأثاثُ، الأجهزةُ الكهربائيّةُ، الكتبُ، ألبوماتُ الصّور... وسرعانَ ما تتضاعفُ الأسرارُ المفضُوحةُ يومًا بعْدَ يَوْم. وهذا ما فعَلتْهُ شقّةُ سليمان معَ قصي إذ عادَ إليها بعد إنهاءِ عقدِ إيجارِ شقّتِهِ الّتي كانتْ تأويهِ مع أسماء. ولأنّهُ دمجَ أثاثَ البيتيْنِ، أصبَحَ البيتُ في فوضى عارمة، لا تشبهُ سِوى ما يجولُ في نفسِهِ بعْدَ طلاقِهِ. لكنْ لا بأسَ، فلا شيءَ يدعُو إلى الخجلِ منَ الفوضَى، إلّا في حال تبريرِها، وهذا ما اضطُرَّ قصي إلى فعلِهِ، حينَ فتحَ شرفةَ مطبخِهِ أوّلَ مرّةٍ، بعد أن أقامَ في البيتِ أسبوعًا كاملًا. صادفَ حِينها سمرَ تجلسُ إلى طاولةِ مَطبخِها، وفي يدها سلّةُ خبزٍ صغِيرةٌ كانت تُلصِقُ على ظهْرِها خرزًا ملوّنًا، بغراءٍ أنبُوبُهُ على شكل مسدّسٍ:

- أووه... أنا آسف، لم أنتبه إلى أنّي أحدّق فيك، المعذرة... فالظّلامُ كثيفٌ، ولمْ أتوقّع أنّكِ حقيقيّةٌ... ظننتُ أوّلَ وهلةٍ أنّ هذا الأزرقَ...

أشارَ إلى شالٍ تضَعُهُ فوقَ كتِفَيْها، ثمّ أخَذَ يدهنُ الهواءَ بكفِّهِ:

- أعني أنّي ظننتُهُ قماشًا منشورًا، ليس إلّا... الشّقّةُ ليستْ على ما يُرام... لا أدري هل لاحظتِ ذلك؟ فالأثاثُ متراكمٌ، ومن ثمَّ أحتاجُ إلى بعضِ الوقتِ حتّى أُعيدَ ترتيبَه...

كعادتِهِ، أفرطَ في التّبريرِ، بينما ظلّتْ هي بوجهِها الحليبيِّ، تنظرُ إليهِ بابتسامةٍ تتحاشَى أنْ تتحوّلَ إلى ضِحكةٍ عاليَة. لقدْ وجدتْهُ تمامًا كما وصفَهُ والدُهُ في حديثٍ سابقٍ بينَهما، فبادرت إلى القول بهدوءٍ، وهي تحجبُ بيدِها تلكَ الضّحكة:

- قصي... صَحيح؟

كان سُؤالُها مجرّدَ محطّةٍ مؤقّتةٍ، ليهدأَ ويلتقطَ أنفاسَهُ قليلًا. وكما ينفذُ الماءُ من المصفاةِ، عبرتْ ذاكرتَهُ وشايةٌ تناقَلها أهلُ الحيِّ، وسخرَ منْها أبناءُ سليمان، عن جارةٍ سيّئةِ السّمعةِ تتردّدُ على عمارتِهم، وشوهدتْ على درَجِ البنايةِ مع والدِه. فعاودَ الكلامَ بلهجةٍ مليئةٍ بالاعتذارِ، ولكنْ، بهدوءٍ هذِهِ المرّةَ:

- صديقةٌ لأمّي... صَحيح؟

ردّتْ عليهِ بإيماءةٍ مُبهَمةٍ منْ رأسِها، ثمّ اقتربتْ منْ نافذتِها، فكانَ عُنقُها أوّلَ شيءٍ لفتَ انتباهه. وجبَ على قصي أنْ يصمُتَ،

ليفكّرَ قليلًا... هل أساءَ إليْها حينَ وضعَها في خانةٍ واحدةٍ مع أمِّه؟ لقدْ تشكّكَ في تقْديرِهِ، لأنّها بدتْ له منْ فرطِ رقّتِها، كأنّما ألبستْها العصافيرُ ثيابَها صَباحًا. فأضافَ:

- اعذريني... إذْ تقيّأتُ اليومَ مرّتينِ، ويبدُو أنَّ الجفافَ أفقدَني القُدرةَ على التّركيزِ... فأنا أمْرضُ إذا أُرهِقْتُ.

ثمّ تلفّتَ، وهو يشيرُ إلى الكراتينِ منْ خلفِهِ:

- كما ترين... انتقلتُ حديثًا إلى شقّةِ والدي رحمَهُ الله.

ابتسمتْ وهي تضَعُ كفَّها تحتَ خدِّها، كأنّما تريدُ أنْ تمنَعَ دمْعتَها مِن السُّقوطِ، وعندئذٍ بدتْ أظفارُ يدِها، للمرّةِ الأولى في حياتِها، متقصّفَةً. ثمّ هربتْ بنظرِها بعيدًا عن شرفةِ سليمان، كيْ تسمحَ لفمها بالارتعاشِ قليلًا، فهيَ لمْ تعترفْ بعدُ بأنّ الشّرفة منفِّرةٌ في غيابِهِ، ولم تعتدْ أنْ يليَ اسمَ سليمان ما يؤكّدُ أنّهُ يرقدُ صامتًا طلبًا للرّحمةِ، في مكانٍ غيرِ شقّتِه. كانتْ بالفعلِ قدْ أُرهقتْ هيَ أيضًا منْ أعباءِ النّقلِ، وثقلِ البكاءِ، فبدا أنّها تريدُ أن تسردَ قصّةً طويلةً... وقدْ تأكّدَ هذا، حينَ جرّتْ كرسيّها إلى حافّةِ النّافذةِ، ثمّ أشعَلتْ سِيجارةً تراءى لقصي، مِنْ طريقةِ إشعالِها ونفْثِ دُخانِها ووجُودِها المرتبِكِ بينَ الأصَابعِ، أنّ صاحِبتَها حَدِيثةُ عَهْدٍ بالتّدْخِينِ. وما إن بلغتْ حافّةَ النّافذةِ وجلستْ، حتّى ردّتْ عليهِ منْ قبيلِ التّضامنِ:

- أنا مثلكَ... تقيّأتُ في عرسِ أمّي، ولكنْ، على دفعاتٍ، حتّى إنّني لوّثتُ حذاءَ زوجِها، وهذا ما لمْ تغفِرْهُ لي قطُّ.

اهتزّ قُصي ضاحِكًا... ثمّ شرعَ يجرُّ كرسِيّهُ ليكونَ ملاصِقًا لحافّةِ الشّرفةِ، وهو يهمُّ بسماعِ القصّةِ الّتي يرجُو أنْ تكونَ طويلةً. وظلَّ، منْ حينٍ إلى آخر، يرفعُ رأسَهُ منْ فوقِ الجدارِ القصيرِ، وينظرُ إلى الخارجِ، ليطمئنَّ على عُزلتِهما.

من الثّابتِ الّذي لا يداخلُهُ ريْبٌ أنَّ البشرَ ما عادُوا يتمَهّلونَ، فخِلالَ أيّامٍ فحسْبُ ازدادَتْ مَعْرفَةُ قصي بِها. حينَها بدتْ سمر كقطعِ زجاجٍ متكسِّرٍ يحاولُ الالتئامَ، كيْ يتّخذَ هيئةَ كوبٍ مُشوّهٍ، لا يؤتمنُ على نصفِ لترٍ منْ ماءٍ فاترٍ يُصَبُّ فيهِ... وفي الحقيقةِ، هذه هي سمر منذُ توفّيَ سُليمان. فهيَ لم تضعْ حدًّا نهائيًّا لحياتِها، لكنّها كانتْ تقفُ قريبةً منَ الحافّةِ دائمًا، على خطٍّ دقيقٍ يفصلُ بينِي وبينَها، في غوايةٍ واضِحةٍ للقدَر. ظلّتْ تروي لقصي بعضَ المعلوماتِ الزّائفةِ، كتلك الّتي كانتْ تقولُها لآدمَ: عمرٌ وهميٌّ، أبٌ حنونٌ، أمٌّ قاسيةٌ، زوجٌ غيور... معلومات مِنَ النّوعِ الّذي يجبُ أن يُدوَّنَ في مذكّرةٍ، وإلّا فإنَّ تحدِيثَها سيَتمُّ باسْتِمرارٍ، أُسْوةً بجهازِ الهاتفِ المحمُولِ الّذي لا يُفارِقُها. ولا ضيرَ، فهو انزياحٌ نسْبيٌّ عنِ الحقِيقةِ، وليْسَ كذِبًا، أو هَكذا تتعامَلُ معَ الأمْرِ... باعتبارهِ نوعًا مِنَ المساحِيقِ الّتي لا تُخفِي الحقيقَةَ، لكنّها تُجمِّلُها. ولطالما ظنّتْ أنّها تقولُ الحقيقةَ مهما زيّفتْها، فهي في نظرها حقيقتُها الغائبةُ، الحقيقةُ الّتي تتمنّاها، وتريدُ مِنَ الآخرينَ أنْ يرَوْها منْ خلالِها، والأمرُ مشروعٌ في نظرها، مادامتْ لمْ تتسبّبْ في أذيّةِ أحدٍ. ومنْ حُسنِ حظِّها، أنّ قصي لمْ يكنْ يهتمُّ بالتّفاصيلِ، فقدْ كانتِ الغبطةُ تقفزُ في صَدْرِهِ، وتظهرُ على

وجْهِهِ، كلّما حانَ موعدُهُ معَ السيّدة الّتي لا تشكّلُ خطرًا، لا على الجسَدِ، ولا على الرُّوحِ، تلكَ السيّدة الّتي يشعُّ مِنْها وهجٌ يكفي لأنْ يدُلّها على الطّريقِ، وبالرَّغمِ مِنْ ذلكَ تتبَعُ قصي، وتسمَحُ لهُ بالسّيرِ في المقدِّمةِ طوالَ فَترةِ حديثِهما، وترى في القليلِ منْ لطفِهِ شيئًا كثيرًا. وهيَ عندَه تنتمي إلى صنفٍ جديدٍ منَ النّساءِ لمْ يعهَدْهُ مِنْ قبْل... صنف لنْ تؤولَ علاقتُهُ بِهِ إلى سوءٍ على أيِّ حال.

في محادثاتِهما، تجنّبَ كلٌّ منهما ذِكرَ سليمان، فقد كانت سمر تصبّ إحباطَها على بياضِ البيضِ في كعكاتِها، وعلى كلِّ تلكَ القصصِ المختَلَقَةِ، أمّا قصي، فتورّمَ رأسُهُ، في البدْءِ، ثلاثةَ أضعافِ حجمِهِ، منْ فرطِ ربطِهِ بينَ سمر وما مرَّ بِهِ سُليمان خلالَ سنتِهِ الأخيرةِ، حتّى التزم أخيرًا بتجنُّبِ ذكرِهِ أمامَها، كما تجنّبَ اشتهاءَهُ لها احترامًا لوالدِه. لكنَّ سمر بانتباهِها الحادِّ تفطّنتْ إلى أنّهُ يرتدِي قميصًا ضيّقًا ظنّتهُ ليسَ لهُ، بينما كانت هي ترتدِي بلوزةً تكبُرها بثلاثِ نقاطِ قياسٍ على الأقلِّ... لقد كانَ كلٌّ منْهما يُلجِمُ جسدَهُ بطريقتِهِ، وقدْ ظهرا معًا منَ الأعلى، بكلِّ اختلافاتِهما حدَّ التّناقضِ، كأغراضٍ لا رابطَ بينَها، إلّا وجودها متجاورةً، في غرفةٍ لا يحبّ النّاسُ دخولَها، يسمّيها البشرُ: «غرفة المفقودات».

***

تبادرَ إلى ذِهْنِ أسماء، وهي تدخُلُ مَكتبَها الجدِيدَ، أنّ هناكَ ما ينقُصُه. تلفّتتْ في اتّجاهينِ، قبلَ أنْ تجلسَ مُسندةً ظهْرَها إلى

الوراءِ... فقد كان بودِّها أنْ تعترضَ على أمرٍ مّا لحظةَ دخولِها، لكِنْ لا شيءَ تغيّر في واقع الأمر. ومع أنّ مكتبَها يطلُّ على متنزّهٍ لمرضَى المستشفى وزوّارِهم، مجهّزٍ بنوافيرِ الماءِ وألعابٍ للأطفالِ، فقدْ بدا في نظرِها خاليًا تمامًا مِن البشَر. ومِنْ ثمّ تراءى لها المشْهدُ فراغًا مُحزِنًا كانَ مِنَ الممكنِ مَلؤُهُ بلحظاتِ سعادةٍ لا تُحصى، حتّى إنْ كانتْ مَسْروقةً مِنَ ساعاتِ الملل والألم الطّويلةِ. وفي سرِّها صَحّحَتْ لنفسِها الأمرَ... لا ريبَ إذَنْ أنّ النّقصَ الّذي تشعُر بهِ في مكتبِها، سببُه الرّوتين. فلطالما تكرّرَ هذا اليومُ كثيرًا في حياتِها. إنّها لا تعيشُ أيّامَها، بل تسْتَنْسِخُها على نحوٍ صارخٍ، وهذا الشّعورُ يزدادُ بلا توقّفٍ منذ طلاقِها منْ قصي. وذاك الغريب في الأمر، فلم تكنْ في زواجِها أشياءُ سِحريّةٌ جالبَةٌ للبهْجَةِ، ومع ذلكَ تفتقدُ ذلكَ المكانَ الّذي جمعَهما، وتفتقِدُهُ هو أيضًا، على نحوٍ لمْ تتوقّعْهُ قطُّ، ولاسيّما بعْدَ ما حدَثَ بينَهما آخِرَ مرّةٍ... إنّها تفتقِدُهُ كما لو أنّه كانَ الجزءَ الوحيدَ المتحرّكَ منْ حياتِها، رغم كلِّ النّجاحاتِ المهنيّةِ الّتي حقّقتْها.

سمعتُ هذا اليومَ زميلتَها في المكتبِ وهي تسردُ أحداثَ موقفٍ حصلَ لها صباحًا. قالتْ إنّ أسماء ألقت رأسَها على مكتبِها، ثمّ... بكتْ كما يبكي بعضُ الأطبّاءِ المستجدّينَ، فوقَ الجثثِ الّتي فشلوا في إسْعافِها. لقدِ استلزمَ الأمرُ شجاعةً بالغةً، لتعترفَ بأنّها فقدتْ تميمَتها الّتي كانت تردُّ الشّرّ عنها.

في التّقريرِ الّذي بين يديّ، سيكونُ على أسماء أن تنهيَ حياتَها بكامِلِ إرادتِها، وهي في السّادسةِ والثّلاثينَ منْ عُمْرِها، وسيتوجّبُ

عليها قبلَ ذلكَ، أنْ تعبُرَ السّنواتِ القليلةَ المتبقّيةَ لها بذاكرةٍ تتبعُ في ومضاتٍ خاطفةٍ ذلكَ الحبّ الّذي غمَرها بهِ قصي في ما مضى. صحيحٌ أنّها عاشرتْ بعدَهُ رجالًا آخرين، لكنّها فعلتْ ذلك مغمضةَ العينيْنِ، باحثةً عن وجهِ قصي. وكما يعاشرُ عاجزٌ كرسيَّهُ المتحرّكَ طَوالَ النّهارِ، لم تكنْ ترى في أحلامِها غير قصي، بينما ظلّتْ في نظر الرّجال الّذين التقَوْا بها، كآنيةٍ قابلةٍ للكسرِ، ملفوفةٍ بعنايةٍ في كيسٍ ورقيٍّ، عليهم أن يمسِكوهُ بحذرٍ، فلا أحدَ يعرفُ على وجهِ التّحديدِ، متى سينكسر محتواه؟

***

«ماليزيا ممطرةٌ حتّى صيفًا، وهي لا تصلحُ لوالدتِكِ يا ريما»، تسلّلت هذه العبارةُ إلى أُذنَيْ سمر، حين كانتْ تمرُّ كطيفٍ إلى جوارِ غرفةِ الجلوسِ، متّجهةً لإعدادِ الشّايِ في المطبخ. كان الجميعُ منهمكين بالتّرتيبِ لإجازةِ الصّيفِ القادمِ، في محاولةٍ لإخراجِها من حالةِ الشّتاتِ الّتي تمرُّ بها، وهي حالٌ بدتْ مفاجئةً للجميعِ، باستثناءِ حماتِها. الراجحُ أنّ سمر اعتبرت الألم الّذي سيخلّفه المطر فيها كفّارةً عنْ سفرِها، بينما سُليمان يتحلّلُ في التّرابِ، لذلك خرجَ صوتُها منحنيًا مثل ظهرِها، وهي تضعُ إبريقَ الشّايِ فوقَ الطّاولةِ، ثمّ تميلُ فوقَ أكوابٍ تملؤُها:

- فلنُسافرْ إلى ماليزيا هذه، كما اقترحَ زوجك يا ريما... لا أرى مانعًا!

صمتتْ بعدَها، فقدْ صارتْ مؤخّرًا سيّدةَ الجملِ البرقيّة، ثمّ عادتْ إلى صبِّ الشّايِ، وبعض الكلمات القليلة منْ فمِها:

- لندعِ الأمورَ تأخذ مجراها.

خلالَ الأسابيعِ الثّلاثةِ الّتي سافرتْ فيها، كانتْ تقضّي ساعاتِ الظّهر وهي تتمشّى في حدائقَ ممتدّةٍ على هيئةِ غاباتٍ وصخورٍ وبركِ ماءٍ، حيثُ لم تكنْ تسمعُ إلّا وقعَ خطواتِها فوقَ العشبِ، أو أصواتَ الطّيورِ من حولِها، وظلّ سُليمان يرافقها على الدّوامِ، فقدْ كانَ من المتواتر أنْ تبتسِمَ لحظاتٍ وهي تتذكّر موقفًا أو عثرةً تعرضّ لها في مطبخِه... أو أنْ تمدَّ يدَها، فتمسكَ بغصنٍ، كأنّها تمسكُ بيدِه. لقد أحبّته بمشاعرِ فتاةٍ في العشرينَ، مشاعر لم تختبرها بصدقٍ من قبلُ، وها هي اليومَ تختبرُ حياتَها بعدَه. وكلّما أرهقتها الذّاكرةُ، اتّكأتْ على جذعِ شجرةٍ متينٍ، فلا تفكّرُ إلّا في جذورِها الّتي ترحلُ عميقًا في باطنِ الأرضِ، حيثُ يسكنُ حبيبُها... فهي أيضًا ستمدُّ جذورَها تحتَ التّرابِ، باحثةً عنْ سببٍ يبقيها على قيدِ الحياة.

سقطتْ أوّلُ حبّاتِ المطرِ على كتفيها، وهي في طريقِ عودتِها إلى الفندق، بينما كان الظّلامُ قادمًا ببطء. مشتْ بضعَ خطواتٍ، ثمّ توقّفتْ، لكنّها عادتْ وأكملتْ سَيْرَها حتّى ساحةِ الفندُق. لم تَخَفِ المطرَ ولم تتجنّبْه، لأنّ سليمان أطلَّ بوجهِهِ منْ مكانٍ عميقٍ، وهو يقولُ لها مبتسمًا: «كمْ يريحُني أنّكِ لستِ كاملةً إلى هذا الحدِّ يا سمر، ومع ذلكَ، عليكِ في يومٍ من الأيّامِ أنْ تمشي تحتَ المطر». أمامَ

بوّابةِ الفندقِ الّتي تشكّلُ نصفَ دائرةٍ، تنبّهت إلى أنّها تمشي تحتَ المطرِ منذُ ما يقاربُ السّاعةَ، ولم تُصَبْ بالصُّداعِ بعْدُ. كانتْ مبتلّةً تمامًا. ورغم ذلك، تفطّنت إلى دموعها مجموعةٌ منَ السّياحِ، حتّى إنّ أحدَهم طَمْأَنها قائلًا: «لا تحزني... كلُّ شيءٍ سيكون على ما يرام». ومهما يكن الّذي ستصابُ بهِ سمر من تأثيرِ المطرِ، فإنّهُ سيكون أقلَّ أوجاعِها، لأنَّ الألمَ الكبيرَ يطردُ ما سواه منْ آلامٍ صغيرةٍ على أيِّ حال.

***

ما أعانَ باسم على النّهوضِ منْ سريرِهِ صباحًا هو ولادةُ طفلِهِ الثّالث. ففي مَسِيرةِ أيِّ عائِلةٍ، ينْسَى الجمِيعُ، حينَ يولدُ الطّفلُ كاملًا ودون أن يَلحقَ الضّررُ والدتَهُ، كلَّ اللّحظاتِ التّعيسةِ: الآلام الشّديدة، القلق، الخوف، التّرقّب، الوقوف الطّويل أمامَ غُرفِ الولادةِ... إذْ تلفظُ الذّاكرةُ البشريّةُ، في هذه الحالةِ، كلَّ اللّحظاتِ الضّارّةِ، ولا تُبقي إلّا على مثلِ تلكَ اللّحظةِ التي وقف فيها باسم مزهوًّا بقُدرتِهِ على التّمدُّدِ في كائناتٍ أخرى. لمْ يشعُرْ باسم بعدُ بأيِّ عاطفةٍ تُجاهَ طفلِهِ، فهو يحتاجُ إلى أنْ يراهُ ويلمسَهُ أوّلًا... هو لنْ يحمِلَهُ، لأنّهُ يخافُ حملَ الأطفالِ في هذِهِ السّنِّ المبكّرةِ، ويقول إنّها مَهمّةٌ أموميّةٌ بامتيازٍ، لكنّهُ سيحاولُ دسَّ سبّابتِهِ العملاقةِ في كفّهِ الصّغيرةِ الرّطبةِ، كما فعلَ مع إخوتِهِ منْ قبْل. ولأنّ الأطفالَ يولدونَ منْ نبعٍ واحدٍ، فإنّهمْ يتشابهون إلى حدٍّ بعيدٍ لحظةَ ولادتِهم، لذلكَ حدّقَ باسم إليهِ من خلفِ جدارٍ زجاجيٍّ، دون أن يكونَ على يقينٍ

منْ أنّه يحدّقُ في طفلِهِ هو، لا في طفل شخصٍ آخر. نظرَ إلى الشّريطِ المحيط بمعصمِ الصّغيرِ الّذي قيلَ له إنّه ابنه، وارتعبَ منْ فكرةِ أنّ مستقبلَ هذا الرّضيعِ معلّقٌ بهذا الشّريط... ماذا لو انتقلَ من معصمٍ إلى معصمٍ نتيجةَ خطإٍ أو مكيدةٍ مّا؟ فالأمُّ والأبُ والإخوةُ والعائلةُ والمسكنُ والمستوى المعيشيّ... بل الحياةُ بأسْرِها، يمكنُ أنْ تتغيّر في طرفةِ عين. لكنْ، يمكنُ أيضًا لحياتِهِ أنْ تصبَّ في مكانٍ آخرَ، وأن يعيشَ قصّةَ حبٍّ كاملةً، غيرَ مبتورةٍ كتلكَ الّتي لاحتْ لهُ قبلَ أشهرٍ... ومن ثمّ يكون أبًا لأطفالٍ آخرين... احتمالات لا تحصى كانتْ أمامَهُ قبلَ أنْ يُخلقَ، لكنّه الآنَ محاصَرٌ باحتمالٍ واحِدٍ، بعدما نجا منْ كلِّ تلكَ الاحتمالات. أحسَّ باسم برعبٍ دامَ بضعَ ثوانٍ، وهو يفكّر في ما هو مقدمٌ عليهِ خلالَ أيّام... أهو قادرٌ فعلًا على تغييرِ هذا الاحتمال؟ لم يكنْ قرارُهُ مبنيًّا على حساباتٍ دقيقة، فقدِ اعترفَ لنفْسِهِ بأنّهُ لا يستطيعُ الجزمَ بأنّ كلَّ مكاسِبِهِ هي مكاسبُ فعلًا، ما لمْ يخْضْ غمارَ خسارتِها. جرَّ نفسًا عميقًا، وهو يبتسمُ لأخويْهِ حين وصَلا معًا. نظرَ قصي إلى تلكَ الحجرةِ المليئةِ بأجسادٍ لا يزيدُ طولُها على خمسينَ سنتيمترًا... قطعةُ لحمٍ كهذِهِ، كانتْ ستجعلهُ يعيدُ النّظرَ ألفَ مرّةٍ، قبلَ أنْ يتّخذَ قرارهُ المؤلمَ، مساءَ ذلكَ اليومِ، في شقّته. ليسَ غريبًا أنّه التقطَ صورةً للرّضيعِ، وأرسَلها إلى سمر مُعلّقًا عليها: «مشاعري مرتبكةٌ إزاءَ هذه المخلوقاتِ... أنا عمُّهُ، ولا يليقُ أنْ أبديَ فضولًا بخصوصِ حجمِ أذُنيْه! ما رأيكِ أنتِ؟ ألا تبدُوان خُفّاشيّتَيْن؟». لم ينزحْ أمجد كثيرًا عمّا يفكّر فيهِ قصي، فقدْ

تخيّلَ طفلهُ المستقبليَّ بأذنيْنِ بارزتيْنِ، لا يمكنُهُ تجاهلُ وجودِهما. «حينَ حضرَ والدي لرؤيةِ أوّلِ أحفادِهِ، مالَ بجذْعِهِ إلى طفليْنِ مُتجاوريْنِ، ثمّ سألنِي بلهفةٍ، وهو يشيرُ بأصبعِهِ: هذا أم هذا؟ صاحتْ والدتي يومها، وهي تشيرُ إلى طفلٍ ثالثٍ: أليسَ واضحًا في نظرك أنّ هذا هو حفيدُك؟». كان باسم يتحدّثُ، مدفوعًا منْ ذاكرتِه. استغرقَ الأمرُ دقيقةً قبل أن يكملَ: «لم يكنْ أيٌّ واحدٍ من الأطفالِ الثّلاثةِ حفيدَهما... كان مظهرُهما أشدُّ غرابةً، وهما يحدّقانِ إليّ وينتظرانِ إجابةً صحيحةً... حينها، رأيتُ أنّ عليّ مجاراةَ أمّي، فتظاهرتُ بأنّها على صوابٍ... ليتني كنتُ صادقًا لحظتها». تبادلَ الإخوةُ ابتساماتٍ باردةً، تتوارى خلفَها ذكرياتٌ كثيرةٌ مشابِهة. كانَ باسم على وشكِ أنْ يخبرَهما بموعدِ سفرِهِ إلى إسطنبول وما كان عليهِ القيامُ بهِ لإصلاحِ العطبِ الّذي أصابَ قلبَه، لولا أنّه أحسَّ برطوبةِ الكفِّ الصّغيرةِ الّتي تشبّثتْ بسبّابته... نظرَ إلى تينكَ العينيْنِ اللّتيْنِ لا تقويان على مجابهةِ النّورِ، بعد أشهرٍ طويلةٍ منَ الظّلامِ، ثمّ قرّر تأجيلَ الموضُوع. «سأخبرُهم لاحقًا»، قال في نفسِهِ. ومازلتُ أجهلُ حتّى اللّحظة، كيفَ يضبطُ البشرُ ساعاتِهم على هذِهِ الـ «لاحقا»؟!

المستشفيات... إنّكَ لا تعرفُ ما هو مهمٌّ حقًّا في حياتكِ، إلّا في مثلِ هذِهِ الأماكنِ، حيثُ التناقضات الكثيرةُ... موتٌ وحياةٌ، ألمٌ وراحةٌ، مرضٌ وشفاءٌ، دموعٌ وابتساماتٌ... مخرجٌ أماميٌّ للأحياءِ، وآخر خلفيٌّ يتسرّبُ منهُ الأمواتُ بصمتٍ، وبعيدًا عنِ الأنظارِ، كأنّما يخجلونَ منْ رحيلِهم. ستخرجُ كبذرةٍ من البابِ الأماميِّ نحو

طريقٍ صُمّمَ لكَ، مزهوًّا بحفنةِ سنين في قبضتِكَ، وبأغصانِكَ الّتي ستتفرّعُ فوق الأرضِ، لكنْ مَهْما يُطُلْ وقتُكَ، ومهما تَطُلْ أغصانُكَ، ومهما يمتدّ ظلُّكَ... ها إنّي أقُول لكَ في لهجةٍ مليئةٍ بالاعتذارِ: ستجدُنِي يومًا مّا أنتظرُكَ أمامَ البابِ الخلفيِّ، لأعيدَكَ إلى باطن الأرضِ الّتي تمشي فوقها. فكلُّ خطوةٍ تخطُوها، ستكونُ دائمًا باتّجاهي، مَهْما بالغتَ في الحذرِ أو الخوفِ، لذلك عليكَ أنْ تتعجّل في سيرٍ يشبهُ القفزَ، عليكَ أن تضعَ حبكةً مثيرةً لقصّتك، حتّى إن لمْ تكنْ مُتقنةً، فلا وقتَ أمامَك للإعادةِ، وتصحيحِ الأخطاءِ، مهْمَا تبجّحتَ بخلافِ ذلكَ، فكلانَا على الطّريقِ نفسه، وإنْ كنّا في اتّجاهيْن مُتعاكسيْن... كلانا ماضٍ إلى الوجهةِ ذاتها، ولا مفرَّ منْ لقاءٍ سيجمعُنا ذات يوم.

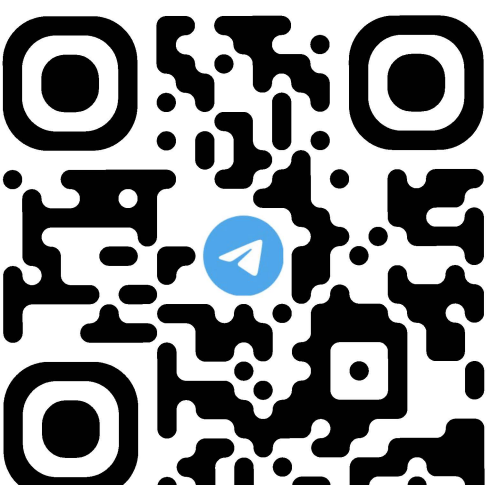

مكتبة ياسمين علي تلجرام

الفهرس

- أنا في طريقِي إليكَ 7
- قدْ تُصابُ بِي مرّتين..... 47
- ليس كلّي بلا فائِدَة..... 75
- ولنْ تعدِلوا... 109
- أُطِلُّ عليكم... 139
- سهْوُ العابِرين..... 167
- رقّةُ الغُفْران..... 189
- كلّها مستشفيات... 209

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook